رواية
INTERNATIONAL AIRMAIL POST
٣٦٦
أمير تاجُ السرّ

عنوان الكتاب : ٣٦٦
المؤلف : أَمِير تَاجُ السِّرِّ
المراجعة اللغوية : عبد الهادي عباس
الإخراج الداخلي : رشا عبدالله
تصميم الغلاف : عبدالرحمن حافظ
رقم الإيداع : ١٤٧٣٥ / ٢٠١٧
ردمك :978-977-6549-37-1
الطبعة الرابعة : يوليو 2017

المدير العام : هاله البشبيشي
المدير التنفيذي : شريف الليثي

دار تويا للنشر والتوزيع

dartoya2015@gmail.com
دار تويا للنشر و التوزيع Dar.toya
@Dar_Toya
Dar.toya
(+2) 01150483084 - (+2) 01000706014
٣٥ شارع النصر – المعادي – القاهرة – مصر

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

٣٦٦

أمير تاج السر

إلى سوسن إبراهيم دائمًا

تـدورُ أحـداثُ هـذه الروايـة، بـين عامـيْ ١٩٧٨ و١٩٧٩، وقـد بُنيـتْ عـلى وقائـعَ حقيقيـةٍ، حيـث عـثرتُ ذات يـومٍ عـلى حزمـةٍ مـن الرسـائل مكتوبـةً بحـبرٍ أخـضر أنيـق، ومعنونـةً برسـائل المرحـوم إلى أسـماء، وكانـت مشـحونةً بشـدة كـما أذكـر. ضاعـت تلـك الرسـائل، لكـن بقيـتْ أصداؤهـا تـرنُّ في الذاكـرة، ليـأتي هـذا النـص.

في الزمان القديم كان ثمة عاشقٌ.
كان مُغرمًا بالشمس،
يُغازلها حين تُشرق،
وحين تغرُب، يبكي غروبهَا
يُناديها لتُشرقَ من جديدٍ.
سألوه عن سرِّ ذلك العشق،
فالتقط رُمْحه وأصابَ قلبه.
لم يسقط المطرُ ساعتها،
تلك كانت دموعُ الشمسِ
تبكي عاشقَها.

ـ١ـ

أسماء، أيتها الومضة.

الزهرة.

السحابة.

النبـع الـذي كان مـن المفـترض أن يسـقي، ولم يسـقِ إلا بالقـدْر الـذي كان كافيًـا لانسـحاقي:

أنـا المرحـوم، وليـس هـذا اسـمي بالطبـع، ولكنـه الاسـمُ الـذي اقترحتْـه المحنـةُ حـين اقتربـتُ مـن النهايـة، وارتديتُـه عـن قناعـةٍ.

رسـالتي إليـكِ ليسـتْ عاديـةً، وأعـرفُ أنهـا لـن تصلـك في أي يـومٍ مـن الأيـام، ولكنـي كتبتُهـا. سـميتها ٣٦٦، كنايـةً عـن سـنةٍ لاهثـةٍ، مؤلمـةٍ، مريضـةٍ، قضيتهـا في حبـك. ذلـك الحـب الـذي كان بـلا أمـلٍ مـن بدايتـه، واسـتمر بـلا أمـلٍ، ولم ينتـهِ.

أردتُها أن تكون رسالةً ثوريةً، هائجةً، حرةً، كاشفةً، وفي الوقت نفسهِ صببتُ عليها الكثير من عَرَقِ المدينة الساحلية، تلك التي آوتني وآوتك ذات يومٍ، وآوت كل ما يُمكن أن تُؤويه المدن.

لن تكونَ الوقائعُ مُرتبةً كما حدثتْ بالفعل وعشتها، فقد عدَّلتُ ومحوتُ كثيرًا، وعدتُ لكتابة فقرات عديدة، ما كانت موجودةً في بداية الكتابة، ولأنني من عُشاق حبر الكتابة الأخضر، حتى لو كتبتُ به مجرد خربشةٍ على باب بيت، أو عبارة بلا معنى على ظهر أحد باصات النقل العام، فقد استخدمته في هذه الرسالة، اقتنيتُ قناني متعددة، ومن ماركات متعددةٍ، وسكبتها على الورق، وأحسستُ به قد منحني طاقة الكتابة، تلك التي لن تصلكِ أبدًا يا أسماء، وكتبتُها برغم ذلك.

لم أحس أبدًا بأنني أسرفتُ في خوض الوحل، واقتناء الشوْك، لأضفر به حياتي التي كانت عادية، مثل أي حياةٍ لشخصٍ مثلي، ولم ينتبني أي شعورٍ بعدم الرضا، حتى وأنا منساقٌ إلى الفجيعة بقدمين، أنا من ألبسهما نعل الفجيعة.

في ذلك اليوم المختلف، في حياتي كلها كما أذكر، أحسستُ برعشة المُحبين لأول مرة.

كانت رعشةً حقيقيةً، وقاسيةً، لا تُشبه رعشات المُراهقين حين يلمحون فتاةً عابرةً في الطريق، يُطاردونها بالهلوسة، والضحكات، وعبارات الهيام الكذاب، ويُوظفونها فتاة أحلام سيئة في الليالي الوقحة، ثم يستبدلونها بواحدةٍ أخرى، أقل أو أكثر وهجًا، ربما تعبر بعد ذلك. ليس مجرد عَرَقٍ غزيرٍ تبرَّع به الجسدُ النحيلُ، وقد حدث ذلك بالفعل، ولا ازدياد في ضربات القلب على الرغم من أنها ازدادت حدَّ الخطر، ولا تلعثم في اللسان، وقد تلعثم حدَّ عدم الفهم، ولكنه موتي الذي لم أكن أتوقع أبدًا أن أموته بهذه الطريقة.

لم أكن من هواة صناعة الأحلام، في أي فترةٍ من فترات حياتي، يا أسماء، ولا كاتب رسائل مزخرفة لحبيباتٍ يسكنَّ قِممًا مُفخخةً، ولن يجُدنَ بالوصل أبدًا، ولا جلستْ على الدكك في الطرق العامة، أتلصصُ على مشي الأنثى وعطورها، التفاتتها إن التفتتْ، وضحكتها إن ضحكتْ، ولا قصدت الأسواق في موسم الشراء المزدحم، وأشركت حواسي الخمس في صعلكة الزحام المعروفة، كما يفعل الكثيرون، إلا نادرًا، وحتى حين كانت أمي تُرسلني لاستلاف مِلعقة سُكر أو حِفنة بُن أو توافه أخرى، من عند إحدى جاراتها الصغيرات، الجميلات، وأنا في سنٍّ تضغطني بشدةٍ، لامتصاص قوام الجارة، وإنشاء مساحة إغراءٍ شاسعةٍ، من مجرد سقوط غطاء الثوب عن رأسِها، أو انفراج الشفتين

عـن ابتسـامةٍ مُرحبـة، كنـتُ أذهـبُ مُنكسًـا، وأعـودُ وبالـكاد قـد رأيـتُ الجـارة، أو انتبهـتُ إلى عطـرٍ ربمـا كانـت تضعـه عـلى جسـدها.

لا أُنكـر أننـي عرَّجـت عـلى بيوت الهـوى في حـي الصهاريج المُتسـخ، في الطـرف الجنـوبي مـن المدينـة، في فـترةٍ مـن فـترات حيـاتي المبكـرة، قبـل أن أنضـج، تذوقـت الطعـم الـرديء، وتعرفـتُ عـلى بعـض سـكانِها، بمـن فيهـم "زهـور" الإثيوبيـة، التـي كانـت تُلقـب بملكـة جـمال الليـل، في مُحيـط مرتـادي ذلـك الحـي، و"محبوبـة" التـي كانـت تُفاخـر بأنهـا أدَّت فريضـة الحـج، عـدة مـرات، وكتبـت عبـارات الحـج المـبرور والذنـب المغفـور والعـوْد الحميـد، عـلى بـاب بيتهـا، بنفـس النهـج الـذي يكتـب بـه الطاهـرون، والصينـي الشـهير، "باقـر نـو ليـام"، الـذي وُلـد هنـاك مـن أمٍّ مواطنـة، التقطتـه نطفـةً مـن أحـد البحـارة الصينيـين العابريـن، في أواخر الخمسـينيات، وحـين ماتـتْ بالسُّـل بعـد ذلـك، كان قـد كـبر، وأجـاد المهنـة الوحيـدة التـي قُـدر لـه أن يُلـم بهـا في ذلـك الحـي التعـس.

لكننـي لم أكـن عربيـدًا يـا أسـماء، كـما أوضحـتُ لـك مـن البدايـة، ولم أكـن صعلـوكًا يسـتحق أن يعشـقَ بـلا أمـلٍ، ويُـردم بمفـردات عـدم الوصـال كلهـا، تلـك التـي تخصـه والتـي تخـص غـيره مـن العُشـاق الغارقـين في النـزف، نعـم أُحـسُّ الآن بأننـي قبيلـةُ عُشـاق مـوءودة، وأدتهـا معشـوقة، دخلتنـي مـن

دون إذنٍ ولم تخرجْ، لأنني من أوصد باب الخروج، وألقى بمفاتيحه حيث لن يعثرَ عليها أحد.

حين نضجت بعد ذلك، تخرجت في معهد التعليم العالي، وعملت مدرسًا لمادة الكيمياء في إحدى المدارس المتوسطة، ضاعت المرأة العاشقة والمعشوقة من حياتي بشكلٍ مؤسفٍ، من دون أن تكونَ قد تجسَّدت أبدًا من قبل، كانت محاليلي الحامضة والقلوية، ومعادلات تركيب المعادن وتفتيتها، وقوانين خلق الجزيئيات، وإنهاء خلقها، تترحل معي في الذهن باستمرار، وتلاميذي قساةٌ ومستهترون في أغلبهم، وكم من مرةٍ أغاظوني، أفسدوا قمصاني وسراويلي المحدودة العدد بمحاليلي نفسها، وزملائي مجرد زملاء في وقت العمل، لم أدخل بيوتهم إلا حين كان يجب عليَّ أن أدخل، ولم يدخلوا بيتي إلا حين ماتت أمي، المرأة الوحيدة التي كنتُ أعرفها، حتى التقيتك يا أسماء. وباستثناء زميلي في القسم، وجاري على الطاولة المُقابلة، شمس العلا الذي كنا نُسميه عبقري الكيمياء، ويستحق تلك التسمية بالفعل، لم يقترب أحدٌ مني، ولم أقترب منه كثيرًا.

كان شمس العلا شابًّا في أوائل الثلاثينيات، نحيفًا، غزير شَعر الرأس، وغريب السلوك إلى حدٍّ ما، كما سأخبرك لاحقًا، ويملك موهبةً فذةً في شد طلابه، وزملائه معًا، وكان

قـد سـقط في العشـق المجنـون، قبـلي بعـام تقريبًـا، تعلـق بواحـدةٍ مـن بنـات الأُسر العريقـة في المدينـة، ويسـعى جاهـدًا للارتبـاط بهـا ولكـن في صمـتٍ. والآن قـد جـاء دوري، لأسـقط ولكـن بمجـيء أعنـف، فقـد اختـارني عشـقك الـذي لم أختـره حقيقـة. هـو الـذي اختـارني، جرجـرني مـن حبـال القلـب، ومرَّغنـي في الوحـل، وحوَّلنـي بـين ليلـةٍ وضُحاهـا إلى متسـولٍ غريـب الأطـوار، يمـد قـدح الحـزن إلى كل شـفةٍ يراهـا تضحـك، علهـا تُلقـي إليـه حتـى ببقايـا تلـك الضحكـة.

بالطبـع كان لي أهـلٌ يتشـتتون في كل أحيـاء المدينـة تقريبًـا، وأصِلُهـم بـين حـينٍ وآخـر، وأصدقـاء قليلـون، وجـيران طيبـون وأوغـاد، سـتعرفينهم واحـدًا واحـدًا حـين يـأتي ذكرهـم. وكانـت لي طـرقٌ مشـيتُ فيهـا، ومقـاهٍ جلسـتُ عليهـا ذات يـوم، وأمـراضٌ مرضتهـا، وهتافـاتٌ هتفـتُ بهـا في ملاعـب كـرة القـدم، وذكريـات بعضهـا مـؤلم حقًّـا، وبعضهـا مُفـرح أو عـادي للغايـة، لكـن مـا أصابنـي بعـد ذلـك، كان شـيئًا مُختلفًـا تمامًـا، لـن أسـتطيعَ تفسـيره حتـى لـك أنـت محدثتـه.

لقـد ظهـرتِ طيفًـا شـفافًا في حفـلٍ بـلا بهرجـةٍ كثـيرةٍ، ومضيـتِ تاركـةً جُرحًـا أخـاذًا، سـيظل ينـزفُ حتـى يومـي الأخـير.

-٢-

لـن تتذكـري أبـدًا أيـن التقيتـك لأول مـرة، يـا أسـماء، لأنـك لا تعرفـين أصـلًا أننـي التقيتـك، وأننـي تعمقـت في لقائـك، وصادقتـك حـدَّ الجنـون، وعرفـت بحاسَّـة قويـة متمكنـة، تفاصيلـك، التـي قـد لا تعرفينهـا أنـت نفسـك، وأسـتطيع أن أدرسـك، وأحـاضر في سـيرةٍ تملكينهـا، وأملكهـا أكـثر منـك، لـن تُصدقـي أننـي كنـتُ قريبًـا منـك لأشـهر طويلـة، في لحظـات مرضـك التـي ربمـا تكونـين قـد مرضتـه، ورونقـك وانبهـارك واسـتيائك، وغـرورك، وكل مـا يُمكـن أن يخصـك، وتخيلتـه بجـدارة. أتعـذب في صمـتٍ، لدرجـة أننـي أحببـتُ العـذاب بشـدةٍ، سـميته عطـر أسـماء، صنعـتُ منـه نكهـاتٍ متعـددةً، رششـتها في قلبـي، وأصبـح عـلى مـرِّ الأيـام، عطـرًا مفضـلًا، وبديعًـا، شـمته الدنيـا كلهـا، إلا أنـت. وبرغـم أن عشـقي كان مـن البدايـة بـلا أمـلٍ، فقـد تركتـه ليكـونَ هكـذا، مُسـتعرًا

نازفًا، أنا الذي ألقي بحطب معاناته كلما خبا، من دون قدرةٍ على تركه يموت.

الزمان، إحدى ليالي الخميس، الليالي المُفضلة لإقامة الأفراح في بلادنا، كما تعرفين، والمكان نادٍ شبه أرستقراطي عتيق، في وسط المدينة، قريبًا من شاطئ البحر، يُسمونه النادي الطلياني، اسمه استعماري صِرف، لكني لم أرَ طليانًا أو أشباه طليان، أو أي غرباء آخرين، يتحاومون فيه في المرات القليلة التي طرقْته فيها، ولا أعرف سر تسميته تلك، وإن كانت ملاعب التنس وكرة اليد والسلة المهجورة، بنجيلها اليابس، والأزهار المُحترقة على جانبيها، وطريقة زخرفة الأبواب والنوافذ، وأردية عماله المُنسقة إلى حدٍّ ما، تدل على أنه كان ذات يوم، إحدى بؤر الغرب المتعددة في بلادنا، وفارقته الأرواح القديمة، لتحل أرواحنا في المكان، تُلبسه ثياب البيئة المحلية، ويستطيع واحدٌ من أقاربي، مثل "عبد القادر علي"، الذي يعمل موظفًا عاديًّا في أحد البنوك الوطنية، ويسكن مع أهله، حيًّا شعبيًّا في طرفٍ من أطراف المدينة، أن يستأجر مسرحه القديم، ليُقيم حفل زفافه.

لم أكن أيضًا من هواة حفلات الزفاف الصاخبة على الإطلاق، أعتبرها مناسباتٍ خرقاءَ يمكن اختصارها إلى أدنى حد، وإقامتها داخل بيتٍ صغيرٍ بلا ترفٍ ولا ضجيجٍ،

بحضور مَن يعنيهم أمرها، من أهل العروسين وجيرانهم، لكن المجتمع ليس في صفي على الإطلاق، وكنتُ أذهب مضطرًا لمشاركة من أعرفهم، وكان عبد القادر من أقاربي اللصيقين، ومن ثم لا بد من مشاركته حتى النهاية.

أتيتُ إلى الحفل متأنقًا بحسب تصوري الشخصي، ولم أكن ضليعًا في الأناقة، في أي فترةٍ من فترات حياتي، أرتدي ملابس راعيت فيها أن تبدو ملابس مُعلم في مدرسة، ربما يصادفه أحد تلاميذه في ذلك الحفل، ولا يُحس بأنه يُصادفه خارج صفوف الدراسة، أو معامل الكيمياء، قميصي أبيض بلا خطوط إضافية، وسروالي أزرق فاتح، وعطري واحد من تلك العطور السائدة في السوق، أظنه كان عطر ماكسي أو جاكومو، أو ون مان شو، لا أذكر الآن بالتحديد، ولم تكن لدي حيلة لأجعل وجهي شديد الفرح، فقد كان وجهًا جامدًا، ممتلئًا بتجاعيد، ورثتها من أسرةٍ لم تورث سوى التجاعيد.

كان المسرح مُعدًّا بطريقة إعداد مسارح الزفاف المعروفة في البلاد، ثمة ورد أحمر وأصفر وبنفسجي، متناثر في المكان، وأضواء ملونة بألوان قوس قُزح، تُحلق، وسجاد من القطيفة الحمراء، مفروش على الأرض، وكرسيان مكسوان بالمخمل الأحمر، موضوعان في ركنٍ من أركان المسرح، يجلس عليهما العروسان، ومئات المقاعد

البلاستيكية، التي رُصت في المواجهة، وقد ازدحمت بالناس والعطور والفرح، وصراخ الأطفال، وثمة فرقة موسيقية من شباب في عشرينيات العمر، بملابس سوداء، وشعور طويلة، اسمها فرقة اللهب، تعزفُ على آلاتٍ متنوعةٍ، ومغني وارف الصوت، يردد:

وكان الليل أشواقًا
ووجهك مُشرق فيها
وكان الصبحُ دمعاتي
التي احترقتْ أمانيها.
فيا ليلي كفى شوقًا
ويا صبحي كفى تيها.
ستشرقُ ذات أمنية
وأنسى كلَّ ماضيها.

انتظرتُ حتى انتهت الأغنية التي أطربتني حقيقةً، وصعدتُ مختبئًا، في وسط عددٍ من الأقارب إلى حيث يجلس العروسان، حتى أؤدي واجب التهنئة المعتاد، والتمنيات بحياة زوجية سعيدة، وأمسح ذرات من العَرق، انزلقتْ على وجهي، وأنزوي في أحد المقاعد، حتى يتقدم الليل قليلًا، وأفر إلى عزلتي المنظمة في حي "المساكن" الذي أسكنه منذ وُلدت، لكنكِ ظهرتِ فجأةً يا أسماء، ظهرتِ، لا أعرف من أين وكيف، وكان ظهورك بذلك

الشكل المفاجئ، هو الممحاة الكبرى التي ستُزيل كل جفاء قديم جافيته للمرأة، وتنبت مكانه خفقات قلب. تُعيد جنون المراهقة المفقود، كله، تُبقيه قليلًا، وتلغيه، تعيد فوران الشباب المفقود أيضًا، وتبقى مُعربدةً بداخله.

وجدتك أمامي كاملةً، سخية الجمال، متهورة في العطر والشَّعر والسِّحر، كأنك خرجتِ من أمنيةِ المُغني، التي تحدَّث فيها عن الإشراق، ومن فوضى عازفي الطبل والجيتار، ومن كل ضحكةٍ ضحكتها امرأةٌ، أو زغرودة أطلقتها أمٌّ أو خالةٌ، كأنك المناسبة الكبرى التي تأنقت لحضورها.

حقيقةً لا أعرفُ كيف أصفك، فلم أصفْ من قبل سوى حلقة البنزين، وهايدركلوريد الصوديوم، والبوتاسيوم لطلابي القُساة المُستهترين، فقد كنت في تلك اللحظة بحاجة لمعلم آخر، من معلمي علم الجمال، في مدرسة من مدارس السحر، ليصفك لي.

كان ثوبك أسود بنقوشٍ حمراء، لعلها كانت مشاريع أزهار ستنبت، لكن المُصمم ألغاها بحنكةٍ، لاستحالة أن تنبت أزهارٌ أخرى، على جسد زهرة، لعلها كانت بذور نجوم، ستزين سماء الثوب لو تُركت، وألغيت أيضًا لأن كوكبًا أشد بريقًا، احتل السماء المعتمة، وأضاءها. لم أميز أي إضافاتٍ خادعةٍ على الوجه، ولا شبهة استعارة على

الشعر الذي تمدد حتى الكتفين، والعطر الذي رجَّني حقيقةً، لم يكن مثل عطري السائد، الذي لا يرجُّ حتى شعرة دم واحدة.

في البداية تأملتك في حذرٍ، وخُيل لي للحظةٍ، أنني سأظل مُمسكًا بالحذر حتى أبلغ مقعدي، وأنتظر تقدم الليل وأمضي إلى بيتي، كما خططت، لكن الحذر ما لبث أن سقط صريعًا في المسافة بيني وبينك، وفتحتُ عينيَّ على اتساعهما، جعلتهما مغرفتين شديدتيْ الظمأ، تغرفان ما استطاعتا.

أظنك لم تنتبهي إليَّ في تلك اللحظة، ولا في أي لحظةٍ أخرى من لحظات تقدم العشق داخلي، لأنك لم تشاركيني إياها، ولو كنتِ قد انتبهتِ، لربما ظننتُ أن الذي كان يرتعدُ أمامك، محمومًا في نوبةٍ من نوبات الملاريا، وبحاجةٍ إلى إسعاف، وحقيقة كنت في حُمى، وبحاجة إلى إسعاف، ظللتُ أتمنى قدومه حتى يومي الأخير، وأنا حي الشعور، قبل أن أرحل رحيلي المعنوي.

شاهدتك تصعدين إلى المسرح الملون، تُقدمين التهنئة للعروسين، مادة يدًا خلتها من حريرٍ، وتنزلين، تصعدين مرةً أخرى بعد أن اشتعلت أنغامُ فرقة اللهب من جديدٍ، وجاء مغنٍ آخر، أشد صعلكةً، وأعلى صوتًا، وردد أغنيةً راقصةً، شاركت فيها برقصةٍ متزنةٍ ونزلتِ، تابعتك

وأنـت تمشـين، رصـدتُ مشـيتك بولـهٍ، وأنـت تجلسـين عـلى مقعـدٍ بجـوار نسـاء أخريـات يعرفنـك، وغرسـت عينـيَّ فيـك، سـمعتك تتحدثـين، ولم أسـمعك جيـدًا، لأن ثمـة مسـافةً كانـت بينـي وبينـك، وفي اللحظـة التـي هممـت فيهـا باقتنـاص ابتسـامةٍ زاهيـةٍ، بـدأت شـفتاك تنسـجانها، تحيـة لواحـدة حيَّتـك، مـن أجـل أن أسـتعيدها في خلـوتي، أو خلـواتي التـي سـتطول كـما بـدا لي، داهمنـي أحـدُ تلاميـذي الأشـقياء بغتـةً، خاطبنـي بلقـب الأسـتاذ، وأعـادني بـلا أي خيـارٍ منـي ولا رغبةٍ، إلى مختـبر الكيميـاء، مُعلـمًا صارمًـا، كـما كنـتُ طـوال حيـاتي، وحـين مـضى، وعـدتُ إليـك مـن جديـدٍ، لم تكـوني موجـودةً في أي مـكانٍ مـن أمكنـة ذلـك الأثـر الطليـاني، لا عـلى المـسرح ولا عـلى المقاعـد، ولا بـين النسـاء المشـتتات حـول الأمسـية، بشـتى ألوانهـن وأزيائهـن، واللائي تبعـثرتُ وسـطهن كالمجنـون باحثًـا عنـك.

لقـد ذهبـتِ يـا أسـماء، ذهبـتِ، ولم تـتركي عنوانًـا أو موعـدًا، أو شـبعًا راسـخًا، يتجشـأ بـه الجائـعُ في مـا تبقـى مـن ذلـك الليـل المختلـف.

ـ٣ـ

وصلتُ إلى بيتي الكائن، في حي المساكن، في ذلك الخميس المختلف عن أيامي كلها، كما أخبرتك، راكبًا عربةً قديمةً للأجرة، عثرتُ عليها بصعوبةٍ شديدةٍ، وكان سائقها في نشوةٍ خبيثةٍ كما يبدو، مُشبعًا برائحة عَرق الخمارات القوي، ويرقصُ على أنغام أغنيةٍ رديئةٍ، اشتهرت في تلك الأيام، كانت تبث من راديو عتيق، مُثبت على السيارة. سمَّاني (الأخ محظوظ) بمبرراتٍ يعرفها وحده، وتحدث بصوت النشوة، عن أحقيته برئاسة نقابة سائقي عربات الأجرة في المدينة، ويأبى زملاؤه ترشيحه لها بسببِ الحسد، وأنزلني عَنوة، في طرف الحي غير المأهول، والمُحاط بغابات المسكيت الكثيفة، رافضًا بشدةٍ، أن يتقدم خطوةً واحدةً، حتى لو دفعتُ له أضعاف أجرته، واضطررت لقطع المسافة المتبقية على قدمي، أتلفَّت في حذرٍ، وأتذكر

"شـلال" المجنـون، أحـد شـخصيات المدينـة الشـهيرة، الـذي قيـل إن فتـاةً عاريـةً، بوجـه ثعلـبٍ، خرجـتْ لـه مـن غابـة مسـكيت ضحلـة، ذات ليلـة، وسـألته أن يعلمهـا رقـص الباليـه.

لا بـد أنـك تعرفـين شـلال يـا أسـماء، فلـم يُولـد أحـدٌ في المدينـة، أو يمـت فيهـا، أو يعـبر بهـا مجـرد عبـور، إلا صادفـه ذات يـومٍ، يتمايـل في الطـرق، بمـا يعتقـد أنـه رقـص باليـه صميـم.

كان حـي المسـاكن، كآبـةً موروثـةً، هكـذا أُسـميه يا أسـماء. أنشـأته السـلطة الحاكمـة في نهايـة الخمسـينيات، ووزعتـه للطبقـة الكادحـة، بيوتًـا ضيقـة مـن غرفتـين، بـلا حـوشٍ كبـيرٍ، ولا مزايـا مُتعـددة، ولا فرصـة لأي إضافـةٍ مسـتقبليةٍ مبدعـةٍ، كان أبي مـن عُـمال السـكة الحديـد المخضرمـين، حـين مُنـح البيـت، وفـرح بـه بشـدة، وقريبًـا مـن سـن التقاعـد، حـين صـدر قـرار مفاجـئ بتمليـك تلـك البيـوت لسـكانها، والآن أصبـح بيتـي وحـدي، بعـد أن ماتـت أمـي منـذ أكـثر مـن عشر سـنوات، واختفـى أخـي الأكـبر بخـاري، الـذي كان مُصـورًا فوتوغرافيًـا في أحـد أسـتديوهات التصويـر الشـهيرة بالمدينـة، وناشـطًا سريًـا في حـزب البعـث العـربي الاشـتراكي، مـن دون أن أعـرف ذلـك، واختفـى فجـأةً منـذ سـبع سـنوات، بعـد حمـلاتٍ مكثفـةٍ مـن السـلطة الأمنيـة، لمطـاردة الناشـطين اليسـاريين، ولم يظهـر بعـد ذلـك أبـدًا، لا في المدينـة ولا أي مدينـة أخرى في

البلاد كلها، وظلت صورته وهو يلتقط حقيبةً باليةً على عجلٍ، يضع داخلها ثيابًا قليلةً، ونظارة شمس، وفرشاة أسنان، وعدة أوراق عليها أختام وتوقيعات، ويختفي بلا وداعٍ، ماثلة في ذهني سنواتٌ عدة بعد ذلك، قبل أن يردمها غبار الزمن.

تلك الأيام عرفتُ معنى الخوف لأول مرة يا أسماء، عرفته خوفًا مريرًا مهلكًا، ليس بسبب اختفاء أخي، الذي لم تتح لي حتى فرصة وداعه، ومطاردة فراره، ومحاولة العثور عليه حيًّا أو ميتًا، ولكن بسبب انتقالي إلى دهاليز الأجهزة الأمنية، وتورطي في تحقيقات، ومهاترات، وأساليب بذيئة لم يصدق مطلقوها أبدًا، أنني مجرد مدرس يتيم، وأخ غشيم لبعثي هارب، وأنني ما نشطتُ سياسيًّا أبدًا من قبل، ولا أعرف عن البعث العربي الاشتراكي أكثر من كونه حزبًا متأرجح السمعة، تمنيتُ كثيرًا أن لا تدخل أفكاره عائلتنا، ودخلت مع الأسف الشديد. وحين خرجت من تلك الدهاليز المظلمة أخيرًا، وتنفست بلا سعالٍ ولا رغبةٍ في القيء ولا ذعر، كنتُ بحاجة لشهرٍ كاملٍ، قبل أن أستعيد توازني، وقامتي التي أقف بها معلمًا رصينًا، في حصص الكيمياء أدرس التلاميذ.

كانت البيوت شبيهةً ببعضها، ومتلاصقةً بشدةٍ، وكان من الطبيعي جدًّا، أن تعرف حتى نملة مهمشة، تسكن

جحـرًا في أحـد البيـوت، تلـك الحكايـات التـي تتخبـط هنـا وهنـاك، وعـلى مـدى تلـك السـنوات الطويلـة التـي مـرَّت على إنشـاء حـي المسـاكن، وتوريثـه للأجيـال اللاحقـة بعـد ذلـك، لم يخـرج مـن أي زقـاق، أو فتحـة مـن فتحاتـه الضيقـة، مواطـن يمكـن تصنيفـه لامعًـا، باسـتثناء بائعـة الهـوى "نجميـة"، التـي اشـتهرت لعامـين فقـط، وماتـت في ظـروفٍ غامضـةٍ، ولاعـب الكـرة "درشـة"، الـذي اختطفتـه الأضـواء العاصميـة، وطلحـة رضـوان، الـذي تعلـق بتجـارة العملـة منـذ كان صبيًّـا، وهجـر الحـي منـذ زمـنٍ بعيـدٍ، وعُـين فيـما بعـد، وزيـرًا للتخطيـط، في حكومـةٍ شـكلها أحـد تُجـار العملـة العاصميـين الكبـار، وضمَّـت وزراء معظمهـم ناشـطون في ذلـك المجـال.

كان الحـي شـبه مظلـمٍ حـين وصلـت، والمسـافة مـن الطـرف غـير المأهـول، إلى الطـرف المأهـول، تبـدو وكـرًا محتملًا يـدس عصابـات جـن أو عصابـات إنـس في جوفـه، كان الركـض لا يُشـبه أصالـة المعلمـين وتفردهـم، والمـشي برصانـة وبـطء، يُشـبهها، لكنـه غـير مضمـونِ العواقـب.

لـن تُصدقـي يـا أسـماء أننـي تذكرتـك في منتصف المسـافة، تذكـرت أننـي أحملـك طيفًـا بداخـلي، وكان لتلـك الذكـرى تأثيرهـا القـوي النفـاذ، فقـد مشـيتُ بـلا خـوفٍ ولا تـردد وأكاد أخاطبـك بوصفـك رفيقـي الـذي يُشـاركني المسـافة، ويعـدني أن نصـل إلى النهايـة معًـا.

كانت عند جاري اللصيق "فاروق"، الذي يعمل ممرضًا بالمستشفى الكبير، ويلقب بفاروق كولمبس منذ عرفته، من دون أن أعرف سبب اللقب، جلسة ممتدة كما يبدو، في ركنه الذي يُسميه قاعة محاضرات الحياة، ويجمع فيه الراغبين من سكان الحي، والأحياء المجاورة، في كل ليلةٍ، يُسمعهم حكاياتٍ غريبةً، ومغامراتٍ لا أظنها إلا من صنع خياله، لأنني سمعتُ صوته رنانًا، يملأ فراغًا متمكنًا في ذلك الصمت الموحش، وعند جاري الآخر "حليمو"، الذي كان بحَّارًا فيما مضى، وأوقف عن العمل، منذ عامين، لا شيء، لأن حليمو نفسه، كان لا أحدَ، في أكثر السنوات التي قضاها جارًا لي في ذلك الحي، الموروث من طبقة آبائنا الكادحين، وفي باقي البيوت المتلاصقة، إما سكونٌ قاحلٌ، وإما ضحكةٌ أو همسةٌ لا تُسمع.

كان بيتي مُظلمًا، ولم تكن ثمة حاجةٌ لإنارته، على الرغم من وجود الكهرباء في تلك الليلة، وأعرف كيف أدخل في الظلام، وكيف أخرج، وكيف أقضي حاجتي، وكيف أطبخ وأغسل، وأستخدم مكواة الفحم العتيقة، في كيِّ الثياب، في أكثر الليالي حلكة..

لم يكن ذلك تدريبًا تدربته طائعًا يا أسماء، لكنه من صنع كهرباء الأحياء البعيدة كما تعرفين، أو لعلك لا تعرفين، تلك التي لا يعرف أحدٌ أبدًا، متى تأتي، حين

تنقطع، ومتى تنقطع حين تأتي، لتنقطع من جديدٍ، وفي حي المساكن وغيره من الأحياء الشبيهة، ثمة مباريات للعب الورق والدومينو، تُجرى كلها في الظلام، مسابقات للجري وكرة القدم، تُقام في الظلام، ويحضرها المشجعون بكثافة، ولدينا ولدٌ شقي اسمه "خطاب"، كان أبوه نجارًا في هيئة الأشغال العامة، وورث البيت كغيره من الوارثين، اخترع رقصة خاصة، سماها رقصة الضوء، يستقبل بها السكان الكهرباء حين تعود بعد غيابٍ طويلٍ، ولم تكن رقصته تلك، تُستخدم للأسف إلا نادرًا.

لا أظنك دخلتِ حي المساكن يا أسماء ولا أظنك مررتِ به حتى نسمة عابرة، لأن سكان الأحياء المنضبطة بناء وزخرفة وشوارع مسفلتة كالحي الذي خمَّنت بعد ذلك أنك تسكنينه، وصادقته بدرجةٍ كبيرةٍ، لا يعرفون أن ثمة أحياء أخرى، في نفس مدينتهم، تعامل بهذه البذاءة، ويُصنف سكانها شعبيين، من دون استفتائهم، إن كانوا يقبلون بالشعبية، أو لا يقبلونها، ولقد تجمعنا ذات يوم، بقيادة فاروق كلومبس، ذهبنا لمقابلة طلحة رضوان، تاجر العملة الوزير، الذي كنا نفخر جميعًا أنه خرج من حينا ذات يوم، عند زيارةٍ عابرةٍ شرَّف بها المدينة، ضايقناه بوجوه حي المساكن الخشنة، وعَرَقِ الشعبيين وملابسهم، وعطورهم الرخيصة، وخطبة بلا إعدادٍ جيدٍ، أصرَّ كولمبس على إلقائها أمامه، وكدنا نقهره تمامًا، أو بالأحرى، قهرناه

فعـلًا، بجملـة واطئـة، خسيسـة، رددهـا أحـد الصبيـان ممـن تسـللوا في وفدنـا عَنـوة، حـين قـال:

– يـا والـدي الوزيـر، تقـول أمـي باسـتمرار، إنـك تقدَّمـت للـزواج مـن خالتـي أمونـة عـوض السـيد، ورفضتـك.

– أمونة؟.. مَن أمونة؟

كان مزاجه مُتسخًا بالفعل، وهو يُردد: أمونة؟..

والصبـي يُمعـن في دلـق قـاذورات حـي المسـاكن عـلى مزاجـه، وهـو يُوضـح: خالتـي.

وبرغـم أن تلـك الجملـة الواطئـة، الخسيسـة، نسـجت من حقائـق حـي المسـاكن التي سـجلتها ذاكرتـه، ولم يعـد بالإمكان محوهـا، أو تجاهلهـا، حتـى بعـد أن تزوجـت الخالـة مـن آخـر في نفـس تلـك الأيـام، ونزحـت إلى مدينـةٍ أخـرى، وانقطعـت أخبارهـا تمامًـا، إلا أن مجـرد اسـتعادتها في هذا الظـرف، ودلقها عـلى مـزاج وزيـرٍ متأنـقٍ، يـشرف المدينـة بزيـارةٍ عابـرةٍ، كان كفيـلًا بـأن نطـرد جميعًـا في ذلـك اليـوم، مـن دون أن نحصـل عـلى وعـدٍ بحـل مشـكلة الكهربـاء المزمنـة، ضاعـت خطبـة كولمبـس غـير المنمقـة جيـدًا، كأنهـا لم تُلـق، وضاعـت أناقـةُ الشـعبيين، وعطورهـم التـي أراقوهـا في ذلـك اليـوم، وأيضًـا أحـلام وجبـة عشـاء مختلفـة، حلـم الكثـيرون مـن أعضـاء الوفـد، أن يتناولوهـا برفقـة سـعادته.

ما حدث أنني تعثرتُ في الظلمة يا أسماء، احتككت بطاولتي الموضوعة في الوسط منذ سنوات، ولم أحتك بها من قبل أبدًا، وسقطتُ على أرض الصالة الضيقة، مُحدثًا فوضى لم تحدث منذ سنواتٍ بعيدةٍ. شممتُ الغبار، ورائحة الدم، وسمعتُ صوت تحطم، لا أدري هل كان تحطم زجاج؟ أم تحطم عظم؟ أم تحطم أعصاب؟. نهضتُ بصعوبةٍ وأضأت الكهرباء، كان جسدي سليمًا إلا من خدشٍ بسيطٍ على جبهتي، ولا أثر لشيء مكسور على الأرض.

تلك اللحظة أيقنتُ تمامًا بأنني علقت فيك من النظرة الأولى، وما تحطم حقيقة، وسمعت أناته بوضوحٍ، كان قلبي ولا شيء غيره.

على الحائط المقابل كانت أمي على إطارٍ مترب، تُطالعني، وتحتها فراغٌ مُستطيلٌ عشَّش فيه العنكبوت، كان فيما مضى يحتضن صورةً أخاذةً، لأخي بخاري، التقطها لنفسه، في لحظة غرور مهني، وانتزعها الأمنيون يوم جاءوا، ولم أستطع استعادتها أبدًا على الرغم من أنني سعيتُ لذلك، عشرات المرات. كان الرد مكررًا في وجهي، من أصغر مجند، حتى أكبر صاحب رتبة استطعتُ الوصول إليه: أن لا أسأل في ذلك الشأن أبدًا.

ما كان إيجابيًّا، هو أن أمي لم تُصنف والدة لإثم، ومن ثم تُركت صورتها التي تتأملني الآن، وتُشاهد وحدها أولى تخبطات ولد لم تعرفه كذلك طوال حياتها.

ماذا أفعل الآن؟

السؤال ليس سؤالي الروتيني حين أُجابه بمعضلةٍ من معضلات الدنيا صعبة الحل، أو معادلة كيميائية معقدة، سرقها تلميذٌ ذكي من دفتر طالب جامعي، وأحرجني بها في وسط التلاميذ، ولكنه سؤال حواسي كلها: البصر، كيف يبصر وجهًا آخر غير وجهك يا أسماء؟ الشم كيف يشم عطرًا آخر غير عطرك؟ اللمس، كيف يوظف في مفردات ليس لك توقيع فيها؟ السمع، كيف يعود شعبيًّا، محتفيًا بخرافات فاروق وغيره من سكان حي المساكن المعاصرين؟ أو صارمًا يستقبل أسئلة الأغبياء في الدرس؟ التذوق، كيف يُحب أشياءه الأولى التي نشأ عليها، بلا تكبر ولا طموح؟

في لحظةٍ ما، وأنا أمام أمي التي تتأملني من داخل الإطار، أحسستُ بأن كل رعشةٍ ارتعشتها حتى تلك اللحظة، ليس لها ما يُبررها على الإطلاق، فأنا لم أعرفك بعد، ولا شاهدتك سوى في ذلك الحفل العادي، وكنتُ صاحب ماضٍ لئيمٍ في ما يختص بالمرأة، ولا يجدر أن يُمحى هكذا في لحظة ارتباك واحدة؟.. كأن اللحظة امتدت أكثر، وسألتُ نفسي مجددًا: مَن أسماء؟ ما دواخلها، ما طعمها

الحقيقي، وهل هي على ارتباط برجلٍ ما، أم حرة طليقة، ويمكنني أن أساهم في ملء انطلاقها بحبي؟..

لا تستغربي أنني كنتُ أعرفُ اسمك في تلك الليلة الأولى، فقبل أن أغادر ما تبقى من ضجيج الحفل، عرفتُ الاسم وأحببته بجنونٍ، واحدة كانت تسأل عن أسماء ذات الثوب الأزرق المطرز بمشاريع نجوم لم تخط. لعلها أختك أو لعلها جارتك، لا أعرف بالتحديد.

لحظة التساؤل، لم تمتد كثيرًا لحسن الحظ، ووجدتني أعود بذهني إلى الحفل مرغمًا، إلى حيث كانت البداية، التي لن أعرف أبدًا في ذلك الليل المهلوس، إن كانت بداية حياة، أم بداية موت؟ وتذكرت في نفس الوقت، أنني قرأتُ مرةً في إحدى الصحف، عن رب أسرة أمريكي مُسالم، كان يذهب إلى عمله في الصباح كل يوم، ويعود إلى بيته في المساء وقد اشترى كيسًا، عبأه بمستلزمات الأسرة، وفي أحد الأيام خرج من عمله كالعادة، لم يشتر كيسًا ممتلئًا بالمستلزمات كما يفعل عادة، ولكنه اشترى سلاحًا ناريًا، عبَّأه بالرصاص وأخذ يُطلق النار على الناس في الشوارع.

ما السبب في رأيك يا أسماء؟

ليس هناك سببٌ على الإطلاق، هذا الرجل لم يكن مسالمًا في أي يومٍ من أيام حياته السابقة، فقط اكتشف نفسه متأخرًا، فقد وُلد قاتلًا.

هل رأيتِ يا أسماء؟..

أنا أيضًا لم أكن لئيمًا في ما يختص بالمرأة على الإطلاق، واكتشفتُ نفسي متأخرًا، فقد وُلدت عاشقًا، وعاشقًا لك أيتها المُضيئة، حدَّ الجنون.

كنتُ أشغل إحدى الغرفتين في البيت، الغرفة التي سكنتها منذ وعيتُ، وشاركني فيها بخاري حتى يوم اختفائه، بينما ظلت غرفة أمي مُغلقة منذ وفاتها، لم أعرف الكثير عما بداخلها ولا حاولت أن أعرف، وقد سعى بخاري قبل اختفائه بعامين، إلى محاولة تنظيفها، وترتيبها، وفرشها بأثاثٍ جديدٍ، اشتراه بالفعل، لتكون ملجأه، ولم يستطع، أعاد إغلاقها مرةً أخرى وسلمني مفتاحها الذي لا بد أنني أضعته بعد ذلك.

بدتْ غرفتي موحشةً لأول مرة، والسرير الذي تعودت خشونته فيما مضى، أشبه الآن بصخرة.

لماذا أتقلب في الجمر؟ لماذا أنا هكذا؟..

لم أكن أملك الإجابة للأسف، وحتى لو كنتُ أملكها، فلن أستطيع استخدامها ضد عشقك الوليد، ومع التباشير الأولى لبزوغ الفجر، استطعتُ أن أغفو، لكنها غفوةُ مُرابطٍ في حربٍ، تمزقها حتى الشفاه لو همستْ.

في حوالي السابعة صباحًا، فتحتُ عينيَّ، كانت الجمعة بهدوئها النسبي، وخلوها من بعض ظواهر الأيام العادية، مثل ضجيج الشوارع، وحركة المغادرين إلى أعمالهم في كل بقعةٍ فيها عمل، في المدينة الكبيرة.

الجمعة عندي، في العادة، يومٌ جيد من أيام النشاط، أخصصه لإعادة البريق إلى بيتي، بعد أن يكون قد فقد في الأيام العادية، يمكنني أن أكنس الغرفة والصالة الضيقة، والحوش الصغير، وأغسل ثيابي، أرمم طاولة مهتزة، أشد حبلًا للغسيل على وشك أن ينهار، أو أعتني بخطايا ربما أكون قد ارتكبتها، طوال الأسبوع، وأذهب إلى صلاة الجمعة، وفي العصر، أذهبُ أحيانًا لصيد السمك برفقة زميلي شمس العلا، الغريب الأطوار، عاشق فتاة الأسرة العريقة الذي يسعى للارتباط بها في صمتٍ، وفي الغالب أنفرد بهوايتي التي اكتسبتها منذ عامين فقط، وأصبحتْ جزءًا مُهمًّا من شبعي الشخصي، وهي إعادة تخطيط المدينة على الورق.

هل سمعت عن هواية كهذه يا أسماء؟

هل صادفك من قبل معتوهٌ، يلغي أحياء كاملة من مدينته، بما فيها حيه الذي يقطنه منذ وُلد، ويرسم أحياء أخرى، لم تخطر على بال أي معماري؟

نعـم، لقـد كنـتُ أفعـل ذلـك، ومنـذ أن انتبهـت فجـأة ذات يـومٍ إلى أن المدينـة قـد شـاخت، وذبلـت، وانكـسر قوامهـا القديـم، وأنـا أعدلهـا رمزيًّـا عـلى الـورق، أنتقـم لهـا مـن حـي تكـدس في وسـطها، ورهلـه، وأزيلـه، مـن حـي نمـا كدمـلٍ في إبطهـا، وأزيلـه، وحـين أعـرج عـلى حـي الصهاريـج، حيـث الخـمارات، وبنـات الهـوى التعسـات، وتجـارة البانجـو والحشـيش المخـدر، أضغـط عـلى ممحـاتي بشـدة، وأعيـد رسـم بيـوت فاضلـة. ولأن حـي المسـاكن، لم يكـن سـوى درنٍ آخـر مـن تلـك الأدران الكثـيرة، فقـد أزلتـه عـشرات المـرات، وأنبـتُّ مكانـه حديقـة، أضفـت إليهـا كثـيرًا مـن الطيـور والأزهـار، وأنّـات العشـاق، بعـد أن عرفتـك.

لم أقـترب مـن حيكـم أبـدًا، حـي البسـتان، حتـى قبـل أن أعرفـك، فلـم يكـن درنًـا ولا دمـلًا، ولا عصـارة هضـم بـلا معنـى. كان حيًّـا راقيًـا حقيقـة، وازداد في نظـري رقيًّـا بعـد أن عرفتـك، وبعـد أن أصبحـتُ مـن سـكانه غـير المقيمـين، كـما سـأخبرك.

أحيانًـا أظـن بأننـي غـير سـوي، وأن في عقـلي بقعـة اضطـراب، ينبغـي أن تُعالـج عنـد طبيـبٍ نفـسي، أو عـالمٍ روحـاني، ثـم أعـود وأنتـصر لحيـاتي الراهنـة، كرجـلٍ تجـاوز

الأربعين بقليلٍ، لم تعبر بحياته سوى النواقص التي لم تعد في نظره، نواقص أبدًا بمرور الوقت.

حوالي الثامنة، وأنا ما أزال ممددًا على فراشي، لم أعثر على أي خليةٍ في جسدي، تنشط وتوقفني على قدمي، سمعتُ صُراخًا بدا لي ينبعُ من بيت جاري فاروق كولمبس.

لن يكون الأمرُ خطيرًا، أعرفُ ذلك، وكانت هذه إحدى العلامات المتمكنة في حي المساكن، خاصة في صباح الجمعة، حين يستيقظ جاري من رقادٍ مُضطرب، بفعل محاضراته الممتدة في الليل، ومخدر البانجو الذي كان من مستخدميه المعروفين، يجلبه من حي الصهاريج، وأحياء أخرى شبيهة بالصهاريج، ولأن الأمر غير خطير، ومكرر وعلامة من علامات حيِّنا كما أخبرتك، فقد قررتُ أن أعود إلى محاولة النوم مرة أخرى، لأن الوقت ما زال مبكرًا. لكن توقعاتي كانت خاطئة، لم يكن صوت كولمبس العادي، حين يتحدى امرأته، أن تلاعبه الورق وهو يشدها من أذنها، أو يضربها بلا مناسبةٍ، أو يمسكها من ضفيرتها الطويلة، التي لم تغيرها أبدًا منذ رأيتها لأول مرة، ويُلقيها أرضًا. كان صوتًا آخر مُمعنًا في الهمجية، حادًّا، وأشبه بسكينٍ يُحاول أحدهم غرسها في لحمٍ حي. نشطت عضلاتي الخاملة كلها، وأسرعت إلى الطريق، كان كولمبس بملابس داخلية قذرة،

مُلقى على الأرض أمام بيته، وعلى صدره يبرك القبطي "ألبيرت راجي"، أحد سكان حي المساكن الجدد، ويعمل حدادًا في ورشةٍ ورثها عن أبيه، بالمنطقة الصناعية، محاولًا أن يخنقه، وهو يسبُّ بألفاظ الشوارع المُمعنة في البذاءة، وامرأة فاروق بملابس البيت المجعدة، المصنوعة من قماش "الكستور"، تصرخ وتشد ضفيرتها بيديها، ومارة قليلون، يشاهدون الحدث، ولا يتحركون إلا بألسنتهم فقط.

لم يكن كوملبس جارًا مثاليًّا، على الإطلاق، ولا جارًا سيكون مثاليًّا في يوم من الأيام كما أتوقع، وطوال وجوده في الحي بعد أن ورث البيت عن أبيه أيضًا، كان مدرسة إفساد خرَّجت عشرات المتمردين على أسرهم، والواهمين بأن يعيشوا الحياة كما يحكيها، وأيضًا تعلم كثير من المراهقين، سكك البانجو المخدر، بعد أن درَّبهم على استخدامه. لم يشكه أحدٌ إلى أي سلطة من قبل، ولن يشكيه، لأن حي المساكن لا يعتبر أبناءه عاقين، حتى وهم في أعلى قمة للعقوق، ولولا أن ألبيرت راجي لم يكن من السكان الأصليين، ولا سكن الحي إلا مؤخرًا، بعد أن اشترى فيه بيتًا من أحد الوارثين، لما كان سيسبُّه، ويبرك على صدره، ويُحاول خنقه في ذلك الصباح.

مهما كان السبب. ولأنني من السكان الأصليين، كما تعرفين، وجارًا مرغمًا على الجيرة، هجمتُ على الحداد،

أمسكته من ثيابه، وأبعدته في عنفٍ، وأدخلت الممرض المفزوع إلى بيته، وانتهى الأمر.

الذي حدث بينهما لم يكن يعنيني في شيء، ولا حاولتُ معرفته، والحداد استعاد توازنه وهدوء أنفاسه، بعد لحظاتٍ قليلةٍ، ومضى في طريقه من دون أن يُصرح بشيء، والمارة المتجمعون، انفضوا بلا أي تصور أو استنتاج، وألمح في عيون أغلبهم، فضولًا لم يستطيعوا إخفاءه.

في حالاتٍ عديدةٍ مثل هذه، وحين يضغطني الفضول الشخصي، كنت أخمن الوقائع، وأرضى بتخميني، أعتبره ما حدث بالفعل، وفي تلك الجمعة، رضيت تمامًا بفكرة أن فاروق كولمبس، تحرَّش بأخت ألبيرت الوحيدة "مريا راجي"، التي كانت أول امرأة بلحم أبيض، وملابس فوق الركبتين، تسكن حي المساكن منذ إنشائه.

خلاصة الأمر، إن ما أبعدك عن ذهني، قد انزاح الآن، وعُدت إلى تأملاتي من جديد.

عند الظهر، وفي صلاة الجمعة، في المسجد الوحيد المقام في وسط الحي، بجهودٍ ذاتيةٍ من السكان، كنتُ هائمًا بشدة، أستحضر علامات الحب الذي يأتي من النظرة الأولى، من قصص قرأتها في كتبٍ من قبل، أو سمعت بها من عشاق خاضوها تجارب، أو شاهدتها على شريطٍ سينمائي، في سينما الشعب القديمة، وأجدها مطابقةً لحالي

بشكلٍ مُذهل: السرحان، الرعشة، الأرق، كتابة الأحلام على كل صفحات التفكير، لم توقظني كلمات مثل: الآخرة والنار، وعذاب القبر، وشجرة الزقوم، على الرغم من أنها رددت كثيرًا، وأيقظتني كلمة واحدة، هي "أسماء" التي وردت على لسان الخطيب، في منتصف الخطبة. أظنه عدَّد أسماء أمكنة أو أزمنة معينة، لم أركز جيدًا، أبقيت كلمة أسماء في ذهني وحدها، فصلتها عن ملحقاتٍ ربما لا تشبهها في شيء، وربما تخنقها إن كانت قاسيةً.. كان خروجي من المسجد مبكرًا جدًّا، وبمجرد أن انتهت الصلاة، ولم أدع فرصة لأحدٍ من المصلين، أن يدعوني لغداء في بيته، وكانت هذه عادةً من عادات حي المساكن والأحياء الشبيهة به، أن يتطوع أحدهم حتى لو لم يكن يملك شيئًا، بدعوة عزاب الحي إلى غداء، وهي في الغالب مجرد دعوات لسانية بلا تنفيذ، ينساها الداعي والمدعو إليها في لحظتها.

كنتُ أخطط لشيء ما، في تلك اللحظة. لن تكون ثمة رحلة إلى شاطئ البحر لصيد السمك، برفقة "شمس العلا" أو غيره، من هواة صيد بلا غنائم حقيقية. لن يكون اليوم ثمة تخطيط رمزي غبي لمدينةٍ ترهلت واكتنزت راضية.. لقد أخبرت مرة، مهندسًا في مصلحة الأشغال العامة، كنت أعرفه عن تلك الهواية، ولم يضحك، اعتبرها غباء أن أمارس سلطة المسَّاحين والمعماريين وأنا مجرد مدرس كيمياء، وبالطبع كان محقًّا، لكن كلمة "مجرد"

التـي قالهـا، لم تعجبنـي، واعتبرتهـا تقليـلًا مـن شـأن المعلمـين بشـدة.

ذكـرتُ أن في ذهنـي تخطيطًـا آخـر، إنـه زيـارة بيـت أسرة عبـد القـادر، قريبـي الـذي صادفتـك في عرسـه ليلـة أمـس، وقطعًـا سـافر صبـاح اليـوم، لقضـاء شـهر العسـل في مـكانٍ مـا، كـما هـي عـادة العرسـان في أي مـكان. أردتُ أن أرى صـور العـرس التـي التُقطـت، وأسـأل عنـك في حـرصٍ إن عـثرت عـلى صورتـك بينهـا، فلـم أكـن أريـد أن أبـدو مهتـزًّا، عنـد أقـارب لا أزورهـم إلا نـادرًا، ولم يـزرْ بيتـي أحـدٌ منهـم منـذ ماتـت أمـي، بوصفـي أعـزب غـير مسـتحقٍّ للزيـارة.

يـا لحرجـي الكبـير يـا أسـماء، يـا لاضطـرابي، وتفاهتـي، وقلـة شـأني، وأنـا أواجـه أم عبـد القـادر وإحـدى أخواتـه المراهقـات، في بيـتٍ لم أزره منـذ عامـين، وأطرقـه اليـوم، أسـأل عـن صـورٍ لا تخصنـي؟ وتجيبنـي الأخـت وأقـرأ في نظراتهـا ازدراء لم أقـرأه في نظـرات أحـدٍ مـن قبـل:

– هـل تريـد أن تدخلهـا درسًـا في مقـرر الكيميـاء يـا أسـتاذ؟ أم تريـد أن توزعهـا صدقـاتٍ للفقـراء في حـي المسـاكن؟ عـلى أي حـال لم نسـتلمها بعـدُ ولا نعـرف متـى نسـتلمها.

ضحكـتْ، وكانـت الضحكـة عندهـا، مجـرد اهتـزاز حبـال صوتيـة، بـلا رنـين جـذاب. كانـت هزيلـة جـدًّا، وبعيـدة تمامًـا في رأيـي، عـن أي دربٍ يوصـل عاشـقًا إلى عشـقها.

يـا لجرأتهـا وعـدم تهذيبهـا يـا أسـماء، ويـا لحبـك القـاسي مـن أول يـوم طرقنـي فيـه. ركبـت باصـين ممتلئـين بؤسًـا ملعونًـا حتـى أصـل، خضـت في أوحـالٍ مكومـةٍ، وبـركٍ آسـنةٍ، واتسـخت ثيـابي بجـدارة، والآن تُجـبرني فتـاةٌ بـلا أحـلامٍ كالتـي أحملهـا، عـلى الوقـوف مرتبـكًا، ومغـادرة المـكان، وبي جـرحٌ، لكـن ليـس مـن تلـك الجـروح التـي تنـزفُ وينتهـي الأمـر لحسـن الحـظ، أو سـوئه، لا أدري، إنـه جـرحٌ سـيلتهب ويظـل ملتهبًـا حتـى النهايـة.

وأنـا في بـاص العـودة إلى وسـط المدينـة، أخـذتُ أنهـشُ ذهنـي المتعـب محـاولًا أن أتذكـر مصـورًا بعينـه، كان موجـودًا ليلـة أمـس، تذكـرتُ التصويـر المكثف الـذي التقـط الموجودين كلهـم، طـوال الليلـة، ولم أتذكـر المُصـور، ووضعـت في ذهنـي لائحـةً بإسـتديوهات التصويـر التـي اشـتهرت بتسـجيل حفلات الزفـاف في المدينـة، اسـتبعدت منهـا تلـك الغاليـة، لأنهـا أكـبر مـن طمـوح عبـد القـادر، ووظيفتـه، والرخيصـة جـدًّا، لأنهـا لا تليـق، وبقيـت ثلاثـة، سـأزورها واحـدًا واحـدًا، وسـأعثر حتـمًا عـلى الـذي قـام بالتقـاط الصـور، وأظفـر بغنيمتـي.

كان سـلوكًا طائشًـا يـا أسـماء، وأعـرف يقينًـا أنـه سـلوك طائـش، ولـو كنـتِ مـكاني لعذرتنـي، أنـا الآن خـارج نطـاق المُحاسـبة، ولـن أحاسـب نفـسي أو أسـمح لأحـدٍ أن يُحاسـبني،

إلا إذا استيقظت فجأة، واعتبرتك جريرة، وهذا ما لن أسمح به أبدًا أن يحدث.

كان استديو "مشاوير" الذي عمل فيه أخي بخاري سنواتٍ طويلةً، إلى أن اختفى، لحسن الحظ، ليس من بين تلك الثلاثة، فلم أعرفْ له نشاطًا في تصوير الأفراح من قبل، ولو كان بينها لابتأست بشدة، لأن صاحبه "سمير بحصل" اليوناني الأصل، كان يعرفني جيدًا بالطبع، وأعرفه جيدًا أيضًا، وأعرف من دون ذرة شك واحدة، أنه سيُخبر كل من يمر به، إن كان يعرفني أو لا يعرفني، بأنني جئتُ أسأل عن صورٍ لعرس لا يخصني بأي شكلٍ من الأشكال، وأذكر حين فرَّ بخاري، وأغلقوا الإستديو، وساقوه للتحقيق، بوصفه مشغلًا لمواطنٍ متآمر على أمن الوطن، انهار لسانه تمامًا، وأرشد عن كل من كان يعرف بخاري أو سأل عنه في يوم من الأيام، أو جلس على مقعد التصوير، من أجل صورة.

خلاصة تلك المشقة، التي امتدت حتى السابعة مساء، إنني لم أظفر بك صورةً، تُضيف إلى مشاريع أرقِي القادمة معنى أخاذًا، أو تأملًا شفيفًا، ذلك ببساطة، إن الأمر لم يكن ممكنًا، وقد عثرتُ في أحد الإستديوهات الثلاثة، على تلميذٍ عندي، يعمل مساعدًا لتقطيع الصور ووضعها داخل إطارات، في كل يوم جمعة، كي يعولَ أسرته الفقيرة،

كـما أخـبرني، أحسسـتُ بالحـرج، واضطـررتُ للجلـوس عـلى مقعـد التصويـر، كأي زبـون عـادي، تُلتقـط لـه صـور عاديـة، بعـد أن أخـبرتُ التلميـذ بأننـي أحتاجهـا لاسـتخراج جـواز السـفر، وفـررتُ مـن المـكان، وفي الثـاني عـلى فتـاةٍ ذكوريـة التقاطيـع، وسـيئة تفاصيـل الجسـد، بشـكلٍ لافـتٍ، تحمـل مكنسـة مـن السـعف، تطـوف بهـا عـلى أرضيـة المـكان، وأخبرتنـي بصـوتٍ فاترٍ، إنهـم لا يعملـون يـوم الجمعـة الـذي يخصصونـه للتنظيـف، وترتيـب المـكان، وكان الثالـث مُغلقًـا بقفـلٍ محكـمٍ، وعـلى بابـه ألصقـت ورقـة شـبه ممزقـة، تقـول محتوياتهـا: إن المـكان مُغلـق حتـى إشـعار آخـر.

عنـد عـودتي منهـارًا، ومُكـسر الأحـلام، إلى حـي المسـاكن، عـثرتُ عـلى زميـلي، وصديقـي الوحيـد، مـن معلمـي المدرسـة، شـمس العـلا، يجلـس عـلى الأرض أمـام بيتـي، لم تكـن بحوزتـه صنـارة صيـد كـما كنـتُ أتوقـع، وأخـبرني حالمـا اقتربـتُ منـه، بـأن حبـه في خطـر، ذلـك أن الفتـاة الراقيـة، طلبـت منـه في صراحـةٍ أن يُغـير اسـمه، إلى اسـم حـداثي، لأن شـمس العـلا لا يُعجبهـا عـلى الإطـلاق، ولا تسـتطيع تقبلـه اسـم أب لعيالهـا القادمـين، وهـو لا يسـتطيع تغيـره، لأنـه اسـم صـوفي، مـن أسـماء قبيلتـه الموروثـة التـي تفخـر بهـا، ولـو فعـل، لأصبـح فجـأةً بـلا أي غطـاءٍ أسري.

كـدتُ أضحـك يـا أسـماء، ولـولا أننـي في لحظـة بـؤسٍ عظيمـةٍ، لضحكـتُ بالفعـل. ليـت معضلتـي كانـت اسـمًا موروثًـا، أغـيره إرضـاء لـك، إنهـا معضلـة لـن يفهمهـا شـمس العـلا ولا غـيره.

ـ٤ـ

السبت.

يوم تعليمي جديد يا أسماء.

اليوم الذي سأناضل بجسارة، حتى أخوضه بعاديته المُطلقة، التي تعودتها منذ سنواتٍ طويلةٍ، وأود أن أتمرد عليها: حافلة النقل العام المتهالكة، المزدحمة بالبشر وروائحهم، والتي تتلكأ في الصباح، تقلني واقفًا، مستاء، معلقًا، من حي المساكن في الطرف الجنوبي للمدينة، إلى مدرستي في الوسط، وأصل مبعثرًا، بلا رغبةٍ في دخول الفصل، أو ابتكار وسيلة جذابة، استدرج بها تلميذًا غافيًا إلى الفهم. القهوة المعكرة، بلا طعمٍ حقيقي، حين يضعها الفراش حمزة، المُتسخ الثياب، على الطاولة، ويندلق نصفها على الأرض، ونصفها الآخر على دفاتر التحضير. شمس

العلا على الطاولة المواجهة لي، إما منشغلًا بمسح حذائه الممسوح أصلًا، عشرات المرات، أو بعيدًا عن الواقع، في أحلام لم تكتمل، عن فتاة أحبها بإخلاص، وأرادته أن يغير اسمه من أجل الحب.

بالأمس وبعد أن عُدت من رحلة المشقة تلك، بلا صورٍ ولا خيالٍ ولا موقد إحساس أستخدمه في حلكة الأحلام، التي ستغزوني إن غفوت، تذكرت هوايتي في تخطيط المدينة الرمزي، بعد أن تفَّهتها وألغيتها، ومسحتُ بها الأرض، تذكرتها ليس بثيابها القديمة، ولكن بثيابٍ جديدةٍ، عذبني يقينٌ غريبٌ أنني أستطيع أن ألبسها لها.

لن أخطط المدينة أو أعدل ترهلها، في ذلك الليل يا أسماء، ولكن سأخططك أنت، وبديهي لستُ في حاجةٍ لأزيلَ ملمحًا، أو أعدل آخر، لأن الصورة الماثلة في خيالي كانت من الكمال، بحيث أني ارتجفت وأنا أفكر في رسمها. تخطيط المدينة وتعديلها كان عملًا عاديًّا، لا يحتاجُ إلى موهبةٍ، مجرد مربعات ترسم، ومستطيلات تُزال، وحفر تُردم، ونواقص أخرى، تكمل ولا شيء آخر، لكن تخطيط الجمال عملٌ آخر، لم يُجده في الدنيا سوى جبابرة قليلين، أخاذين.

جلستُ على الطاولة القديمة الموضوعة في وسط الصالة، والتي تعثرتُ فيها لأول مرةٍ في الليل. جلستُ بلا

عَشاء، ولا رغبة في تذكر العَشاء أصلًا، محاولًا أن أنهب وجهك من الذاكرة التي تحمله، أسجنه في لوحةٍ، ستكون إن أنجزتها، أولى لوحاتي على الإطلاق، ولم أكن رسامًا. أمامي أوراقي البيضاء السميكة التي طالما ملأتها من قبل، وكثير من الأقلام الملونة، وكان ما ينقصني في تلك اللحظة إصرارٌ يُعادل شقائي، ويرسم معي، وأعرف تمامًا أنني لن أرسم بوصةً واحدةً من وجهك بلا معاونةٍ.

بدأتُ بالعينين، أكملتهما سريعًا، بالشفتين، أنجزتهما أيضًا، بالأنف، ببقية الملامح، أنجزتها في سرعةٍ مريبةٍ، وحين تأملت لوحتي بعد ذلك، صعقت.

لم أرسمك يا أسماء، لم أرسمك يا حبيبتي، لم أرسم حتى شعرةً واحدةً صحيحةً من شعر شاهدته مدلوقًا، يُعانق الكتفين، واكتشفتُ أنني رسمتُ وجهًا أخرق، وجهًا بيئيًّا شعبيًّا من وجوه حي المساكن، التي ضايقت تاجر العملة الوزير، ولو عُرضت اللوحة في الطريق، لتنازعتْ عليها العابرات، كلٌّ تدَّعي أنه وجهها.

مزقتُ اللوحة بحقد، ألقيتها على أرض الصالة، وركلتها بقدمي، كانت التاسعة مساء كما يبدو، لأن جلسة جاري كولمبس اليومية، قد ابتدأتْ، الصوت المتمكن في الليل، يحكي، ناسيًا، أو مُتناسيًا لحظة الموت الصباحية على يد حدادٍ قوي. هكذا فاروق كولمبس، وهكذا شعلته الضالة

التي لن يُطفئها سوى موت مباغتٍ، وأظنه كان سيحدث في ذلك الصباح، لولا أنني كنتُ يقظًا، مؤرَّقًا فيك، كأنك أنقذته يا أسماء. منذ عامين تسلل بعد جرعةٍ مجرمةٍ من البانجو، إلى خيام أعرابٍ من قبيلة "الرشايدة"، يقطنون قريبًا من المدينة، ويعملون سرًّا في التهريب، باستخدام مراكب البحر. لا يدري أحدٌ كيف وصل إلى هناك وليس ثمة دربٌ ممهدٌ، أو مواصلةٌ تقل العبث إلى مضارب الخيام، ولا يدري أحدٌ عن ماذا كان يبحث في بيئةٍ، تستخدم مفردات البادية بكل عيوبها وحسناتها، على الرغم من أنها لا تبعد عن بيئة المدينة كثيرًا، وتلك الطعنة التي أحدثت جرحًا سطحيًّا، قريبًا من قلبه، لم تكن طعنة حضري، كما ادَّعى الأعراب البادون، وهم يروجون شهادات حتى من نسائهم وأطفالهم، عن عربةٍ ألقته بجوار الخيام ومضتْ، لأن الحضر إن طعنوا، فهي طعنة الموت. وحدهم أعراب الرشايدة، من يُمكن أن يضعوا مثل ذلك الجرح المميز، الذي يشفي غلهم، وفي نفس الوقت، لا يُدخلهم في صراعٍ آخر مع السلطة التي اتخذتهم أعداء منذ وُجدوا، بعد هجراتٍ من الجزيرة العربية، سمَّتهم مُخربين للاقتصاد القومي، وتُطاردهم كلما سنحت الفرصة بذلك. وفي العام الماضي وأثناء إدلائه بشهادةٍ في المحكمة، عن اغتصاب طفل، نُقل إلى قسم الحوادث بالمستشفى، حيث يعمل، تعرفت عليه إحدى بائعات الهوى من حي

الصهاريج، وكانت موجودة بالمحكمة، مصادفةً، من أجل قضيةٍ أخرى، باعتباره الرجل المُلثم الدموي، الذي زارها في إحدى الليالي، قيَّدها بحبلٍ، وكسر يدها، وسرق حصيلة مجهود عدة أيام قضتها ممزقةً تحت متعةٍ ميكانيكيةٍ، وعلى الرغم من أن أحدًا لم يأخذ حديثها محمل الجد، ولا ساقت دليلًا واحدًا، يُدين كولمبس، إلا أن تلك الحادثة، أثرت على عمله كثيرًا، وكاد يفقده.

ما عليك من فاروق يا أسماء، رسالتي تستحضره، لأنه من سكان حيي، ولأنه جاري اللصيق، ولأن العشاق حين يكتبون إلى معشوقاتهم، كما أتخيل، يودون لو عرفن حتى ببعوض البِرك، الذي ينشط في الظلمة، ليمصَّ دمهم، وطنين الآذان الذي يُحول آذانهم إلى طبول، ولصوص السر الذين يكتبون الأذى على خصوصياتهم.

قلت إن اللوحة تمزقت لأنها لم تكن جديرةً بأن تبقى، وعاد مرةً أخرى وسواس الصور. لن أحظى بأرقٍ سعيدٍ ما لم أحصل على صورتك، وبعدها سيرتك التي كنتُ أتعشم أن تكون سيرة امرأة في الربيع، وسط بستان نضر، ولكن بلا رفيق، لأنني الرفيق الذي سيسطو فجأة على وحدتها ويشاركها الربيع.. زهرة.. زهرة.. وقطر الندى، قطرة.. قطرة.

في الصباح سيكون تلميذي العامل في محل التصوير، مقيدًا في حصص الدراسة، وهو أصلًا لا يعمل إلا في أيام الجمع، والأستديو الآخر، بفتاته الذكورية، قد انتهى تنظيف أرضيته، وفتح لتلقي الزبائن، ويُمكنني أن أتسلل خِفية إلى السوق، وأعود بغنيمةٍ مجديةٍ.

السؤال الحائر الذي كان لا بد أن أسأله لنفسي، السؤال الضار ولكن لا بد من تذوق ضرره، حتى لو للحظة:

ماذا لو عثرتُ على الصور، عند أحد المصورين اللذين زرتهما بالأمس، ولم يسمح لي بتأملها، واقتناء صورتك من وسطها إن عثرت عليها؟ لو صرخ المصور الذي أجدها عنده، في وجهي فجأةً، وطالبني بهويتي، والتمَّ الناس؟

ليس عندي إجابة يا أسماء.. ليس عندي إجابة اليوم، ولا أدري كيف أحصل عليها.

في الواحدة صباحًا، وبعد أن مرت أصوات الليل كلها على أرقي، ابتداء من سخط القطط على بعضها، وعواء الكلاب بمناسبة وغير مناسبة، وأصوات الصراصير، وضفادع البِرك الآسنة، وانتهاء بلهاث لصٍّ أو عابر سبيل، يُطارده مأزق، جاءتني الكتابة، وهكذا ابتدأت:

٣٦٦، لم أسمها هكذا في تلك الليلة، لأنني لم أكن أعرفُ إلى متى سأظل عاشقًا بلا وصالٍ ولا شخصيةٍ مستفزةٍ تُحرك شيئًا داخلك، إن التقيتك، ربما يكون الأمر مجرد

نـزوةٍ عابـرةٍ، سـيزول غُبارهـا بمـرور الزمـن. ربمـا يكـون نـزوةً أكـثر رسـوخًا، ينهـد فيهـا حيـلي وأسـقط، وربمـا كـما كنـت آمـل، أن يكـون عشـقًا مثمـرًا، أقطـف ثمراتـه بمشـاعري.

في درجٍ صغيرٍ بالطاولـة، يوجـد دفـترٌ قديـمٌ، غِلافـه أسـود، مُكتنـز بالـورق، اقتنيتـه ذات يـوم لأننـي انتويـت في تلـك الأيـام، أن أضـع مقـرري الشـخصي في مـادة الكيميـاء، بنـاء عـلى خـبرتي، واحتـكاكي بالتلاميـذ لسـنواتٍ ليسـت بالقليلـة، وأعرضـه عـلى الإدارة التعليميـة، مـن أجـل أن تجيـزه أو ترفضـه، كـما فعـل زميـلي شـمس العـلا ذلـك مـن قبـل، وأجيـز مقـرره بجـدارة. لم أكتـب عـلى الدفـتر كلمـةً واحـدةً، ولا حتـى افتتاحيـةً بسـيطةً أدخـل بهـا، وألغيـت الفكـرة تمامًـا، لـن أكـون سـوى ذلـك المـدرس المقهـور، في إحـدى المـدارس المتوسـطة، حتـى لـو صرتُ "روبـرت بلسـن"، مخـترع اللهـب الـذي نسـتخدمه اليـوم في معامـل الكيميـاء، أو مخترعـة الراديـوم المشـع "مـاري كـوري". سأسـتخدم الحـبر الأخـضر يـا أسـماء، ذلـك ببسـاطةٍ شـديدةٍ، أننـي أعشـقه، وهـو الوحيـد المتوافـر لـديَّ، أسـتخدمه في تصحيـح دفاتـر التلاميـذ بـدلًا عـن الأحمـر، برغـم اعـتراض مديـر المدرسـة عـلى ذلـك، لم أكـن أحـب الأحمـر يـا أسـماء، يُذكـرني بالـدم، بالفضيحـة، بالحـرب، بالمشـاكل، بمُصارعـي الثـيران الأسـبان الذيـن شـاهدتهم مـرارًا عـلى شاشـة التلفزيـون، يدهسـون بسـببه، ولأن أخـي بخـاري،

وُصف بأنه أحمر، في كل لهجات التحقيق التي حققت معي بسببه.

كتبتُ: أسماء...أسماء.. أسماء

ثم توقفتُ. غدًا أكمل الحكاية، بعد غدٍ أكملها، بعد بعد غدٍ أكملها، لو عثرتُ على غدٍ أو بعد غدٍ، أو بعد بعد غدٍ..

أظنها كانت الثالثة صباحًا، حين جفَّ الأرقُ فجأة، وانكفأ رأسي على الطاولة، لا أعرفُ بالتحديد.

انتبهتُ وأنا جالسٌ على طاولتي في المدرسة، أن موعد درسي الصباحي قد بدأ، وأن طلابًا أذكياء وأغبياء على حدٍّ سواء، ينتظرون.

كان شمس العلا، عبقري الكيمياء، المضطرب، حتى وهو في قمة سرحانه، قد ذهب، ولا أعرف إن كان قد قرَّر تغيير اسمه أم لا؟ والقهوة، لا أثر لها على الطاولة، لأن الفرَّاش المتسخ الثياب، أتى، واستعاد كوبه المدلوق، من دون أن أنتبه.

يا للكارثة، هذا يحدث لي وأنا ما أزال بلا أي خطوةٍ جادةٍ، ولا معرفة ولا رذاذ حب، ماذا يحدث لو كنتُ غارقًا؟

حين وقفتُ في الصف، وقبل أن أبدأ درسي عن تفاعل العناصر، وإمكانية الحصول على غاز سام مثل أول أكسيد الكربون، من معادلةٍ بسيطةٍ، رفع تلميذ الأستديو العامل في تقطيع الصور، إصبعه:

– أستاذ.. متى ستسافر إلى السعودية؟

– السعودية؟..

كان سؤالًا غريبًا لم أتوقع سماعه أبدًا، في حصة الدرس، لكن إحساسي بغرابته، ما لبث أن زال سريعًا حين تذكرت فخ التصوير الذي سقطت فيه عصر أمس، ووضحت أمام التلميذ، أنها صورٌ لاستخراج جواز السفر. كانت الهجرات المكثفة إلى دول الخليج العربي، قد بدأت في تلك الأيام، ولم يكن مُستبعدًا أبدًا، أن يُهاجر مدرس للكيمياء، لاحقًا بالركب، بحسب تحليل التلميذ. أنا مُهاجر أيضًا، ولكن إلى أسماء، أوشكتُ أن أعلن ذلك للتلميذ، وزملائه، وانتبهت إلى استحالة ذلك، وكانت الإجابة على لساني متحفزة.

حوالي التاسعة، وفي موعد الإفطار الذي يستمر حتى العاشرة، ويسرح له التلاميذ من فصول الدراسة، كنتُ في السوق، أتسكع مترددًا، أمام أستديو "عنتر وإخوانه"، الذي يعمل فيه تلميذي الفقير أيام الجُمع، ثم أنهي ترددي أخيرًا وأدخل.

عـثرتُ عـلى موظفـةٍ شـابةٍ، لم تكـن موجـودةً يـوم أمـس، وبـدت لي بتذوقـي الجديـد للمـرأة، الـذي بـتُّ أحملـه منـذ رأيتـك، أنهـا سلسـةٌ، وودودة إلى حـدٍّ مـا، وفيهـا جـمالٌ، يمكـن أن يوقـع بعاشـقٍ مثـلي، في زمـنٍ مـا. سـألتُ في البدايـة عـن صـوري التـي التقطهـا لي مصـور الأسـتديو يـوم أمـس، وكانـت موجـودةً في ظـرفٍ صغـيرٍ، مقصـوصٍ بـلا عنايـةٍ، أخرجتـه الفتـاة، مـن صنـدوقٍ ممتلـئ بالأظـرف المماثلـة، وسـلمته لي، بعـد أن تأكـدتْ مـن مطابقتـي لمحتوياتـه.

هذا ليس غرضي يا فتاة!

هتفـتُ في سري، وأنـا أضـع المظـروف في جيبـي، وأحـاول أن أسـأل عـن الغـرض الحقيقـي، مـن دون أن أبـدو نشـالًا أو متلصصًـا أخـرق، وفي النهايـة، وبعـد أن تأكـدتُ بـأن ابتسـامتها لا تُشـبه ابتسـامة اليونـاني سـمير بحصـل، صاحـب أسـتديو مشـاوير، ولا "حكيـم الـدرل"، أحـد رجـال الأمـن الذيـن سـعوا وراء أخـي بخـاري، وانكويـت بابتسـامته شـخصيًّا، في الدهاليـز المظلمـة، قلـتُ:

– هـل قمتـم بتصويـر حفـل زفـاف، ليلـة الخميـس في النـادي الطليـاني؟

اهتمـت الفتـاة لسـؤالي بشـدةٍ، كأني كنـتُ أسـألها عـن صحـة والدتهـا، أو أبشرهـا بزيـادة راتبهـا، في تلـك الوظيفـة الخامـدة التـي لا تُنبـئ بـأي مسـتقبل، اعتـذرتْ بلطـف بأنهـا

كانت غائبةً منذ الأربعاء بسبب عارضٍ صحي، وبحثتْ في الأدراج المتراصة من حولها، وسجلات التصوير الخارجي، يدها اليمنى تتقافز بين الأرفف، واليسرى تُلاحق خصلة شَعر متمردة، تسقط على عينها، كلما رفعتها، أخيرًا وبعد عدة دقائق، قالت:

– نعم زفاف عبد القادر على سلمى.

زفاف عبد القادر، هذا أعرفه جيدًا، لأنه زفافُ قريبي، لكن سلمي للأسف لم أكن أعرفها. اكتشفت فجأة، بأنني ذهبتُ إلى عرس لا أعرف عروسه، وزاد ذلك من يقيني بأنني كنتُ ذاهبًا لأراك أنت يا أسماء، المناسبة الكبرى التي تأنقت من أجلها من دون أن أدري.

سؤالي الثاني كان أصعب، ويحتاج إلى تدريبٍ طويلٍ، في مقاومة الحرج، حتى أسأله، ولم أكن مدربًا بكل أسفٍ، ظللت أكثر من عشرين دقيقة، أتلكأ ببصري في الصور والإطارات الفارغة، المتراصة على الأرفف الزجاجية، داخل الأستوديو، ومن طرف عيني، أتتبع الفتاة، أجدها قد أخرجت قلامة للأظفار من حقيبتها القماشية، الموضوعة أمامها، عملت بها على ظفرين ناتئين في يدها اليسرى، وأعادتها إلى الحقيبة، التقطتْ إصبعًا لطلاء الشفاه، بني اللون، مررته على شفتيْها بسرعةٍ، التقطتْ سماعة الهاتف، وأعادتها إلى مكانها، من دون أن تُجري اتصالًا،

دخـل زبـونٌ يرتـدي ثوبًـا وعمامـة وحـذاء مـن جلـد النمـر، التقـط مظروفًـا شـبيهًا بمظـروفي، وخـرج، وارتفـع صـوت امـرأة مـن الطريـق، يـصرخ: يـا يحيـى.. يـا يحيـى.. يـا ابـن الحـرام، وفي اللحظـة التـي شـاهدت فيهـا الفتـاة، قـد بـدأت ترتبـك، وتهتـز أطرافهـا، ربمـا لشـعورها بـأن ثمـة خطـأ مـا في وجـود زبـون، لفـترةٍ أطـول مـن الـلازم، وربمـا لسـببٍ آخـر لا أعرفـه، اخـترتُ إطـارًا فارغًـا مـن الخشـب المدهـون باللـون الذهبـي في أطرافـه، كان موجـودًا مـن ضمـن أطـر عديـدة، موضوعـة عـلى الأرفـف بجانـب الصـور، وضعتـه أمامهـا، قلـتُ بهـدوء، أحسسـتُ بـه ليـس هـدوئي، ولكنـه هـدوء شـخص آخـر:

– آسـف.. كنـت أنتقـي إطـارًا لإحـدى الصـور الموجـودة عنـدي بالبيـت، وتحتـاج لإطـار..

– لا عليك.

عاد ودها القديم، إلى وجهها، كأن لم يذهب.

– هـل مـا زلتـم تحتفظـون بصـور تلـك المناسـبة التـي سـألتك عنهـا منـذ قليـل؟

– لا للأسف، استلمها أهل العريس صباح اليوم.

ردَّت بمـا يُشـبه الجفـاء، ووضعـت الإطـار الـذي انتقيتـه عشـوائيًّا، داخـل كيـسٍ كبـيرٍ مـن البلاسـتيك الأبيـض، مكتـوبٍ

عليه اسم الأستوديو وعنوانه وهاتفه، سلمتني له، وأضافت:

– شرفت محلنا كثيرًا يا سيد. مع السلامة.

هل رأيت يا أسماء؟ هل رأيت ما يحدث للعاشق حين يعشق طيفًا بعيدًا؟ حين يعشق زهرة لم يلمسها بعدُ، ولا يعرف إن كانت مضمخةً بالشذى، أم مثقلة بالشوك؟

الفتاة الموظفة، انتهت مهمتها بطعني، بإدمائي، بالتمثيل بجثة الصبر في داخلي، وأخيرًا حذفتني من المكان، بذلك اللطف الكبير، ذلك أنني لم أكن زبونًا خفيف الظل، يتسلم أغراضه برشاقة ويمضي، ولا ثقيل الظل من النوع الذي تحب ثقل ظله الفتيات، يبقى ليُغازل، ليقول كلمةً لا تعني شيئًا، وفي نفس الوقت، تعني الكثير. كنتُ لا أحد بالنسبة للفتاة الموظفة، كما أنا لا أحد بالنسبة لك، في ذلك الوقت، وفي أي وقت آخر.

الصور عند أهل عبد القادر، تفصلني عنها مواصلتان شاقتان، ممتلئتان بالبؤس، وغبار، وبرك آسنة، وأم لا تعشق تطفلي كما يبدو، وفتاة مراهقة، هزيلة، لا تحمل طموحي، ولن تحمله، وتحمل نظرات ازدراء في عينيْن ضيقتيْن، لا تشبهان عينيْك أبدًا.

خرجتُ من معركة العاشرة صباحًا، منهزمًا بجدارةٍ، وعدتُ إلى المدرسة من جديدٍ، لم يكن في نيتي أن أدخل

الفصل مرةً أخرى في ذلك اليوم، سأشتت ما تبقى من الحصص، في جداول زملاء آخرين، ليسوا عشاقًا، ولا يبحثون عن أطيافٍ ضائعةٍ.

سأدَّعي المرض المفاجئ، وحقيقة لن أدعيه، لأنني مرضتُ بالفعل، في ذلك الصباح.

كان من المفترض أن أحتضن خيبتي، أعود إلى بيتي في حي المساكن، مصطحبًا خوائي، لكن ذلك لم يحدث، ببساطةٍ شديدةٍ، أنني لم أسمح له أن يحدث. كان الكنز عند عنتر وإخوانه، وانتقل إلى بيت امرأةٍ لا تُحبني، وفتاة جاهزة لازدرائي، لو بكرت قليلًا، لربما كنتِ الآن في حوزتي يا أسماء، ولكن لا مشكلة.

لقد خطرتْ لي فكرة ثقلاء الظل الوسيمين، الذين يُغازلون موظفات المحلات التجارية، ودواوين العمل الحكومي، ويخرجون بما جاءوا من أجله، كواحدةٍ من أتفه الأفكار وأعلاها شأنًا في نفس الوقت. أكيد أن كل محل للتصوير، يحتفظ بنسخٍ احتياطيةٍ من صور التقطها، وعلى أقل تقدير، يحتفظ بالشريط السلبي، وهذا ما حدث معي كثيرًا، حين أعثر على صوري في أستديوهات جلستُ فيها للتصوير ذات يوم. لماذا لا يذهب صعلوك وسيم إلى أستديو عنتر وإخوانه، ويعود بنسخة الكنز؟ ابتسمتُ، ولا أعرف، إن كانت ابتسامة ظفر، أم خيبة!

—

أسماء..! أنا جائع بشدة، أقسم بأني جائع.

هل تسمحين لي بمقاطعة رقة عالمك التي تعيشينها بعيدًا عني، وغزوك بهواجس المحبين، التي ربما لم تسمعي بها من قبل؟

في ذلك السبت، وبتوازنٍ مُدهشٍ بين الخواء الذي أحمله في داخلي، وأملٍ مدهشٍ، نبت على أطرافه، اتجهت إلى كافتيريا (مراحب)، الكائنة عند شاطئ البحر، حيث اعتاد أن يجلس صديقي القديم "محيي الدين" الملقب بألماني منذ الصغر، وذلك لعشقه الشديد، لكل ما تُنتجه ألمانيا، من عرباتٍ ودراجاتٍ، وشاحناتٍ، وعارضات أزياء، ونازيين، ولاعبي كرة قدم. وقد كان مديرًا سابقًا لمركزٍ

للترجمة، وكاتبًا روائيًّا منذ أكثر من عشرة أعوام، ولكن بلا أي روايةٍ منجزة حتى الآن على حدٍّ علمي.

أظنك تتساءلين: مَن ألماني هذا؟ ولماذا يُحشر هكذا، بين الزهرة ورحيقها؟ سأحدثك عنه قليلًا، وانا شديد الثقة، بأنك لن تسقطي في حبه، ليس بسبب قلة حيلته، وانعدام الشبكة التي تلائم قياسك، بين شباكه العديدة، التي دأب على نشرها هنا وهناك، ولكن لأنني حصَّنتك بعشقي، حولت مشاعري نحوك إلى حاجزٍ سميكٍ، يتصدى بعنف، لأي ميولٍ قد تتقافز تجاهك.

كان ألماني، من ثقلاء الظل الوسيمين، أعرفه منذ الصغر، على الرغم من أنه لم يكن من سكان حي المساكن، أظننا التقينا لأول مرة، في مباراة كرة قدم، جرتْ بين فِرق الأحياء، أو لعل ذلك في مهرجان طلابي، من تلك المهرجانات التي تُقام من حينٍ لآخر، وظللنا نلتقي باستمرارٍ إلى أن سافر إلى عشقه ألمانيا لدراسة الطب، وعاد بعد عدة أعوام، بلا شهادة، ليُنشئ مركزه للترجمة، ويظهر في صحيفة المدينة المحلية، وبعض الصحف العاصمية، بوصفه كاتبًا روائيًّا، أنجز خمسة عشر عملًا مهمًّا، ويعكف الآن على كتابة ملحمة، بطلتها "تاجوج"، إحدى المعشوقات التاريخيات، في ثقافة شرق البلاد.

كان أغرب ما في الأمر، أن لا أحدَ سأل عن أعماله، أين تُوجد؟ لا محللًا حللها، ولا ناقدًا تصدَّى لها بخير أو شر، وتلك العناوين التي يذكرها في كل محفلٍ، كانت على الأرجح، مجرد عناوين خاوية بلا مادةٍ، ولأن أسطورةً تاريخيةً مثل أسطورة تاجوج، كانت لها سُمعتها واحترامُها خاصة في أوساط عُشاق الجمال، وصُناع الدراما التلفزيونية، فقد ذكر في مراتٍ عديدةٍ، بأن ملحمته ستُحول إلى مسلسلٍ درامي، بإنتاجٍ ضخمٍ، حالما ينتهي من كتابتها.

أنا أيضًا لم أسأل، ولم أطلب نسخةً موقعةً من أحد أعماله، وتركتُ الأمر هكذا، ذلك ببساطة، أنني لم أكن قارئًا مواظبًا، لأهتم.

منذ عدة أشهر التقيته مصادفةً، أخبرني بأنه أغلق مركزه للترجمة، وتفرَّغ تمامًا للكتابة، ويجلس الآن في كافتيريا مراحب عند شاطئ البحر، مستلهمًا كتابته من تخبط الموج باليابسة، وألوان السفن الراسية، والسائحات الأوربيات اللائي يتصيدن الشمس، وله مع كل سائحةٍ يُصادفها، حكايةٌ، تُضيف إلى إبداعه على صعيد الكتابة والجسد.

أظنك فهمتِ يا أسماء.

فهمتِ بأنني أريد ذلك الوسيم، الصعلوك، الثقيل الظل، الروائي بلا روايةٍ، أن يخدمني باسم الصداقة، ويأتيني بطيفك.

فكرة ساذجة حقًّا، ولكن لا مانع من امتطاء حتى السذاجة لآتي بك.

قد تسألين، لماذ لم ألجأ لفاروق كولمبس، في تلك المهمة وهو جاري وألتقيه أكثر من ألماني وغيره؟ وأقول صراحةً بأن كولمبس لم يكن مؤهلًا لإغواء حتى جدة في آخر العمر. كان عجوزًا ويابسًا، وبلا جاذبيةٍ إطلاقًا، حين يثرثر في مكانٍ آخر، بعيد عن ركن محاضرات الحياة.

وجدتُ ألماني في مراحب، كما كنتُ أتوقع، وكان يرتدي الزي الوطني الذي أراه يرتديه لأول مرة، ويُحدق عميقًا في البحر، كأنه يُحاول أن يستلَّ شيئًا ضائعًا في الأعماق.

كان المكان شبه خاوٍ، ثمة سائحتان تبدوان من شرق أوربا، تتلاعبان بعقودٍ من الخرز المحلي، شاب متفائل يتبسم بلا معنى، نشالٌ معروفٌ طاف بالمكان على عجلٍ، ومضى، وصاحب الكافتيريا، يُطالع شريطًا سينمائيًّا قديمًا، من بطولة المصري "محمود المليجي" على تلفزيون باهت في وسط المكان. وبعد تحيةٍ قصيرةٍ، أحسستُ بها غير مُتحمسة، ولا تُشبه التحايا، من جانب الصديق، اندفعت في سرد الحكاية، حكايتي منذ ليلة الأثر الطلياني المختلفة،

إلى خروجي مُنهزمًا من عند عنتر وإخوانه، لم أنس حتى أغنية الإشراق التي رددها المغني، الطويل الشَّعر، ورقصتك الخجولة، والمسافة التي قطعتها بصحبة طيفك، عبر غابات المسكيت الموحلة.

لم يُقاطعني ألماني أبدًا، ظلَّ يُصغي كما اعتقدت، وعيناه تُحدقان عميقًا في البحر، وانتبهت إلى أن لحيته قد طالت بصورةٍ مرعبةٍ، وابيضَّ لونها، ومسبحة من الخرز الأصفر تتقافز بين أصابعه، لم أكترث كثيرًا، هي غالبًا إحدى حيل الصيد الجديدة، يخطط بها لاصطياد سائحة بلهاء، مغرمة بتراث الشعوب، ربما صادفها في مراحب. لكن حين انتهيتُ، وأنا لاهثُ الأنفاس، أتصببُ عَرقًا وعِشقًا، اكتشفتُ بأنني دلقتُ سري عند رجلٍ آخر، غير ألماني الذي أعرفه، لم يرفع عينه حتى ليُطالعني بها، وردد بصوتٍ خافتٍ للغاية، لم يكن صوته الذي طالما شد فتيات المدينة، ورقصهن على أنغامه:

– أسأل الله أن يهديك ويتوب عليك.. اذهب واستغفر.. اذهب يا رجل!

كانت خيبةً جديدةً بالطبع، رجل المهمات ثقيلة الظل قد اهتدى يا أسماء، اهتدى أو جُن، لا أعرف حقيقةً، وكنتُ في أمسِّ الحاجة لخدماته. مثل فتاة عنتر وإخوانه، لم تكن لتستغرقَ تحت لسانه سوى لحظات. تلعثمت

بشدةٍ وأنا أرى لحيته وقد تجهَّمت أكثر، ومسبحة الخرز التي تهتز بين أصابعه وقد زاد اهتزازها، ونظراته التي يُخاطب بها البحر تهيجت. الخلاصة أنه لم يطلب لي شايًا، أو قهوة، كما اعتاد أن يفعل في السابق، حين أفاجئه جالسًا، وورق أبيض بلا كتابة يتناثر على طاولته، وكنسني كما يكنس قذارة على أرضٍ قذرة.

هل رأيت جنون العشاق وتفاهتهم، وتحولهم بين ليلة وضحاها، من شجر صلد الجذور إلى صفق يابس، تتقاذفه الريح؟

لم أصدق أنني بهذه السذاجة، وأنني نفسي الذي أنتجتُ جيلًا من المتعلمين، تناثر في الجامعات محليًّا وخارجًا، وكنتُ حتى نهار الخميس الماضي، منكبًّا على رسالتي التي كنتُ أعتبرها الأهم والأكثر قداسة، ليأتي ليل نفس اليوم، ويهزني كل تلك الهزات.

لكن لا بأس مع كل ذلك، إهانات ألماني سأبتلعها، كما ابتلعت إهانات المراهقة

الهزيلة، أخت عبد القادر، وسأخترع حِيلًا أخرى. للعاشقين حِيل يخترعونها كما سمعت، وما دمتُ عاشقًا، فسأخترع حِيلي.

وأنا ذاهبٌ إلى بيتي في عربةٍ للأجرة، مُشتت الذهن، كما هو مُتوقع، سمعتُ السائق يُحدثني عن أحقيته برئاسة نقابة سائقي عربات الأجرة، ولم يُرشحه زملاؤه لذلك المنصب، بسبب الحسد. التفت ناحيته، وأنا على يقين بأنني سأشاهدُ سائق الليل الذي أقلني من الأثر الطلياني، وألقاني في غابة الجن ومضى، وكنتُ مُخطئًا، لقد كان رجلًا آخر، أكثر بدانة، وأغزر شَعر الرأس، واستغربت، ما تلك الرئاسة التي يود الجميع تقلدها ويشكون من عدم ترشيحهم لها بسبب الحسد؟

أنا أيضًا أود أن أتقلد منصبًا ما، منصبًا أهم من كوني معلمًا في مدرسة متوسطة، أو حتى مديرًا للمدرسة، أو رئيس الإدارة التعليمية في المدينة كلها، إنه منصبٌ لا أريد أن يُشاركني فيه أحدٌ: منصب عاشق أسماء، لقد رشحتُ نفسي وبلا حسد، وزكيتها، وأنتظر العثور على باب الدخول لأدخل، متأجج الشعور.

لن ألومَ ألماني على توبته المفاجئة، فقد اختارها، على الرغم من أنها جاءت في توقيتٍ قد يكون مناسبًا له شخصيًّا، ولا حيلة له، إن لم يكن مناسبًا لي على الإطلاق، على الأقل، انتهت موجة الكتابة الكذابة، ولن نسمع بعد ذلك عن ملحمةٍ تُكتب، أو رواياتٍ أُنجزت، وتُرجمت إلى كل لغات العالم.

لـن ألـوم الهزيلـة أخـت عبـد القـادر أيضًـا عـلى وقاحتهـا، لأنهـا مقصوصـةُ الجناحـيْن مثـلي، وأجـزم أنهـا أحبَّـت وانجرحـت عـشرات المـرات، وعـادت لتعيـشَ الحيـاة هكـذا جافـة، وتعسـة.

أوقفتنـي العربـة أمـام بيتـي مبـاشرةً، هـذه المـرة، ومـا زالـت الحلقـة التـي صنعتهـا بنفـسي ضيقـةً، صارعتهـا طـوال الطريـق، ولم أخـترع مخرجًـا بعـد. كانـت امـرأة كولمبـس واقفة عنـد بيتهـا، ولاحظـتُ لأول مـرة، أنهـا حامـل، كان جنينهـا في مسـتوى القفـص الصـدري، وأحسسـتُ بهـا تلهـثُ مـن دون أي مجهـود. لم أكـن أعـرفُ اسـمها حقيقـةً، وكان ذلـك مـن إحـدى غرائبـي، أننـي لا أعـرف اسـم جـارتي اللصيقـة، وقـد كانـت مـن مدينـةٍ أخـرى، تزوجهـا فـاروق منـذ أقـل مـن عـام، وجـاء بهـا إلى حـي المسـاكن منـذ شـهرين فقـط. كانـت في نحـو الثلاثـين، وفـاروق قـد تجـاوز الخامسـة والخمسـين.

وبصـوتٍ رقيـقٍ للغايـة، أعـرف بأنـه ليـس صوتهـا الحقيقـي، سـألتني لأول مـرة:

– مَن يطبخ لك غداءك يا أستاذ؟

هممـتُ باضطهـاد سـؤالها، وتجاوزهـا، والدخـول إلى بيتي، لأخـترع مخرجـي، وبـدا لي ذلـك، لا يليـق بعاشـقٍ تسـأله امـرأة. قلـتُ:

– أطبخ لنفسي.

– حرام... لماذا لم تتزوج حتى الآن؟

سؤالٌ في غاية الوجاهة، يا جارتي التي لا أعرفُ اسمها، حتى الآن، ولم أسأل عنه من قبل، ولا كان يرد في صوت زوجها حين يشد الضفيرة، أو يُلاعبها الورق عَنوة، ويهزمها بجبروت الرجال، أو يملأ مساحةً متمكنةً في ليل حي المساكن. سأسميها مؤقتًا: عفراء، ولا أعرف لماذا عفراء، لكنها بدت لي تُشبه الاسم بجنون، والاسم يُشبهها بجنون أيضًا، لو سألتني في نهار الخميس الماضي، لنكست وجهي باتجاه الأرض، ومضيتُ، بناء على عَلاقتي السابقة بالمرأة، وأنها ضائعة مني إلى الأبد، لكن سؤالها جاء في توقيت العشق، غير المُخطط له، والذي لا أعرف حتى تلك اللحظة، متى ينتهي، وكيف؟ أظنها كانت تحت ضغط العرفان بالجميل، حين انتشلتُ الزوج العربيد من تحت جثة حدادٍ هائجٍ، وتريد أن تُكافئني بطبخةٍ من صنعها. همستُ في داخلي:

شكرًا يا عفراء، أنا أطبخ لنفسي كما أخبرتك، وحتى هذه لم أعد أهتم بها كثيرًا، اتركيني لأدخل.

قلتُ وأنا أضع المفتاح على قفل الباب، وأديره:

– سأتزوج قريبًا.. أنا خاطب.

مـن حقـي أن أكـذب عليهـا يـا أسـماء، أن أجعلـك مخطوبـةً لي وأنـا لا أعرفـك جيـدًا ولا تعرفينـي بـأي صـورةٍ مـن الصـور، وقـد نحـت ذهنـي مـرارًا لأسـتعيدك، وأتفحـص يديـك إن كانتـا خاليتـيْن مـن حنـاء المتزوجـات، أم مسـودتيْن بهـا، ولم أفلـح، كان وجهـك يـأتي، لكـن التفاصيـل الأخـرى لا تجـيء أبـدًا.

الـذي توقعتـه حـدث بالفعـل، في ذلـك اليـوم، ففـي الثانيـة ظهـرًا، موعـد عـودة الموظفـين مـن أعمالهـم، والـذي هـو موعـد عـودتي أيضًـا في أيامـي العاديـة، جـاء فـاروق كولمبـس، يطـرق بـابي. كان سـعيدًا، بشـدة، يمضـع علكـةً بـين أسـنانه، وبـين يديْـه طبـقٌ مـن الألمونيـوم، مُغطـى بالقصديـر. قدَّمـه لي قائـلًا بأنـه وجبـة فاصوليـا بالدجـاج، مـن صنـع زوجتـه، وسـآكل أصابعـي وأسـناني وراءه، وأضـاف بـشيء مـن المُجـون، إلى أنـه ذهـب اليـوم لزيـارة ألبـيرت راجـي في ورشـته، برفقـة اثنـين مـن معارفـه ومعـارف الحـداد في نفـس الوقـت، اعتـذر لـه عـن أقاويـل ربمـا سـمعها مـن البعـض، ولم تصـدر منـه، وكلفـه بصناعـة أسرَّةٍ جديـدةٍ، وخزانـةٍ للثيـاب، لمناسـبة قـرب وضـوع زوجتـه، وقبـل أن ينـصرفَ، حدثنـي عـن تقليصـه لجلسـاء ركـن محـاضرات الحيـاة، وأنـه طـرد منـه كل مـن شـك في أنـه، لـن يتعلـم الحيـاة كـما ينبغـي، أو ينقـل محـاضرات الركـن إلى مـن يهمهـم أمرهـا.

لم أسأله عن ذلك الأمر الذي كان يهم الحداد ألبيرت، وجاء به مشروع قاتل، صباح تلك الجمعة، فقد كنتُ أعرفه بالتخمين كما ذكرتُ، وقلتُ له:

– شكرا يا كولمبس، اشكر زوجتك عفراء نيابة عني.

التفت إليَّ، ردَّد:

– عفراء تحترمك جدًّا، تعتبرك مِثل أخيها.

يا للغرابة يا أسماء، لقد اكتشفتُ الحاسة المتمكنة التي لم أكن قد انتبهتُ إلى وجودها عندي، وسميتُ امرأةً لا أعرف اسمها باسمها الحقيقي، والآن تحت ضغط الفرحة، سأجلسُ ما تبقى من اليوم لأخمنك، وأتأكد بعد ذلك، إن كنتُ قد خمنتك حقيقةً، أم لا؟ وأيضًا تحت ضغط الفرحة، وبعد أن وضعتُ الطبق في الداخل، عدتُ لأطرق باب فاروق، وأسأله مباشرةً:

– هل كان الأمر يتعلق بمريا أخته؟

– نعم.

قال، وأغلق الباب.

٦

لم أكن أدري ما السبب الذي جاء بمحيي الدين ألماني، الروائي بلا رواية، وصاحب مركز الترجمة المُغلق، والمتطرف الديني حاليًا، إلى بيتي في حي المساكن، عصر ذلك اليوم، ولم يعتد زيارتي أبدًا، وكانت آخر مرة التقيته فيها، منذ أسبوعين، حين ذهبت أبله، وساذجًا، وملطخًا بسمعته القديمة، لاستغلال وسامته وثقل ظله في استخلاص صورك من فتاة أستديو عنتر وإخوانه، وفُوجئت به آخر، غير الذي أعرفه، وانهزمت.

كانت قد مضت سبعة عشر يومًا، منذ عَلِقت فيك يا أسماء، سبعة عشر لوحًا من الجمر المُتقن، تقلبت فيها بلا هوادةٍ. مرَّ عيد العلم السنوي، وانتظم التلاميذ في بهرجة الأنفس والأزياء، والميادين، وترديد الأناشيد الكاذبة في حب الوطن والدراسة، ولم أستطع أن أكتب رسالتي

السنوية، في مدح مادة الكيمياء التي تعودت على كتابتها، وبنفس حبري الأخضر الذي أكتب به الآن، ليقرأها أحد التلاميذ في احتفال المدرسة، وكتب شمس العلا، الذي ما زال مشتتًا في مسألة تغيير اسمه، كلامًا متعجلًا، لم يكن في مستوى عبقريته المعروفة. أيضًا حصل مدير المدرسة الذي كان في التاسعة والخمسين، وأحد أدوات السلطة المهيمنة على التعليم، في المدينة، على زيادةٍ مفاجئةٍ في وزن وظيفته، حين عُين فجأةً، وكيلًا لوزارة التعليم، وسافر إلى العاصمة لتسلم الوظيفة، وكادوا يفسدون عذابي في عشقك، حين كلفوني بتسيير شؤون المدرسة، لحين حضور مديرٍ جديدٍ، لكنني أبيتُ بشدة، وكلي استغرابٌ من ذلك الاختيار الذي لم أكن أتوقعه أو أستحقه.

كان فاروق كولمبس، جاري، قد اقترب مني في تلك الأيام، بدرجةٍ مثيرةٍ للريبة، وكنتُ جاره منذ وُلدت، ولم يهتم بي أبدًا من قبل، وأزعم أنني لم أشاهده حتى، وسط تلك الجموع التي تقاطرت لتواسيني، وتبكي معي الفقد، حين ضاع بخاري فجأة، وحين خرجتُ من الدهاليز المظلمة بعمرٍ جديدٍ وعدتُ إلى جيرته. وتأكد لي أن تلك العفراء، زوجته القادمة من مدينةٍ أخرى، والتي أخفقت كما يبدو لي، في تعديله، إلى زوج حتى الآن، هي التي تقود حملة إزعاجي بهذه الصورة الغريبة.

أكثر ما أرهقني، في التصاق كولمبس وامرأته بي، هو أنني لم أعد أجد وقتًا لمحاولة تخمينك، وكلما جلستُ مطأطأ النوم، وواسع الأرق، لأحياك كما أريد، وأحيك دسائس الحب وتوعكاته، وخسائره وانتصاراته، أفاجأ بجاريَّ، شرهيْن وواسعيْ الابتسامات، يتسليان بعورات بيتي، المرأة تفتح خزانتي بلا مناسبةٍ، وتُغلقها، تُرتب سريري بحسب ذوقها، تغسل أطباقًا للطعام، ربما تركتها متسخة، تنحني لتكنس غرفتي وصالتي الضيقة، تطبخ لي ما تعتقد أنني أفضله، ولا أتذوق منه الكثير حقيقةً، وأنتبه إلى لهاثها المجنون، وأترجاها أن تكفَّ ولا تكف، والزوج، منكفئًا على وسادتي، تلك التي طرزتها بدموعي ورياله العشق التي أسلتُها، أيامًا طويلة، يلف مخدره من البانجو، في ورقٍ شفافٍ، ويُدخن، لدرجة أن مرور بعوضة عادية بالقرب من أنفه، أو منظر ذبابة عالقة في خيط عنكبوت على الحائط، يُضحكه حدَّ الدمع، وأصوات الطريق العابرة، من صراخٍ وسبابٍ، ومناجاةٍ، تضرجه بتفاعلٍ غريبٍ، يقفز على أثره من اتكاءته، يركض، وينضم لمشعلي أصوات الطريق. وحين يجلس في ركن محاضرات الحياة، في أول المساء، ويملأ المساحة المتمكنة من الليل، بصوته الرنان الدائخ من أثر المخدر، أتنفس بعمقٍ، أتمنى لو كان اليوم كله محاضراتٍ خياليةً تافهةً، حتى أقضيه أنا في خيالاتي الوارفة النظيفة.

ضجرت يا أسماء، ضجرت من سرقتهما لك من خيالي، من وقوفهما الطويل على بوابة الدم، ليطردانك، وأخبرت كولمبس في أكثر من مرة، بأنني نادمٌ أشد الندم، لأنني لم أترك ألبيرت الحداد، يُخرج أنفاسه من رئته الضالة.

كان يضحك بمجونٍ، وعفراء تضحك بلهاثٍ مضطربٍ، ويدها على مستوى القفص الصدري، حيث تمدد جنينها المنتظر، وتقفز إلى ذهني صورتك في ذلك الخميس، أتساءل: هل كانت عفراء زهرة أيضًا، وجففها الحمل؟

لا أعتقد، فالزهرة الأصيلة، تبدو زهرة، حتى وهي دائخة بين أيدي القتلة.

أظنك ستسألين الآن:

ماذا حدث لصورتك المستحيلة؟ وهل ثمة مغامرة أخرى جرت لاصطيادها، في تلك الأيام التي أعقبت إخفاقي بسبب الفتاة الوقحة، وانحياز ألماني لاتجاه آخر؟

الإجابة:

نعم، وما كان قلبي في الحقيقة، ليسامحني، أو يمنحني ذرةً من أكسجين، أتنفس بها، لو أغفلتُ ذلك الأمر.

قبل يومين فقط، عاد عبد القادر من شهر العسل. أيامٌ قليلةٌ، أنفقها في العاصمة، برفقة عروسه التي لم تكن من أقاربنا، وكانت زميلة له في العمل، انتقاها كما

يبدو بحساباتٍ دقيقةٍ، لم يكن الجمال من بينها. ربما أكلا في مطعمٍ نظيفٍ، ربما تسوَّقا في سوق الإفرنج العامر بالبضائع، وربما كحَّلا عيونهما المعتادة على هدير البحر، بمشاهدة النيل، أسطوريًّا وماردًا، وموحيًا بخيالاتٍ عديدةٍ كما أعتقد. لم أكن من مُجربي شهور العسل كما تعرفين، وأعتمد في وصفي لشهر عسل قريبي على حاسة التخمين التي أوقن الآن، وستعرفين بنفسك لاحقًا، بأنها أصبحت حاستي الرئيسية، حاستي التي تتفوق على السمع والبصر واللمس والتذوق. صدقيني لو قلتُ لك، إنني لو كنتُ مُدرسًا لمادة الأحياء، وتشريح جسم الإنسان، لدرَّستها للتلاميذ ودربتهم على اكتشافها.

عرفتُ برجوع عبد القادر مصادفةً، بعد أن شاهدتُ أخته المراهقة الوقحة، في موقف الباصات الرئيسي، حين كنتُ أنتظر باصًا ذاهبًا لحي المساكن. حاولتُ أن أتفاداها، ولم أستطع، ولم تتركني إلا بعد أن ازدرتني بعينيْها، وأخبرتني من دون أن أسألها، بأن عبد القادر قد عاد من شهر العسل، واستلم الصور كلها. أقسم لك يا أسماء أنها كانت ستسألني، إن كنتُ سأدخل تلك الصور مقرر الكيمياء، أو أوزعها صدقةً للفقراء في حي المساكن، لولا أن حافلةً مسرعةً، دخلت الموقف فجأة، وأثارت غبارًا، وانشغلت هي بتنفيض ثيابها والتأكد إن كان غطاء رأسها ما زال موجودًا، أم سقط.

كان من حُسن حظي، كما قدَّرت في ذلك اليوم، أن عبد القادر، قد ترك بيت أهله في طرف المدينة البعيد، قبل أن يتزوج، استأجر شقةً صغيرةً في وسط المدينة، أسَّسها بضروراتِ الحياة، وجرجرني لمشاهدتها في أحد الأيام، من ضمن فوجٍ كبيرٍ من الأهل والأصدقاء. لن أستطيع أن أصفَ لك سعادتي بلقاء أخت عبد القادر يا أسماء، ليس لأنني أستسيغُها بالطبع، ولكن لأنها منحتني خريطة الكنز، وأشعلتني حماسًا.

أسرعتُ بالابتعاد عن الموقف، قبل أن تنتبه وتجدني مرةً أخرى، ولم أذهب إلى بيتي في تلك الظهيرة، أمضيتُها في أكثر من سبعة أماكن في وسط المدينة، أحاول أن أنحر الوقت حتى يأتي المساء وأذهب متتبعًا خريطة الكنز، دخلت مكتبة "أهل البلد"، التي أنشأها "نور الدين العطا"، مدير مدرستنا الأسبق، بعد تقاعده، واشتريت كتابًا خاصًّا بعلوم ما وراء الطبيعة، ظننتُ أنه قد يُساعدني في تطوير حاسة التخمين، إن بدأت بتخمينك، وأيضًا كتابًا عن التنجيم، والأبراج، ولم تكن لديَّ فكرة، لماذا اشتريته.

دخلتُ كافتيريا سلامة، إحدى أسوأ الكافتيريات في المدينة، وعثرتُ على ذبابةٍ ميتةٍ في كوب الشاي الذي طلبته، وعفوتُ عن النادل بطيب خاطر، لأن الخطأ قد حدث في وقت انتظارك، الوقت الذي اعتبرته ملكًا خاصًّا

لـك، وأعـرف أنـك، بسـماحة الوجـه التـي أعرفهـا، والرقـة التـي أوقـن بوجودهـا، كنـتِ سـتعفين عنـه أيضًـا. مـررتُ بأسـواق بيـع الخضـار، واللحـم، وبيـع الدجـاج، وثرثـرت كثيرًا مـع بائعة للقصـب، تسـكن حـي المسـاكن وأعرفهـا، مـن صداقتهـا لأمـي الراحلـة، لا لسـببٍ سـوى أن اسـمها كان أسـماء، وحقيقـة لم تكـن تقاسـمك سـوى الاسـم فقـط، وكنـتُ طـوال جلـوسي بجانبهـا، أفكـر في اقتيادهـا يومًـا بالقـوة، إلى سـجل المواليـد، لأنتـزع منهـا اسـمك، وألبسـها اسـمًا شـبيهًا بهـا، بوصفهـا عجـوزًا خرقـاء، تجـاوزت السـتين منـذ زمـنٍ. لا تصفينـي بالجنـون أرجـوك، فلـم أكـن مجنونًـا في يـومٍ مـن الأيـام.

حـوالي الخامسـة مسـاء، كنـتُ أحمـل كتـابيَّ اللذيـن اشـتريتهما مـن مكتبـة أهـل البلـد، وسـلة مـن البلاسـتيك فيهـا مزهريـة مـن الفخـار المحـروق، تحتـوي زهـورًا حيـةً، اشـتريتها مـن مشـتلٍ بـلا اسـمٍ صادفنـي في الطريـق، وأطـرق بـاب شـقة عبـد القـادر.

كانـت البنايـةُ مـا زالـت جديـدةً، ومعظـم سـكانها مـن المتزوجـين الجـدد. ثمـة بقايـا لإسـمنت وحديـد، لم تُكنـس بعـد، والـدرج الـذي صعـدتُ بـه إلى الطابـق الرابـع، حيـث الشـقة، مـا زالـت درجاتـه محفـورةً، وعاملان صبيـان، مغبران، يرممانهـا بـلا حـماسٍ.

لم يكن وقتًا مناسبًا لزيارة عروسيْن عائديْن من رحلة اكتشافهما لبعضهما البعض، ويسعيان لإكمالها في بيتهما، بكل تأكيد. في الواقع لم يكن مناسبًا حتى لزيارة مقبرة، وقراءة الفاتحة، أو طرْق باب أرملة مسنة وتعزيتها في فقدٍ، لكن ماذا أفعل؟ اللتان تقوداننني في الطُّرق، تزفانني إلى مواقف الحرج، لم تكونا قدميَّ، والعقل الذي يُفكر، كان عقلًا آخر، نبتَ في رأسي في ذلك المساء، وعلى تربة، لم تكن مهيأةً له، ولكنه نبت.

فتح قريبي الباب بعد عدة طرْقات، ابتدأتْ ناعمةً، ثم اخشوشنتْ بعد ذلك. كان يرتدي ثوبًا بيتيًّا قصيرًا، على يديْه حناء العُرس، سوداء قوية، لا تزال، وتسطع من جلده النظيف، اللامع، رائحة البخور، والعطور الشبقية، التي تصنع خصيصًا للزواج. أظنه فوجئ بوقوفي على بابه، في وقتٍ لا يقف فيه أحدٌ على باب أحدٍ، لأن يده كانت مضطربةً بشدةٍ، وهي تُمسك بيدي في التحية، وشفتاه عضَّتا على بعضهما البعض، كأنهما تُمسكان ببقايا قُبلة، تمنعانها من الفرار، ومن فراغٍ طفيفٍ بين جسده، والباب شبه الموارب، لمحت ما يُمكن أن تكون نظرة تساؤلٍ عميقٍ، في عينيْ امرأته الواقفة خلفه مباشرة.

كان واحدًا من المواقف غير السارة، والذي ما كان سيحدث، لولا ذلك الخميس المختلف، ولأني تدربت على

مواجهة الحرج كما يبدو، بعد عدة صفعاتٍ متتاليةٍ، فلم أحس بأي اضطرابٍ، على العكس كنتُ متمكنًا في مصافحتي، وإعادة تهنئتي بالزواج الميمون، وقدَّمت مزهريتي الهدية، وأنا واقفٌ بالباب لأن قريبي لم يبدُ راغبًا في إدخالي، واحترمتُ رغبته، وبصوتٍ جعلته رزينًا وصافيًا إلى أقصى حدٍّ، سألتُ عن صور العُرس التي فيها صور تهمني.

لم يسألني عبد القادر عن تلك الصور التي تهمني، حقيقةً، أشار إليَّ أن أنتظر لحظة، وانزلق إلى الداخل، وعاد بعد لحظاتٍ قليلةٍ، حاملًا ألبومًا ضخمًا، كُتب عليه بخط ذهبي متعرج:

أستديو عنتر وإخوانه، مع خالص التمنيات للعروسين.

أخبرني بأنه يحتوي على جميع الصور التي التُقطت في ذلك اليوم، وعليَّ أن أنتقي التي تهمني الآن وأعيده له، وأنه سيدعوني بنفسه لزيارته، ويُكرمني، حين يكون مُستعدًا في يومٍ آخر.

كان مضطربًا بالفعل، ولا أحس بأي وخزٍ داخلي بأنني أفسدتُ قيلولةً مثمرةً، لعروسيْن في شهر العسل، كنتُ مهتمًّا بقيلولتي الخاصة، برحيقي الذي أخطو لامتلاك قنانيه كلها، بما يُمكن أن يكون خطوةً ذات مغزى في قصتي التي كتبها القدر لي، في ليلةٍ مختلفةٍ.

أمسكتُ بألبوم الصور وفتحته، وبدأ الثبات يتزحزح: هذه للعروسيْن جالسيْن على مقعديْ المخمل، هذه للعروسيْن مرةً أخرى وثالثة ورابعة وعاشرة، هذه لنساء يزغردن بحلوقٍ منتفخةٍ، لرجالٍ يرقصون بلا تناغمٍ، للمغنين، لأعضاء الفرقة الصعاليك، لحاملي أكواب العصير كلهم، لفتياتٍ جميلاتٍ، لفتيات يسعين ليكُن جميلات، بلا مقومات جمال واضحة، لطفلٍ متسخ الفم، يمص حلوى، لي أنا برفقة تلميذي الشقي الذي أسهم في ضياعك مني، حين فاجأني وأعادني معلمًا للكيمياء، لي وأنا مرتبك أمد يدي، أبارك على المسرح، لكثيرين بلا عددٍ، حضروا وصافحوا ومضوا، لأطباق الكوكتيل على الموائد، للعربات المتوقفة خارج المكان، ثم تأتي الصفحة الأخيرة، الصفحة التي ترددتُ كثيرًا في فتحها، ولا أجد ثوبًا أسود مطرزًا بمشاريع أزهار لم تنبت، أو نجوم لم تضئ، ولا ألمح وجهًا طالما أنهكتني محاولات استعادته.. آخ..

أحسستُ بما يُشبه الانهيار:

– هل هي كل الصور التي التُقطت؟ هل أنت متأكد؟

أسأله، وأسمع صوتي مشقوقًا، أو مكسورًا من وسطه، أو مقضومًا بأسنانٍ حادةٍ.

– أنت متأكد يا عبد القادر؟

ويُجيبني، ولا أكاد أسمعه:

- نعم هي كل الصور التي التُقطت، وقد تأكدتُ من الشريط السلبي بنفسي، لكن صورك موجودةٌ يا أستاذ، خذها إن أردت.

أضاف وقد بلغ به الملل حدَّه، كما بدا من الصوت:

- هل كنت تتوقع صورًا أخرى غيرها؟

- لا.

قلتها، وبنفس الصوت المشقوق، المقضوم، المكسور من وسطه، لا.. وكنتُ كاذبًا بالطبع، ولو جمد قريبي اضطرابه الشخصي، واستعجاله لأن أغادر، لحظة واحدة فقط، وتأملني، لفهم بأنني أكذب، وأكذب بضراوة.

انتزعتُ صورتيَّ الموجودتيْن بيدٍ واهنةٍ، أعدتُ الألبوم لصاحبه، وهبطتُ الدرج، وتعثرتُ في أحد العاملين في ترميم الدرج، وكان قد تمدد في قيلولةٍ بائسةٍ وغفا، وحين وصلتُ الطريق، مزَّقت الصورتين، مزقتهما بحقدٍ، وألقيتهما على الأرض.

هل كانت مصادفةً، أن لا يصورك المصور، أم هي أوامر واضحة منك بعدم التصوير؟

لكـن لمـاذا؟ ونسـاء الأعـراس الجميـلات، المتزينـات، في العـادة، يـوددن لـو بقيـت آلات التصويـر عالقـةً بوجوههـن، وثيابهـن حتـى نهايـة الحفـل؟

لم تكـن لـديَّ إجابـة، ولـن تكـون أبـدًا، ولكـن وبرغـم ذلـك لن أستسـلم.

فاجأتنـي زيـارة ألمـاني بـلا شـك، لم يكـن وحـده، كان برفقة ثلاثـة آخريـن، عـلى نفـس المسـتوى مـن اللحيـة، والثـوب القصـير، ومسـابح الخـرز التـي تتقافـز بـين الأصابـع، عرفـت منهـم الأزهـري، وكان فيـما مـضى طباخًـا لـدى عائلـةٍ مـن بقايـا الأتـراك، تسـكن في وسـط المدينـة، وأُديـن بطعـن ربـة البيـت بسـكينٍ، لأنهـا اعتـادت عـلى انتقـاد أدائـه في المطبـخ باسـتمرارٍ، وقـضى خمـس سـنوات في السـجن، والآخـران كانـا غريبـين، لم أرهـما مـن قبـل.

لم أدعهـم للدخـول، وقـد تخلصـت للتـو مـن فـاروق وعفـراء، وأردتُ أن أبنـي عالمـي معـك، ولا كانـوا أنفسـهم يرغبـون في الدخـول، هـي دعـوةٌ واضحـةٌ وجههـا لي ألمـاني بـأن أحـضر إلى مسـجد الحـي، لمشـاركتهم الخـروج في سـبيل اللـه، الـذي بـدأوه لمسـجدنا صبـاح اليـوم.

قلتُ بلا تردد:

– لديَّ دروسٌ أقوم بتحضيرها لطلابي يا أخي.

وردَّ بسرعةٍ، كأن الرد موجودٌ أصلًا في لسانه منذ زمنٍ بعيدٍ:

– تعالْ وحضِّر لدروس الآخرة يا أخي الدنيا لا نفع فيها.. لا نفع فيها صدِّقني. ستجدنا بانتظارك إن شاء الله.

أضاف:

– السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ثم مضى مع جماعته، وأراهم يطرقون الآن باب كولمبس، وأتوقع أن يحصلَ عراك ما.

لم أشاركهم خروجهم بالطبع، كنتُ في حالة بؤس لا تسمح لي حتى بمد يدي لأحك ظهري، هم اختاروا سكة، وأنا في سكة أخرى، وربما نلتقي ذات يوم، لكنه ليس اليوم بأي حالٍ من الأحوال.

_٧_

قبل أن أبدأ بتشغيل حاستي الجديدة، حاسة التخمين التي اكتشفتُها بجدارةٍ، وطوَّرتها بسرعةٍ، أسخرها في شأن حبك، حتى تكوني حقيقتي الواقعة، حقيقتي التي لن يكون ثمة جدال فيها، ابتدأتُ في عمل تجارب كثيرة، كان معظمها ناجحًا بشكلٍ لا يُصدق، ولدرجة أن ما تلا ذلك من أيام وأشهر، وأنا أرصفك، لم أحس أبدًا بأنني أرصف معالم من صنعي، ولكنها من صنعي وصنعك أنت، وصنع القدر الذي ربط بيننا بخيوطٍ أنا أمسكها حدَّ الجنون، ولكنك للأسف لا تمسكينها.

في اليوم الذي اقتحمت فيه عسل قريبي عبد القادر، وأجبرته على ضم بقايا قبلات العسل بين شفتيه، حتى لا تطير، وتصفحتُ ألبوم الصور التي التقطت في العرس، واكتشفت خلوه من أي صورة لك، ومزقت صورتيَّ اللتين

عـثرتُ عليهـما بحقـد وألقيتهـما في الطريـق، لم أذهـب إلى بيتي مبـاشرةً، لأنفـض قلبـي مـن ذلـك الحـب الطـارئ، وأسـتريح. درت في وسـط المدينـة سـاعتين تقريبًـا، بـلا هـدفٍ محـددٍ، داخـلي يغـلي بشـدة، وخارجـي يرتعـشُ وأحـس ارتعاشـه، وعـدتُ حـوالي الثامنـة، أطـرق بـاب عبـد القـادر مـرةً أخـرى. وأنتظـر زهـاء ربـع السـاعة حتـى فتـح.

هـذه المـرة لم يكـن مضطربًـا كالسـابق، ولكنـه مذهـولٌ حقيقـة، قميصـه مفتـوح الأزرار، وسروالـه أبيـض شـفاف، ممتلـئ بالبقـع، وعـلى الزاويـة اليُمنـى مـن فمـه، ثمـة أحمـر كثيـف، لعلـه ملحقـات قُبلـة بقيـتْ لاصقـةً، أو عضـة أسـنان أتـت بالـدم، لم أحـاول التخمـين.

كنـتُ أتوقـع أن يُمـارس حـق العريـس المنزعـج، المقهـور، وينهـرني، يمسـكني مـن يـدي أو ثيـابي، ويهبـط بي درج البنايـة، وهنـاك يبصـقُ عـلى وجهـي، ويعـود إلى بيتـه، لكنـه لم يفعـل، الـشيء الـذي فعلـه، هـو أن صرخ في وجهـي، وأيضًـا كانـت صرخـةً طريـةً، لم أحـس أنهـا خدشـتني، أو أحدثـت جرحًـا مـا:

– خير يا أستاذ، ماذا تريد مرةً أخرى؟

– أسماء.

قلتُ ببساطةٍ شديدةٍ، وانتبهتُ في نفس اللحظة، إلى أنني ألقيتُ باسمك مجردًا من كل قصةٍ، لها بداية معروفة، وتجري المساعي حثيثًا لإيجاد نهايةٍ لها، كأنني افترضتُ بأن عبد القادر يحملك مثلي، والدنيا كلها تعرفك، وتتساقط في عشقك. أسرعت بإضافة ملحقات لاسمك، قبل أن تقوى صرخة قريبي، وتركلني هذه المرة:

– فتاة كانت موجودة يوم عرسك في النادي الطلياني.

– وماذا في ذلك؟

– أردتُ أن أعرف، إن كانت من أقاربنا، أو أقارب زوجتك؟

أقول الحق، إن عبد القادر، لم يسألني مطلقًا عن هويتك، ولا بدا أنه سيسألني في أي لحظةٍ، ولا نبأت شفتاه المضمومتان، عن بذور سباب مثل: يا ابن الكلب، ستنبت فيهما، ولم أشرك حاسة التخمين في معرفة شعوره تلك اللحظة، لأنني خفتُ أن أشركها.

قال بكل هدوءٍ، ليس فيه حتى رائحة غيظٍ مكتومٍ:

– - بالنسبة لأقاربنا أنت تعرفهم جميعًا، ولا توجد واحدة اسمها أسماء بينهم، وجاراتنا في الحي أيضًا، ليس من بينهن أسماء، وبالنسبة لأهل سلمى ومعارفها ليست لديَّ فكرة، لكني سأسألها حالًا.

انزلق بخفةٍ إلى الداخل، تاركًا باب بيته مشرعًا، وألمح خيال الزوجة، بملابس شفافة أيضًا، يسرع بالاختباء في إحدى الغرف. هذا من المواقف التي بحاجة للتخمين، أعني شعورها، ولكني لن أستهلك الحاسة الثمينة التي أملكها في مجرد توافه. بعد دقيقتين عاد عبد القادر، ليُخبرني بصوتٍ مُتعجلٍ، أن زوجته لم تعثر أيضًا على أسماء بين معارفها وأهلها، وتتوقع أن تكون امرأة لا تمت للعرس بصلةٍ، وتمت دعوتها بواسطة شخصٍ من المعارف.

أظنني كنت سخيفًا يا أسماء، سخيفًا جدًّا، وأنا أتتبع طيفك، أظنني كنتُ مرًّا وصعب الهضم، وأنا أتجول بين العسل والغارقين فيه، لاحسًا ما لا يجب أن ألحسه، أظنني أسوأ عاشقٍ مرَّ على حكايات العشق، منذ أن اخترعتها القلوب، وصيرتها دساتير حاكمة، ذلك ببساطة أنني لستُ عاشقًا من طرفٍ واحدٍ فقط، بل أكثر من ذلك، عاشق من طرف ممزق، لطرفٍ غير مرئي، برغم حقيقة وجوده.

هبطتُ الدرج في تثاقلٍ وأسمع أصواتًا حادةً، تتردد ورائي، في بيت عبد القادر، العروس تُعاتب عريسها على ذنبٍ لم يقترفه، هذا أكيد، والعريس يُذكرها بأنني من أهله. هذا أكيد أيضًا. لقد سمعتُ كثيرًا عن تلك النزاعات التي تحدثُ للمتزوجين، في بداية حياتهم الزوجية، ودائمًا ما تكون لأهل العروسين بصماتٌ فيها، أو يكونون هم

أعـواد الثقـاب التـي تُشـعلها، وقـد كنـتُ للأسـف، عـود ثقـاب مجروحًـا، أشـعل نـارًا وذهـب.

عـلى الـدرج كان عامـلا الترميـم نائمـيْن بعمـقٍ، ووطـأتُ بطـن أحدهـما، ليسـتيقظ مذعـورًا، ولم أعتـذر ومضيـتُ.

أعـودُ إلى حاسـة التخمـين، حاسـتي التـي فرحـتُ بهـا كثيرًا يـا أسـماء، ومـا عـليَّ سـوى تجربتهـا، لأتأكـد مـن مـدى صلاحيتهـا، وقـد فعلـتُ.

بـدأت بقصـة زميـلي شـمس العـلا، عبقـري الكيميـاء المتـورط في حـب فتـاةٍ مـن عائلـةٍ راقيـةٍ، كان أبواهـا ناشـطيْن شـيوعييْن، في مـا مـضى، وأثريـا بعـد ذلـك، حـين هاجـرت الأم إلى إحـدى دول الخليـج العـربي، افتتحـت صالونًـا لتزيـين النسـاء، وعـادت بعـد خمسـة أعـوام بـثروةٍ، دحـرت بهـا نظريـات ماركـس، بجـدارة، ونشـأت فتاة شـمس العـلا، في بيئةٍ مختلفـةٍ، لا تمـتُّ للهـوس الماركـسي القديـم بصلـةٍ. كان قـد تقـدم لخطبتهـا بالفعـل، وقبلـت خطبتـه مبدئيًّـا، طالبتـه هـي بتغيـير اسـمه البلـدي السـمج في نظرهـا، إلى اسـمٍ حضـاري، وطالبـه أهلهـا بتدبـير مهـرٍ غـالٍ حتـى ينالهـا.

قـرأت في ذهنـي أحـوال شـمس العـلا، وأنـه مـن أسرةٍ تنتمـي لإحـدى القـرى التـي اشـتهرت بالتصـوف، في منطقـة الجزيـرة، وتوصلـتُ إلى نتيجتـين:

شـمس العـلا سـيغير اسـمه، إلى اسـم حضـاري، ضاربًـا بقبيلتـه ومتصوفتهـا عـرض الحائـط.

شـمس العـلا لـن يسـتطيع تدبـير، مهـر الفتـاة المترفـة، بمـا يتبقـى لـه مـن راتـب المُعلـم المُتخـاذل حتـى في تدبـير الأكل والـشرب، وسـيرتكب جريمـةً ليفعـل.

بعـد يومـين، وكنـا في اسـتراحة بـين الحصـص، أنـا سـارحٌ بأفـكاري فيـك، وهـو منحـنٍ عـلى حذائـه، يلمعـه للمـرة العـاشرة، منـذ الصبـاح، سـمعته يـصرخ:

– تعال معي، ولنأخذ زميلًا آخر!

– إلى أين؟

سـألتُ وقـد طـارت ظلالـك مـن رأسي، مفسـحةً مكانهـا لصـدى صرختـه.

– إلى المحكمة الشرعية، سأغير اسمي إلى عاصم.

عاصم؟

تأملتـه بفرحـةٍ، أردتُ أن أفرحهـا، لأن الحاسـة الجديـدة، تعمـلُ بكفـاءةٍ، وشـعرتُ في نفـس الوقـت بـالأسى، أنـه قـد يرتكـب جريمـة سرقـة ذات يـوم، لم يكـن باسـتطاعتي مصارحتـه بمـا تقولـه الحاسـة التـي قـد تصـدق وقـد تكـذب، وتمنيـتُ حقيقـةً أن تتعطـل عـلى الأقـل في شـأن ما قـد يرتكبه، نهضـتُ صاغـرًا أمـام صرخـاتٍ متعاقبـةٍ، تلـح منـه، اصطحبنـا

زميلًا آخر، كان موجودًا معنا، من أجل الشهادة، وبعد ساعتين فقط، أصبح شمس العلا، هو عاصم، على الأقل في بيت خطيبته، وعندها هي وعند أطفالها المستقبليين، إذا ما اقترنت به وأنجبت أطفالًا، لأن لا أحد في المدرسة أحب الاسم الجديد وناداه به بعد ذلك. حتى تلاميذه، الجادون وغير الجادين، تفاعلوا بترفٍ ساخرٍ، حين كتب الاسم الجديد، أمامهم على تخت الدراسة.

قصة مريا البيضاء، أخت ألبيرت الحداد، كانت ملعبًا آخر، ركضت فيه بحوافر حاستي، وبلغت النهاية. في الماضي وقبل أن أعرفك، لم تكن الفتاة الطرية، كما يقول مواطنو حي المساكن، قد لفتت انتباهي كثيرًا، وحين أصادفها في الطريق، وكنتُ أصادفها كثيرًا، ألتوي بعنقي بعيدًا عنها، ليس خوفًا من غوايتها، فقد كنتُ مشروعًا لئيمًا في تذوقي للمرأة، كما تعرفين، وغير قابل للغواية على الإطلاق. الآن بدأتُ أهتم بمريا البيضاء يا أسماء، أردتُ أن أجرب التخمين المطور، في حقها، وأرى النتيجة.

انتظرتها في أحد الأيام، قريبًا من روضة للأطفال، مقامة في حي أفضل حالًا، من حي المساكن، لكنه يُجاوره، يملكها القبطي "قدسي قرياقوس"، أحد سكان حي المساكن الجدد مثلها، وتعمل فيها مشرفة، على الرغم من أنها لا تُشبه الإشراف المعروف بقسوته في شيء

أبـدًا، وكان قـدسي قـد اشـترى بيتًـا مـن أحـد الوارثـين أيضًـا، وأقـام فيـه برفقـة عيالـه الثلاثـة، بعـد أن رحلـت زوجتـه فجـأةً في حـادث طريـق.

شـاهدتُ وجـه مريـا بتمعـن لأول مـرةٍ، وكان وجـه فتـاة في منتصـف الثلاثينيـات، ممتلئًـا ببقايـا حَـب الشـباب التـي بـدت واضحـةً، برغـم محاولاتهـا المسـتمرة، لجعلـه وجهًـا جذابًـا. شـاهدتُ مشـيتها، وكانـت أكـثر المشـيات التـي شـاهدتها مكـسرة بهـذا الشـكل، حتـى لكأنهـا بـلا عظـمٍ ولا غضاريـف. وحـين نـادت عـلى بائـع خـضروات متجـولٍ، لتشـتري شـيئًا كـما يبـدو، كان صوتهـا أشـبه بموسـيقى رحبـة، تراقـص في رحابتهـا البائـع والطريـق كلـه.

قلـتُ في نفـسي، بـلا أي تـردد: هـذه الفتـاة لـن تظـل مكـسرة وذائبـة في الطريـق، إلى الأبـد. سـيتزوجها قـدسي قرياقـوس، ذات يـوم.

وقـد كان يـا أسـماء.. كان لسـعادتي الشـديدة، التقيـتُ الحـداد ألبـيرت مصادفـةً في الطريـق، كان سـعيدًا جـدًّا، ويصفـر بلحـن مهـووس لمغـنٍّ قبطـي، اسـمه "إليـا شـكر"، لم يكـن معروفًـا عـلى نطـاقٍ واسـعٍ في المدينـة، وأخـبرني وعينـاه تصبـان السـعادة صبًّـا، بأنـه عـلى وشـك أن يتخلـص أخـيرًا مـن مريـا وعذوبتهـا التـي كانـت تغيظـه، وتعاسـة بقائهـا

مكسرة في الشوارع، فقد تمت خطبتها لصاحب رياض الأطفال قدسي قرياقوس.

لكن ما جعلني أبكي تعاسةً، هو ما خمنته في شأن المراهقة الوقحة، أخت عبد القادر، بعد أن شاهدتها ذات يومٍ، تتسكع قرب معهد (إيفرست) لتعليم اللغة الإنجليزية. كان مكانًا مجرمًا وخطرًا ومرتعًا لصيادي المحبطات من الفتيات الصغيرات. رجال عاطلون، وأفذاذ في الكذب ومن كل طبقات المجتمع، يتأنقون ويأتون، يبذرون الكلام المعسول، ولا ينتظرون حصاده، لكنهم يحصدونه نيئًا. وقد شاهدت في ذلك المكان من قبل سائق شاحنة في الستين، من أقاربي، له أبناء وأحفاد، يقف بكل رعونةٍ، يُغازل بألفاظ السائقين، التي لا تستطيع أن تتجاوز عبارات مثل: الناقة، والتريلة، والصيدة. حتى فاروق كولمبس، برغم تفرده الشديد، وزعامته للضُّلال في حي المساكن، كان يأتي أحيانًا، يتلفت ساعاتٍ كأي ضالٍ مُنحطٍّ عادي. وقد أخبرني معلم زميل، اشتهر في المدرسة، بدقته، وصلابته في متابعة التلاميذ، إنه اعتاد على شن حملات مفاجئة لمعهد إيفرست، خاصة في أمسيات الخميس، ودائمًا ما يعثر على طلاب من المدرسة، والمدارس الأخرى، مبعثرين هناك.

لم أذهب هناك لأغازل أو أصطاد، كما قد تظنين يا أسماء، كنتُ موجودًا بلا معنى، لأن تصرفاتٍ كثيرةً في حياتي، أصبحتْ بلا معنى، أتصرفها بلا وعي، وأعود لأنكرها حين يأتي الوعي.

كانت أخت عبد القادر، واقفةً بارتباكٍ، أكد لي أنها مرتها الأولى أو الثانية، في ذلك المكان، غطاء شعرها الرمادي الشفاف، يسقط عن رأسها، وتُعيده، وبمنديلٍ وردي صغير، كانت تركضُ خلف العَرق الذي يتساقط من وجهها، لم أشاهد صيادًا يحوم من حولها، والصيادون انتقوا فرائس أخرى، أو ينتظرون فرائس ذات شأن، قد تخرج من باب المعهد، أو تظهر في الدرب، في أي لحظةٍ، تواريتُ سريعًا خلف إحدى البنايات المجاورة، حتى لا تراني، وبقيتُ عدة أيام، أزيحها عن حاسة التخمين، وتأبى إلا أن تجيء، وفي النهاية، كلمتُ نفسي بما قالته الحاسة، وتمنيتُ أن تكون كاذبةً: ستهرب. ستهرب برفقة صيادٍ عجوزٍ، بلا أسنانٍ قادرةٍ على نهش صيدٍ أفضل.

وكان ما سمعته وأنا مارٌّ في المدرسة بعد ذلك، من تلميذٍ يسكن في حيهم، حين كان يُخبر زملاءه عن فضيحةٍ في الحي، فقد هربت فتاةٌ من منزل أهلها ثلاثة أيام، وعثروا عليها في بيت حلاق أعزب.

بالطبـع لم أسـأل يـا أسـماء، ولا تتبعـتُ المأسـاة أبـدًا، وأعـرفُ أن النـاس يبـدون صغـارًا، وبـلا وجـوهٍ ينظـرون بهـا، حـين تُباغتهـم الفضائـح، الفتـاة سـتُقلم أظفارهـا بـلا شـك، ستُسـجن في قفـصٍ مـن التعاسـة، سـنواتٍ طويلـةً، وربمـا يعـثرون عـلى شـحاذ أو خـارج عـن القانـون، يزفونهـا لـه.

ولأن عفـراء، الجـارة المُمعنـة في إزعاجـي، الحامـل التـي لا ينقطـع لهاثهـا، كانـت هدفًـا مؤكـدًا لحاسـتي المبدعـة، تتقافـز أمامهـا باسـتمرار، فقـد خمنـت بأنهـا سـتسـعى لتزويجـي مـن فتـاةٍ تعرفهـا، بـأي طريقـةٍ، بعـد أن اكتشـفتْ بأننـي لم أكـن صادقًـا، حـين أخبرتهـا بخطبتـي. خاصـة أننـي سـمعتُ بـأن لهـا أختًـا عزبـاء في الثلاثـين، سـتأتي لزيارتهـم ذات يـوم، لكـن تخمينـي لم يكـن دقيقًـا هـذه المـرة، فقـد جـاءت الأخـت، وبقيـت ثلاثـة أيـام، وسـافرت، مـن دون أن أعـرف حتـى أنهـا كانـت موجـودة. ولـولا أننـي رأيتهـا في عربـة أجـرة ذاهبـة بهـا إلى مواقـف السـفر، لمـا عرفـت.

لم أدقـق كثـيرًا في سـبب إخفائهـا عنـي، ولم أبتئـس مـن فشـل التخمـين. أو أسـعى لإزهـاق الحاسـة بداخـلي، اعتـبرتُ ذلـك شـيئًا عاديًـا يُمكـن أن يحـدث لأي حاسـة مكتملـة، مثـل البـصر، حـين ينخـدع أحيانًـا، والشـم حـين يظـن أن وراء العطر الرشـيق، غـزالًا رشـيقًا.

أول شيْءٍ يخصك، عملت عليه بالحاسة الجديدة يا أسماء، هو الحي الذي تسكنينه.

الوجه الراقي، متقن الملامح الذي شاهدته في الأثر الطلياني، في ذلك الخميس المختلف، كان أحد الأدلة، وسأخبرك لاحقًا، كيف عملت على هذا الوجه، وغيره، من الملامح، التي التقطتها، واستخرجتُ حياةً كاملةً لك، وكنتُ مُوقنًا أشد اليقين، أنها حياتك التي لم أحذف منها فقرةً واحدةً.

لم تكن بالمدينة أحياء تشبهك، ويمكن أن تؤويك بارتياحٍ، إلا خمسة أو ستة، سأقرؤها لك الآن واحدًا واحدًا، وأعرفك بحيك الذي تسكنينه.

حـي الأقبـاط، في وسـط المدينـة، حيـث كنيسـة العـذراء الملونـة، وأطـلال ميـدان سـباق الخيـل القديـم، والمدرسـة الكنسـية العتيقـة، وبـرك السـباحة التـي ردمتهـا التقلبـات، ومـا عـادت سـوى ذكريـات، قرأتـه بتمعـنٍ وألغيتـه بسرعـةٍ، برغـم وجـود كثـيرٍ مـن الأسر غـير القبطيـة، تتناسـلُ بداخلـه منـذ تـم بنـاء المدينـة بشـكليْها: المُـترف، والحزيـن، أواخـر القـرن المـاضي. إنـه الحـي الـذي أنجـب "نيقـولا منـسي"، سمسـار العقـارات ذائـع الصيـت، وألفريـد فلسـطين، تاجـر الخمـر المسـتورد، وصاحـب خـمارة الملائكـة، الواقعـة في وسـط السـوق. وعشـم اللـه، صاحـب وكالـة سـيارات عشـم اللـه، التـي كانـت أول وآخـر وكالـة للسـيارات تعرفهـا المدينـة، والصـافي مختـار، الـذي لم يكـن قبطيًّـا بالطبـع، ولا يعـرف أحـدٌ قبيلتـه بالتحديـد، وكان محافظًـا للمدينـة حتـى عهـدٍ قريـبٍ، وكان مـن الممكـن أن يُنجـب ذلـك الحـي، الطفـل المعجـزة "عرفـان" الشـهير بـ"بيليـه" السـواحل، الـذي أصبـح هدافًـا في دوري الدرجـة الأولى لكـرة القـدم، وهـو في الثامنـة مـن عمـره، لـولا أن أمـه تطلقـت، وخرجـتْ بـه مـن حـي الأقبـاط ذات ليلـة، ولا يـزال جنينًـا في الرحـم. و"نسـمي" الهنديـة الأصـل، التـي كانـت مـشروع راقصـة مـن فئـةٍ نـادرةٍ، لـولا أن أسرتهـا عـادت إلى بلادهـا فجـأةً، في هجـرةٍ عكسـيةٍ.

هـذا الحـي، مـترفٌ للغايـة، ومدهـونٌ بالوجـوه الطامعـة، والوجـوه التـي تطمـح لأن تطمـع، ولا يُشـبهك يـا أسـماء،

لا يُشبه عينيْك ولا قوامك، ولا أقمار السحر التي كنت توقعينها في ذلك الخميس المختلف.

لستُ أنا من يقول ذلك، حاستي هي من تقول.

حي البحر، بالقرب من الشاطئ، حي أرستقراطي عريق، لا أحد يُنكر ذلك، الحي الذي أقامت فيه "تهانيس قبرسلاس"، إحدى حفيدات إمبراطور الحبشة، حين زالت دولة آبائها، واستلم اليساريون الحكم في بلادها، وتعرَّضت للاضطهاد، كما قيل، وكانت في منتصف العمر، متكبرة، وخاضعة لغرورٍ بلا معنى، وكنا نشاهدها في السوق، ونشاهد شراءها العشوائي، ونتسابق في تخمين ثروتها.

الحي نفسه الذي كان هدفًا للسياح من أبناء حي المساكن، وغيره من الرذائل الشعبية، حي الفندق الكبير، والبنوك الاستعمارية، وقد قالت جدتي لأبي، وكانت في التسعين آنذاك، بأنها شاهدت بعينيْها "جراهامز آدم"، أحد مجرمي الحرب العالمية الأولى، كما أخبروها، يتجول في ذلك الحي، على فرس رمادية.

هذا الحي لا يُشبهك، لا يُشبهك أبدًا. وأيضًا حاسة التخمين المتمكنة، هي التي تقول.

حي الزهرة، الجديد، في الطرف الشرقي من المدينة يُشبهك إلى حدٍّ ما، لكن وجود عدد من العشوائيين

والأثرياء الجدد بداخل جيناته، يجعل الحاسة تغتاظُ منه، وتفر. لن تكوني من سكانه، لأنك لن تكوني عشوائية أبدًا.

لم يبق في سلة الرقي، سوى حي واحدٍ، جديرٍ بك، بعد أن استبعدتُ أحياء الموظفين الصغيرة كلها. حي البيوت العشرة، البيوت الستة، حي الطابقين، تلك بيوت أنبتتها الدولة لموظفيها، ولا يمكن أن تُنتج غزالًا، إلا نادرًا. حاستي مَن قال تلك العبارة، وقد تصدق أو تخيب، لكني سأعتبرها صادقةً بيقينٍ كبيرٍ.

خلاصة سياحة الحاسة المتأنية، هي أنني بعد هذا السطر الذي وضعت تحته خطين كبيريْن، قد أصبحتُ عاشقًا مجنونًا لحي "البستان" الذي هو حيك، وصديقًا له حتى يومي المعنوي الأخير.

سأفاجئك كثيرًا، وللأسف لن تصلك مفاجآتي، لأنك كما أخبرتك سابقًا، لا تعرفين أصلًا، أنك ردمت معلمًا منضبطًا بمقرر جبار في مادة العشق، وصيرته ممتحنًا أزليًا في اختبارات ما ظن أبدًا، أنه سيخوضها في يومٍ من الأيام.

سأجبرك على النواح، ولأنك لن تدركي لتنوحي، سأنوحُ نيابةً عنك.

أول ما فعلته، بعد توصلي لمكان إيوائك، هو أن توسلت للأرق، أن يظل أرقًا ناصعًا. كانت الواحدة صباحًا، وأعرفها ليس من ساعة يد أو حائط، ولكن من ديك غبي، من ديوك حي المساكن، اعتاد على الصياح في تلك الساعة، ومن رائحة بخور صندل، لا أعرفُ مصدرها واعتدت أن أشمها في تلك الساعة، ومن آفات بيتي الشخصي، ثمة غطاء لحلة، دائمًا ما يسقط من رفهٍ في تلك الساعة، بلا أي سببٍ معروفٍ، وقط بلا حياء، اعتاد على ملاحقة القطط من أجل المتعة، في حوش بيتي الضيق، وأيضًا، لا تبزغ قلة حيائه إلا في الواحدة.

لم أكن أودُّ النوم، لأن النوم قد يُفسد متعة تخيلك في واحدٍ من بيوت حي البستان، عندي درس عن الزيوت الطيارة وصناعة الصابون، كان من المفترض أن ألقيه في الصباح، ولم أحضره جيدًا، لأن تحضير العلم لم يعد يستهويني، وأحس بالنشوة المعذبة، وأنا أعمل على تحضيرك من لحظة لقاء طفيفة، حدثت ذات خميس.

في أول المساء، وبعد أن انصرف كولمبس وزوجته اللاهثة من حياتي، بعد أن عربدا في عورات بيتي كعادتهما، وأخبراني بأن عفراء من المفترض أن تُنجب بعد يومين، كما أخبرها الطبيب في آخر زيارة، وكما قدر زوجها أيضًا، بعد أن خبط على بطنها عدة مرات، وتشمم رائحة جنينها الذي

هبـط إلى الحـوض أخـيرًا، فوجئـت بزيـارةٍ أخـرى مفاجئـةٍ للتائـب الجديـد، محيـي الديـن ألمـاني. والحقيقـة أننـي لُمـت نفـسي كثـيرًا حـين رأيتـه، بصحبـة جماعتـه أنفسـهم، يقـف عنـد بـابي. لقـد كان ألمـاني هـذا صديقًـا مـن نـوع الأصدقـاء الذيـن لا تشـتاق لرؤيتهـم، ولا تبحـث عنهـم إلا إذا كنـتَ سـتخبرهم بأخبـارٍ تهمهـم عرفتهـا مصادفـةً، أو تُعزيهـم في ميـت، وكـما قلـتُ، كانـت لقـاءاتي بـه متباعـدةً، ولدرجـة أننـي لم أعـرف بتخليـه عـن مهنـة الكتابـة الكذابـة، وصيـد السـائحات وارتدائـه لثيـاب الديـن، إلا حـين ذهبـتُ أنكشـه في تلـك المهمـة السـاذجة.

أنـا مـن نكشـت ألمـاني بهيئتـه الجديـدة، وأدخلتـه حيـاتي التـي كانـت ضيقـةً في المـاضي، وازدادت ضيقًـا حـين طليـت بالعشـق. ومـا كان ليدخلهـا بهـذه الصـورة، لـولا ذلـك الخطـأ.

لم أكـن أعـرف مـا يريـد هـذه المـرة أيضًـا، وقـد انتهـى خروجهـم في سـبيل اللـه، لمسـجدنا منـذ فـترةٍ، وانتقلوا لمسـجدٍ آخـر كـما أتخيـل، ولم أزرهـم بالطبـع.

لم يبـد عـلى ألمـاني ومرافقيـه، الذيـن كانـوا سـبعة، هـذه المـرة. أنهـم جـاءوا مـن أجـل جملـة هدايـة طارئـة، يرددونهـا أمـام البـاب ويذهبـون كـما حـدث في المـرة الأولى، كانـوا أقـل ثباتًـا، وطلبـوا منـي إدخالهـم بسرعـة، حالمـا فتحـت البـاب، وكانـوا يتلفتـون، ودخلـوا قبـل أن أفتـح البـاب تمامًـا، كانـت

تفـوح منهـم رائحـة ياسـمين زيتـي، ولاحظـت أن الأزهـري، قـد خضَّـب لحيتـه بالحنـاء، ويحمـل في يـده كيسًـا مـن الخيـش، وضعـه عـلى الأرض في وسـط الصالـة الضيقـة، قبـل أن يجلسـوا جميعًـا.

كنـتُ مضطربًـا يـا أسـماء، ولا أدري لمـاذا تخيلـت أن الكيـس يحـوي سـكينًا، أو سـاطورًا، وأنهـم بصـدد إراقـة دمـي لسـببٍ لا أعرفـه. فكـرتُ في لجـوئي الأبلـه لألمـاني في ذلـك اليـوم. ودلـق سري وسرك عنـده مـن دون تدقيـقٍ في وظيفـة لحيتـه البيضـاء، وصمتـه العميـق، وتحديقـه الطويـل إلى البحـر، ملغيًـا سـائحتين نظيفتـين كانتـا تجلسـان. فكـرتُ في شيء أكـثر خطـورة، أن يكونـوا رجـال أمـن، مـن فئـةٍ خاصـةٍ، وأننـي علقـت في مسـألةٍ وطنيـةٍ مـن دون أن أدري. لكـن هـل مـن الممكـن أن يكـون عشـقي رِدة واجبـة إراقـة الـدم؟ وأن تكـوني أنـت الخيانـة العظمـى التـي ربمـا يُريـدون اجتثاثهـا؟ ذلـك أننـي لم أعلـق في شيء آخـر غـير حبـك في تلـك الأيـام.

ذهبـتُ مرتبـكًا وقـد تعطلـت حاسـتي المتمكنـة تمامًـا، كأنهـا لم تُكتشـف بعـد، إلى مطبخـي الـذي تُرتبـه عفـراء اللاهثـة، كلـما أحسـتْ برغبـةٍ في ترتيـب مطبـخ، وكان مرتبًـا بالفعـل. الكـوب يبـدو كوبًـا والملعقـة ملعقـة، وبـراد الشـاي، بـرادًا للشـاي، وأكيـاس شـاي الليبتـون، موجـودة في علبـة شـفافة نظيفـة، مـن البلاسـتيك، ومـن السـهل ملاحظتهـا.

أعـددتُ شـايًا جاهـدتُ أن لا أريقـه عـلى يـدي، أو الصينيـة التـي حملتـه فيهـا وعـدت لأجدهـم قـد اتـكأوا عـلى المقاعـد، نزعـوا عمائمهـم عـن رؤوسـهم التـي بـدت كلهـا حليقـةً تمامًـا، بمـن في ذلـك رأس الصديـق ألمـاني. كان أحدهـم قـد رفـع كيـس الخيـش عـن الأرض، ابتـدأ بفتحـه، ولمحـتُ شـيئًا أبيـض لامعًـا في الداخـل، ويمكـن بـكل سـهولة، أن يكـون سـكينًا أو سـاطورًا. ارتبكـتُ أكـثر يـا أسـماء، ارتبكـت لدرجـة أن بطنـي انتفـخ، وأسـمع قرقـرة الغـازات فيـه، كأنهـا أصـوات طبـل تصـم الآذان.

أخـيرًا وبعـد رشـفةٍ طويلـةٍ مـن كـوب شـايه، تحـدث ألمـاني، وكان صوتـه أكـثر خفوتًـا مـن أي يـوم آخـر سـمعته فيـه:

– اسمع يا أستاذ!

لم يقـل اسـمي، وهـو الصديـق المفـترض، كأنـه كان سـينطق خطيئـةً، لـو قالـه.

هل تعرفين ماذا كان في كيس الخيش يا أسماء؟

لم يكـن سـاطورًا ولا سـكينًا حـادة النصـل، ولا أي أداة أخـرى مـن أدوات فعـل الأذى، مجـرد شـطائر جـبن فقـيرة، ملفوفـة بـورق القصديـر. نثروهـا عـلى الطاولـة، وابتـدأوا في التهامهـا، مـع رشـفات الشـاي. وهـم يُـصرون عـلى مشـاركتي

لهـم. لقـد خجلـت يـا أسـماء، خجلـت مـن خـوفٍ خبيـثٍ، مـا كان يجـب أن أتبعـه، خجلـتُ مـن أننـي أكرمـتُ ضيوفًـا بشـاي شـبه مُـر، وأنـا أرتعـد.

هل تعرفين، ماذا كانوا يُريدون؟

ألمـاني قالهـا صراحـةً، واسـتغفر قبلهـا وبعدهـا بمـا يُشـبه الاعتـذار.. يريـدون مكانًـا لاجتـماعٍ طـارئ، سـتظهر نتائجـه لاحقًـا. لقـد شـمت السـلطة رائحـة أفكارهـم، وابتـدأتْ بملاحقتهـم في دور العبـادة، والبيـوت التـي يتجمَّعـون فيهـا، واقتنصـتْ كثيريـن، ينتمـون إليهـم، ولم يجـدوا سـوى بيتـي، بوصفـي بعيـدًا عـن الهدايـة، وأقـرب إلى الفاسـقين، ولـن تتخيـل السـلطة أبـدًا، أن في بيتـي رجـالًا طاهريـن. تخيـلي يـا أسـماء أنـا بعيـدٌ عـن الهدايـة، وفاسـقٌ لأننـي أعشـقك، وألمـاني بـكل ماضيـه المعـروف، المُسـجل في أجسـاد السـائحات، ووسـائل الإعـلام العميـاء، الـروائي بـلا روايـة، وكاتـب ملحمـة تاجـوج الحسـناء، التـي لم تُكتـب، هـو الطاهر، الـذي يذبحني، ويعتـذر.

لقـد حـاول أن يضحـك، وكان ثمـة مسـواك أخـضر مـن سـيقان الأراك، يعـوق ضحكتـه، يجعلهـا مـشروع ضحكـة، أو بالأحـرى، يجعلهـا تكشـيرة.

مـن المفـترض أن أغـادر بيتـي الآن، كـما طلـب منـي، أذهـب إلى أي مـكانٍ أريـده، ولا أعـود إلا بعـد أربـع أو خمـس سـاعات عـلى أقـل تقديـر، ويكونـون قـد انصرفـوا.

لم يكـن ألمـاني أو مرافقـوه في حاجـةٍ إلى نظـرات مـن الجمـر، يلقونهـا عـليَّ، ولا كانـوا بحاجـةٍ إلى كلمـةٍ إضافيـةٍ، تُخـبرني بـأن ألتـزم الصمـت.

كانـت تجربتـي القديمـة مـع الدهاليـز المظلمـة، وصانـع الأذى حكيـم الـدرل، حـين فـر بخـاري، كافيـة لجعـلي أغـادر، بنفـس شـعوري الـذي أغـادر بـه يوميًّـا، وأنـا أتـرك بيتـي بـلا أحـد.

-٩-

قلتُ لزميلي شمس العلا، أو عاصم كما سمَّى نفسه مؤخرًا، تحت الضغط العاطفي، والذي كان يملك دراجةً ناريةً من ماركة "فيسبا" الألمانية العتيقة، يستخدمها في طرقٍ بعيدةٍ، يعرف تمامًا أنها لن تطأ بقدميْ خطيبته المرفهة، ذات يوم، قلتُ له: إنني أحتاجه في خدمة.

في الماضي، وقبل أن أعلق فيك، وبرغم صداقتنا الوطيدة، كانت الخدمات المتبادلة بيني وبينه، لا تتعدى أن يُغطي أحدنا الآخر في حصة درس واجبة، حين أكون أو يكون بلا مزاجٍ لإلقاء درس. أو أستعير الورنيش الأسود اللماع الذي يحتفظ به في درجه دائمًا، لتلميع حذائي المتسخ فعلًا، وكان مُصابًا بفوبيا اتساخ الأحذية، يعمل على مسح حذائه كلما كانت الفرصة سانحة، وفي أحيانٍ قليلةٍ، كان يُمسك مقصًّا موضوعًا أمامه، فجأة، يقتحم شاربي الذي لا

أعـرف كيـف أجعلـه شـاربًا محترمًـا، ويقـوم بتهذيبـه، واقتـلاع الشـعيرات البيضـاء التـي ربمـا وُجـدت عـلى حوافـه. كلانـا كان معلـمًا، وكلانـا يتقـاضى ذلـك الراتـب المُتخـاذل، لذلـك لم تكـن القـروض الماليـة، متبادلـةً بيننـا أبـدًا.

كنـا في آخـر اليـوم الـدراسي، ثمـة حصـة واحـدة تبقـت لـكل منـا، ونعـرف تمامًـا، أننـا لـن نعـثر عـلى تلاميـذ نشـطين يسـاعدوننا بالاسـتيعاب، ونسـتلف نشـاطهم لننشـط بدورنـا. أنـا شـخصيًّا لم أكـن مُتحمسًـا لتلـك الحصـة، ولا لأي حصـةٍ قادمـةٍ في أي يـوم آخـر، وقـد بـدأت قـواي الذهنيـة، تبتعـد شـيئًا فشـيئًا عـن ثقـة المعلـم وكفاءتـه، وتقـول حاسـتي المتمكنـة إننـي قريبًـا، سـأكون خـارج الخدمـة التعليميـة إلى الأبـد.

لقـد فكـرتُ كثـيرًا في مسـألة عشـقك المتشـعبة بصـورةٍ مؤسـفةٍ يـا أسـماء، فكـرت أن العشـاق ليسـوا أنماطًـا رذيلـة، متعطلـة عـن العمـل، كـما يتصـور النـاس العاديـون، هـم موظفـون في جهـةٍ مـا، الجهـة التـي لـن تمنحهـم مرتبـاتٍ شـهريةً بالطبـع، ولكـن قـد تمنحهـم رتبًـا في الشـعور لا يحلـم بهـا الجـنرالات العسـكريون أنفسـهم. وعـلى الرغـم مـن أن قصـة عشـقي، لم تتعـد الشـهرين حتـى الآن فإننـي وبمنتهـى النزاهـة، أسـتحق درجـة العاشـق الأولى، أسـتحق أن أدرج في قصائـد بنـي عُـذرة، باعتبـاري مـن سـلالتهم المعـاصرة، ولـو

عثرت على صفحةٍ فارغةٍ تخص العشاق في كتب التاريخ، سأدخلها بلا أي تدقيق.

انتهى شمس العلا، من تلميع حذائه للمرة السادسة، منذ أتى به لامعًا في الصباح، أخرج من جيبه لوحًا صغيرًا من الشوكولاتة، ماركة "جيرسي"، التي غزت المدينة مؤخرًا، من ضمن بضائع متعددة، يتاجر بها بحارة السفن، قسمه إلى نصفين، التهم نصفًا، وألقى إليَّ بالآخر، قال:

- ما هو نوع الخدمة بالتحديد؟
- أن نقوم بجولة على دراجتك النارية في حي البستان؟
- حي البستان؟

لم يكن استغراب غشيم لا يعرف حي البستان، على الرغم من أن خطيبته لا تسكنه، وتسكن حيًّا ليس أرستقراطيًا تمامًا، ولكنه شبه أرستقراطي، ويملك أهلها فيه بيتًا منذ سنوات، هو بالتأكيد استغراب يخصني شخصيًّا، بوصفي واحدًا من سكان حي المساكن الذين من المفترض أن لا يخطر البستان على ذهنهم في أي يوم من الأيام.

لم تكن ثمة لعنة أكثر من اضطراري لإخباره بأنني قد أصبح من عشاق ذلك الحي، ولم أكن مضطرًا لإخباره، لحسن الحظ، قلت له، إن أحد أقاربي العاملين في الخارج، يريد شراء بيت هناك وكلفني بإلقاء نظرة. أعجبتني

جملة إلقاء نظرة هذه، وتوقعت أن تصبح قريبًا واحدة من جُملي المفضلة. لم يقل شيئًا، تأكد من نظافة حذائه، والتقط مفاتيح دراجته، ولم ينس أن يُخبر ضابط المدرسة أن درسي ودرسه قد ألغيا لعذرٍ طارئ، ويمكن أن ينصرف التلاميذ.

تحركنا من المدرسة، شمس العلا يقود دراجته وأنا أجلس متشبثًا بظهره في الخلف، في وضعٍ لا يسمح لي بالتفكير في الحب، وكنتُ أفكر برغم ذلك. في وضعٍ سينتقص كثيرًا من مكانتي كمعلم لو صادفني أحد من معارفي أو ولي لأمر تلميذ، ولم أكترث، فلن أعود معلمًا في وقتٍ قريبٍ، كما ذكرت.

كان شمس العلا أصغر مني بعَقدٍ وأقدر مني في استيفاء شروط راكبي الدراجات النارية، ولا يُوحي بجسده الهزيل ونظارة الشمس العاكسة على عينيْه، بأنه صاحب وظيفة مقيدة، ولو قال لأحد بأنه صبي حدادة عند ألبيرت راجي القبطي أو بائع التذاكر في شباك سينما الشعب، لصدقه. وحين كان يشارك بآرائه الجريئة عن تحرير التعليم من قبضة النصوص الشعرية الكئيبة التي تملأ كتب اللغة العربية في اجتماع المدرسة الشهري كنتُ أرى ابتسامات أساتذة تلك النصوص وقد اتسعت، ويأتي العام القادم لنجد نصوصًا أشد كآبة قد أُضيفت. ولا

أنـسى حـين كنـا نتمـشى عـلى أقدامنـا ذات يـوم، في شـارع الـدولارات، كـما يُسـميه أهـل المدينـة، والذي يتوسـط السـوق الكبـير، أشـار إلى تلـك الدكاكـين المتراصـة لتجـار العملـة الذيـن يُتاجـرون فيهـا سرًّا ويعرضـون سـلعًا متنوعـة في العلـن. وقـال بحقـدٍ:

– مـا نفعهـم للمجتمـع، هـؤلاء الجهلـة الأثريـاء؟ مـا دورهـم في التنميـة؟ هـم وتجـار الماشـية وغيرهـم مـن الهامشـيين الذيـن اغتنـوا بـلا كـد؟.. قُـل لي مـا دورهـم؟.. أتمنـى حقيقـة لـو ماتـوا جميعًـا.

كانـت المـرة الأولى التـي أسـمعه فيهـا يتحـدث بتلـك التعاسـة وذلـك الغـل الـذي لا بـد كان يملـؤه وأراد أن يدلـق شـيئًا منـه عـلى الطريـق.

اجتزنـا الطـرق المزدحمـة، كان الجـو مشـبعًا بالرطوبـة، ثمـة حـر خفيـف، في بدايـة غضبـات صيـف المدينـة السـاحلية، وأيضًـا نسـمة رقيقـة، تشـبهك يـا أسـماء، تتمـشى جيئـةً وذهابًـا في شـوارع الحـرارة، لم يُصادفنـا أحـدٌ نعرفـه، ولا تمنينـا ذلـك بالطبـع، وحـين عبرنـا الجسـر القديـم المـؤدي إلى حـي البسـتان بـدأت أرتبـك، خفـتُ أن أجـدك مبـاشرةً في أول منعطـف، وبـلا أي مجهـود أو دقـات قلـب إضافيـة، وتضيـع لـذة أن أشـقى في استكشـاف بسـتان أنـت فيـه زهـرة الزهـرات.

كان الحي عامرًا بالخامات كما أسميها، عناصر كيمياء الجمال التي تتفاعل في مختبراتٍ مدهشةٍ، لتنتج أجيالًا رائعة. البيوت ليست كلها مكتملة ومزينة، كانت ثمة بيوت لا تزال تحت التشييد وبيوت تبدو قد شاخت وتساقط منها الطلاء، لكن إجمالًا كان الحي يُشبهك جدًّا وأنت من سكانه، هذا شيء لا شك فيه على الإطلاق.

كان شمس العلا يقودُ ببطءٍ ورزانةٍ كما طلبتُ منه، وعيناي تُلاحقان محتويات الحي وترصدانها، أدخلك ذلك البيت المصمم بروعةٍ في شكل قوس قزح، بغتة، أخرجك من آخر أكثر جمالًا، أجعلك تشترين من تلك البقالة الشبعة، التي لا تُشبه دكاكين حي المساكن المُهدمة والخالية من السلع، تصففين شعرك عند كوافير (نجود) الذي شاهدته لوحة في وسط الحي، وتخيطين الثياب عند مصمم، قطعًا سأصادفه الآن، في أحد الشوارع...

فجأةً خطرت لي فكرةٌ ملعونةٌ، وتمنيتُ لو استطعت أن أنفذها ذات يوم.. لن أخبرك الآن يا أسماء، أسمع شمس العلا يتثاءب، وإخاله مثلي بالكاد يحصل على عدة ساعات، يقضيها نائمًا.. لا، شمس العلا ليس مثلي، ولن يكون كذلك في أي يوم. هو ليس عاشقًا كلاسيكيًّا تُضنيه الأيام بهذه الضراوة كما تفعل معي. لم يكن يملك طيفًا، ويملك روحًا حيةً ترتقي به شيئًا فشيئًا وتغير

اسمه إلى عاصم. ليت معضلتي كانت معضلة اسم كما أكرر كلما تذكرت شمس العلا، قبل أن يرضخ. كانت ستكون لا معضلة على الإطلاق.

كأني رأيتك تعبرين أمامنا فجأة، وارتبك القلب أكثر. لا لست أنت، التي عبرت إحدى الزهرات، لكنها ليست زهرتي.

وإمعانًا مني في تضليل شمس العلا، المتورط في تلك الجولة النهارية، معتقدًا أنها جولة بحث عن بيتٍ كما أخبرته، طلبتُ منه أن يتوقف أمام بيتٍ أصفر داكنٍ من طابقين، كُتب على لافتة من الحديد بجواره، وبأحمر غليظ متعرج: المنزل للبيع.

كان يبدو جديدًا، وفي وسط الحي تقريبًا، ويطل على ميدانٍ واسعٍ، ما زال قاحلًا، لم تغزه الزهور بعد. دخلنا بباب مفتوح، من دون أن نطرق. وعثرنا على صالةٍ عاريةٍ من كل شيء، ما عدا لوحةٍ لافتةٍ للنظر، على أحد جدرانها، تمثل رسمًا كاريكاتوريًّا لميكي ماوس، إحدى شخصيات قصص الأطفال الشهيرة. وتنتهي بدرجٍ أنيقٍ من الخشب البني يقود إلى الطابق الثاني.

وقفتُ أتأمل المكان بعينٍ جعلتها تبدو فاحصةً، بينما شمس العلا منحنيًا على الأرض، يمسح حذاءه بخرقةٍ نظيفةٍ أخرجها من جيبه. سمعتُ أصوات خطواتٍ خفيفةٍ

تهبط على الدرج، وفوجئتُ بامرأةٍ مليحةٍ في أواسط العمر، تُرحب بنا بصوتٍ غايةٍ في الظرف. كانت ترتدي ثوبًا أبيض، مطرزًا بنقوشٍ خضراء، وقد بدا وجهها مألوفًا لديَّ، لكني لم أتذكر أبدًا أين رأيته، وكما تعرفين وأذكرك دائمًا أنني لم أكن في يومٍ ما حليفًا لوجوه النساء، أتأملها وأنحتها على ذاكرتي وأستعيدها متى ما شئت، ثم لتظهرين فجأة، وتصبحين المحاة التي محت ماضيَّ، وهذه المرأة لا أظنها من الوجوه التي أعقبت غسلي وتنظيفي وتصنيعي عاشقًا، وإلا لتذكرتها على الفور.

لم يكن ثمة حرجٌ أبدًا بيني وبين المرأة المبتسمة، والبيت معروضٌ للبيع، وبابه مُشرع، وأسمع من ورائي خطواتٍ أخرى لزبائن جددٍ، كما يبدو، جاءوا يستفسرون، وكان شمس العلا قد اختفى بمجرد ظهور المرأة، وأكيد ينتظرني على ظهر دراجته في الخارج.

سألتُ المرأة، وكان الزبائن الجدد، وهم أسرة صغيرة، قدانضموا إلينا، ووقفوا ينتظرون الإجابة:

– كم تريدون سعرًا للبيت؟

بدت في غاية الجدية، وهي تذكر رقمًا لم أسمع به شخصيًّا من قبل ولا ظننتُ أنني سأسمعُ به في يومٍ من الأيام. هذه مضاعفات حبك يا أسماء، أن تأتي الصدماتُ متتابعةً، والرقم الذي لا يُمكن حسابه في ذهني كان من

الصدمـات العنيفـة. لم يكـن ثمـة أخـذ ورد، ولا أي محاولـةٍ للوصـول إلى اتفـاق، كـما هـو الحـال في تلـك المواقـف، لأن الأخـذ والـرد نفسـه، لا أظنـه فصـل لأسـعار كهـذه.

شـاهدت المـرأة تلهـث فجـأة، تُخـرج مـن حقيبـة صغـيرة، كانـت تحملهـا، بخاخًـا أزرق اللـون يُسـتخدم في عـلاج أزمـات الربـو، تضعـه عـلى فمهـا، تستنشـق بختـين وتسـأل بعـد أن هـدأ تنفسـها:

– هـل سـتأخذ جولـة في البيـت، قبـل أن نتناقـش في السـعر؟

كانـت تسـألني وحـدي، لأن الأسرة الصغـيرة انصرفـت حالمـا سـمع أفرادهـا بالسـعر، واعتـبرت سـؤالها طيبًـا للغايـة، وخاليًـا مـن سـوء الظـن، ولـو تأملتنـي قليـلًا، لـرأت تباريـح حـي المسـاكن، مرسـومة عـلى وجهـي، ولـو وسَّـعت شـمها أكـثر، لشـمَّت رائحتـه النفـاذة، تنبعـثُ مـن جلـدي، وأعضـاء جسـمي كلهـا. لـن آخـذ جولـةً بالطبـع إلا إذا أخبرتنـي أنـك مزينـة ومعطـرة بالطابـق الثـاني وتنتظرينـني.

ابتسـمتُ وكانـت ابتسـامةً راعيـت فيهـا أن تُشـبه ابتسـامة شـارٍ حقيقـي، تماشـيًا مـع حسـن ظنهـا. قلـتُ:

– فيما بعد أختي الفاضلة، حين أحضر أسرتي.

– لا تتأخر إذن! هناك كثيرون شاهدوا المنزل ويودون الشراء.

قالت، وأدارت ظهرها باتجاه الدرج، وأيضًا كان ظهرًا مألوفًا لديَّ، أقسم أنني شاهدته من قبل، ولكن لا أستطيع التذكر.

ئهدأ الآن، لقد دخل الحي في قيلولةٍ، وهذه أيضًا من صفات الأحياء الراقية، أن تدخل قيلولتك مطمئنًا، من دون تفكير أن شيئًا ما سيلغيها، كما يحدث في حي المساكن وأشباهه من أحياء الرذالة وثقل الدم، القيلولة عندنا ليست ملكًا لصاحبها كي يُنفقها كما يشاء، ولكن ملكًا حتى لنملةٍ حقيرةٍ حين تقرص أحدهم ويطرق بابك طالبًا إصبع معجون للأسنان يضعه على مكان الوخز.

قلتُ لشمس العلا، إن البيت لا يصلح لقريبي وبعيد تمامًا عن مواصفاته، وسأبحث في وقتٍ آخر حتى لا نتأخر.

في رحلة العودة، وأنا ما أزال أرج البيوت بنظراتي، خُيل إليَّ أيضًا أنني رأيتك، خُيل لي مرةً ثانية وثالثة ورابعة، وكانت بالطبع خيالاتٍ أوقدها التفكير المستمر.

وأنا في بيتي، يُمزق تأملاتي صراخ جعفر، الابن الوليد لفاروق كولمبس، وعفراء اللاهثة، وقد جاء إلى الحياة، منذ يومين فقط، وذهبتُ لمباركته، حاملًا علبة حلوى رخيصةً،

أخـذت أسـتعيد تفاصيـل حـي البسـتان في ذهنـي، أقرنهـا بتفاصيـل أكـثر إبداعًـا، أعـرفُ أنهـا موجـودةٌ بداخلـه. وفي اللحظـة التـي بـدأتْ تتشـكل فيهـا حيـاةٌ منطقيـةٌ سأمسـك بهـا، وجـدتُ كولمبـس يقـف عنـد رأسي مجسـدًا مـا قلتـه قبـل قليـل، بـأن قيلـولات حـي المسـاكن لا يملكهـا أصحابهـا، ولـن يملكوهـا في أي يـومٍ مـن الأيـام. لم يكـن ثمـة خطـب ألمَّ بـه أو بزوجتـه أو الطفـل الوليـد، ولا ثمـة خطـبٌ ألمَّ بأحـدٍ في الحـي كلـه. إنهـا عـادة فـاروق التـي اكتسـبها منـذ عرفـتْ عفـراء طريـق بيتـي والتنـزه يوميًّـا في عوراتـه. أن يقـضي سـاعات العـصر عنـدي، يلـف البانجـو عـلى ورقٍ شـفافٍ، ويضحـك كلـما شـاهد ضبًّـا يزحـفُ عـلى سـقف الغرفـة، أو ذبابـة تسـقط في فـخ عنكبـوت.

طلبـتُ منـه بصرامـة، وأحسُّـك تُشـاركينني اسـتيائي، أن يعـود إلى بيتـه، يبـدو والـدًا حديـث الأبـوة ويسـهم في ضـخ العطـف للصغـير، وتحضـير حليـب الأطفـال. رد وأبخـرة ضـارة، تتصاعـد مـن فمـه وأنفـه، تعقبهـا ضحكـةٌ انفلتـت فجـأة حـين عـبر صرصـور صالـة الغرفـة، وتصاعـد بـكاء الصغـير أكـثر:

– جعفر نائم.

– مَن الذي يصرخ في بيتك إذن؟

– عفراء.

ضحك بسخاء، ضحك حتى خِلته سيفقد وعيه في تلك اللحظة، كان يتقلب على السرير ويضحك، يقوم ويجلس ويضحك. وحين انتهى، ومسح دموع الضحك، بكُمِّ قميصه البيتي المتسخ، وأعاد إشعال السيجارة التي انطفأت، كان المغرب قد أتى، ثمة صوت لأذان يأتي من مسجد الحي، ثمة فرقعة كبيرة، لا بد لإطار شاحنة تمزق في الطريق. ولأن كولمبس أجَّل لقاءاته في ركن محاضرات الحياة، بمناسبة أبوته الجديدة، وأيضًا لأن عفراء نجحت كما أخبرني قبل ولادتها مباشرةً، في تشويش عقله، وجعله يتلعثم كثيرًا وهو يُلقي محاضراته، كانت جلسته في بيتي، ستمتد حتمًا إلى وقتٍ بعيدٍ، وخفتُ بشدة، أن يعتبر بيتي بيته، ويأتي لينام، فرارًا من صراخ الطفل. تلك الساعة، لن يكون ثمة تهاون، وأحب أرقي أن يكون أرقًا مُشعًّا صافيًا، أنت ملكته، وليس شخير عجوز مخدر الأعصاب.

في الثالثة صباحًا، وأنا على سريري، أكتب وأمحو، وأزيد وأحذف، وأخترع الحقائق، بكل صدقٍ وإيمانٍ، تذكرت المرأة صاحبة البيت الأصفر المعروض للبيع. وكانت مفاجأة.

لم أصدق أبدًا أنني كنتُ أمام حبلٍ تدلى أمامي لعدة دقائق ولم أتعلق به. لعنت ذاكرتي، وما كان لي أن ألعنها، وسأعتذر لها، لأنك إحدى مكوناتها.

هل تعلمين من كانت يا أسماء؟

إنها المرأة التي كانت تبحث عنك بشدة يوم العرس، المرأة التي أضاعتك كما أضعتك، لكن ومع كل ذلك فقد عثرت على المفتاح بعيدًا عن صور عبد القادر الخالية من أي نكهة، وازدراء أخته المراهقة المسكينة، وفتاة عنتر وإخوانه، وألماني المهووس، الذي أدخلته حياتي، وهو لا يُشبه تلك الحياة بأي حالٍ من الأحوال، وكل تلك الفظائع التي رافقت تعلقي بك، منذ حدث وحتى اليوم. أقصى ما أتمناه الآن، أن تشرق الشمس بأسرع مما اعتادت عليه، أن يصحو سائقو حافلات حي المساكن أبكر قليلًا، وأكون في حي البستان، أشاهد صحو المترفين، وأدق باب المرأة، لأسأل.

ظهر الأمس، أخبرتها بأني سآتي برفقة أسرتي، لنشاهد البيت معًا، ولا أدري ماذا أقول لها حين أعودُ وحدي بلا أي أسرة!

تركتُ الأمر لأقدار الصباح، تُصيِّره كيف شاءت، وغفوتُ، تلك الغفوة التي اعتدت عليها منذ أن عرفتك. غفوة المقاتل في حرب.

-١٠-

حوالي السابعة والنصف صباحًا، وبمجرد أن انتهى طابور الصباح، الذي رُدد فيه نشيد ″جند الوطن″ الرمزي، وجُلد فيه عدة تلاميذ لم يلتزموا بقوانين الزي الرسمي، أو شوهدوا في أماكن ينبغي ألَّا يُشاهد فيها تلميذ، مثل شارع معهد إيفرست، أو كافتيريا مراحب، عند البحر، حيث كان يجلس ألماني في السابق، كنت أقفُ أمام مدير المدرسة الجديد، الذي خلف مديرنا القديم، بعد أن عُين وكيلًا لوزارة التعليم.

لم يكن المدير الجديد، قويًّا وواسع الحيلة كسابقهِ، ولم يكن صوته من ذلك النوع الذي أزعم أنه يُفصَّل للمديرين، وحكام الدول وزعماء القبائل المستقبليين بمجرد ولادتهم، وكانت يده اليمنى دائمًا مشغولة، إما بكتابة شيء على الورق أو البحث عن شيء في أحد جيوبه، أو في سياحة

بلا معنى على الرأس الأشيب غزير الشعر. منذ أن استلم وظيفته وأعرفُ أنه لا يُحبني، وخلته يقصدني شخصيًّا ولا أدري لماذا، حين ذكر في أول اجتماع شهري يعقده لنا، بأن هناك معلمين في هذه المدرسة بحاجة إلى إعادتهم طلابًا في المدرسة الابتدائية. حرَّضني شمس العلا، وحرَّضته أيضًا، وقررنا تحريض زملائنا الآخرين، على كتابة عريضة إلى إدارة التعليم نُطالب فيها بتغييره، لكن ذلك التحريض ما لبث أن مات في صدورنا جميعًا حين تذكرنا الحياة بلا دخلٍ، حتى لو كان ذلك الراتب المتخاذل الغبي، الذي نحصل عليه كل شهر.

قلتُ: صباح الخير سيدي.

وتوقعتُ صباح نور روتينيًّا يخرج من فمه، كما يحدث عند الناس كلهم، لكن المدير ردد ويده لا تزال مشغولةً بالبحث عن شيء ما في أحد الأدراج المفتوحة على طاولته:

- من المفترض أن تكون في الصف الآن.
- نعم ولكني لا أستطيع التدريس اليوم.

لأول مرة، بحسب علمي، توقف الرجل عن إشغال يده اليمنى وألقاها خامدةً على الطاولة، ألقى ببصره كله عليَّ، وتنبهت إلى أنه اكتشف خللًا ما يخصني، لأن

عينيه ضاقتا فجأةً، وحاجباه ارتفعا قليلًا عن موضعهما. نهض من مقعده، التقط نظارته، وتحاوم حولي، وكان من الواضح أنه يتشمم الهواء المُحيط بوقفتي، يبحث عن رائحة الخلل التي ستكون إن وجدها كما يتوقع، رائحة خمر بلدي قوي من إنتاج حي الصهاريج المُتسخ، لكنه لم يعثر على شيء بالطبع، وعاد إلى مقعده وما زال بصره يشملني، وأشفقتُ من خيبته وكدتُ أُخبره صراحةً، أنني سكران بامرأةٍ، سكران بأسماء، وذلك الخلل الذي يبحث عنه، موجود في القلب.

طلبتُ ذلك اليوم إجازة عارضة، من دون أن أوضح السبب، ومنحني إياها المدير بلا تردد، وألمح وأنا خارج من مكتبه، يده اليمنى قد عادت إلى الانشغال، تكتب شيئًا على الورق، وأعرف تمامًا ماذا كانت تدون: لون عيني الأحمر، قميصي الذي أرتديه بلا كي، ترنحي الواضح وأنا أقفُ أمامه، إنها علامات سُكر الخمر التي يعرفها الجميع، ولكنهم لا يعرفون بأنها علامات سكر آخر، من خمر العشق، وأنني أدمنته، حدَّ عدم القدرة على الثبات، لكن شكوك المدير أيضًا، لم تكن بلا فائدةٍ، فقد نبهتني وفي لحظةٍ فارقةٍ بأنني كان من الممكن أن أفسد كل شيء لو ذهبت لصاحبة البيت المعروض للبيع في حي البستان وأنا بهذا الشكل، كانت ستعتبرني متسولًا، ستكتشف أنني غير أهل للتفاوض، وربما سلمتني للشرطة بتهمة إزعاجها.

ركبتُ أول حافلةٍ متجهةٍ إلى حي المساكن، وكانت شبه خالية في وقتٍ ينزحُ فيه السكان من الحي إلى وسط المدينة، وليس العكس. دخلتُ بيتي وأسمع صراخ جعفر، يتمدد في الشقاء، مضيفًا إليه ما استطاع، وعفراء أيضًا، تصرخ مُحاولة أن تُطفئ صراخ الطفل، وفاروق لم يكن موجودًا ليضحك، لأنه ذهب إلى عمله بكل تأكيد.

في خزانتي الخشبية القديمة، عثرتُ على ملابس مناسبةٍ، فقط عتقتها رائحة "النفتالين" المعتمدة رسميًا لدى أهل الوطن جميعهم، في حفظ الثياب بلا عثةٍ، فردتها وتأكدت بأنها مناسبةٌ للتسول الراقي وارتديتها بعد أن رششتُ عليها عطرًا رخيصًا أملكه، حتى أطرد قليلًا من رائحة النفتالين النفاذة، وحين خرجتُ أخيرًا، وركبتُ حافلة العودة إلى مركز المدينة، لأبحث عن سائق أجرة يقلني إلى حي البستان، كنتُ حريصًا جدًّا أن لا يجلس بجانبي من يمكنه أن يفتك بأناقتي، مثل متسول أجرب، أو امرأة عجوز على شفتها سفة من التنباك. كانت الساعة قد اقتربت من العاشرة، حين ألقتني عربة الأجرة التي ركبتها من وسط المدينة في حي البستان، أمام البناء الأصفر المعروض للبيع، وأسمع سائقها طوال الطريق يثرثر بلا توقف ويتحدث عن أحقيته بالترشح لنقابة سائقي عربات الأجرة، ويأبى الزملاء ترشيحه بسبب الحسد، وألتفت مذعورًا، لأجد السائق بعيدًا تمامًا عن أوصاف

سابقيْه اللذيْن ركبتُ معهما من قبل، وتحدثا عن نفس الموضوع.

أول ما طعن قلبي وأدماه حقيقة وأنا أتأمل البناء الجميل، هو أن الباب الخارجي المشرع من قبل، كان مُغلقًا، تلفتُّ في هلعٍ، ولم تكن لافتة البيع موجودة، ركضت إلى الباب وطرقته عشرات المرات، ولم يفتح أحدٌ.

ماذا حدث؟ ماذا حدث؟

أخذتُ أسألُ نفسي ولا أجد إجابةً.

كان الطريق ممتلئًا بالخامات، خامات مبتسمة، خامات ضاحكة، خامات تحمل حقائب من الجلد، وتمشي كغزلان، مشيتُ في الشارع بخطواتٍ متعثرةٍ، وعثرتُ على خياطٍ نسائي اسمه "الرونق"، وروضة للأطفال، اسمها روضة "هناء"، لا تشبه تلك التي يملكها القبطي قدسي، والتقط منها مريا البيضاء، ومبنى واسع من عدة طوابق، مكتوب عليه بشقاوة، "حمى ليلة السبت"، وتذكرت أنه عنوان لفيلم سينمائي راقص، قام بأدائه "جون ترافولتا"، واشتهر بشدة في تلك الأيام، بعد أن عُرض بسينما المدينة، وحوَّل كثيرًا من الشباب إلى راقصين في الشوارع..

تلفت بلا هدفٍ، وشاهدتُ رجلين بثياب الشرطة الزرقاء، يهبطان فجأة من عربة، ويُمسكان بفتاةٍ إثيوبيةٍ

كـما بـدا لي، ولعلهـا خادمـة. لم تكـن تُشـبه حـي البسـتان، وكانـت مُتسـخة الثيـاب وتبـكي، وهـما يجرانهـا ويُدخلانهـا العربـة، والطريـق بـلا أي فضـول، يمـضي في مسـاره الطبيعـي.

لـو حـدث ذلـك في حـي المسـاكن، لتعطلـت الأرجـل المـارة كلهـا وتوقفـت العربـات، وتطلعـت العيـون والألسـن، تسـأل عـما حـدث، ولتـمَّ اخـتراع الحكايـات المدهشـة عـن امـرأة سـترتدي مئـة صفـة. بعضهـم يحـكي عـن أنهـا سـارقة، بعضهـم عـن كونهـا فاجـرة، وربمـا وُصفـت بالعمالـة لـدى دولـة أجنبيـة.

في لحظـةٍ مـا، أظنهـا لحظـة غيبوبـة طارئـة، سـمعتُ مَـن يُكلمنـي، وانتبهـت. وكان لدهشـتي الشـديدة، ألبـيرت راجـي الحـداد، أخـو مريـا البيضـاء التـي مـا عـادت ذائبـة ولا مكـسرة في الطريـق، وقـد خُطبـت مؤخـرًا لقـدسي قرياقـوس.

لم يكـن مندهشًـا كـما كنـتُ أتوقـع، ولم يسـألني حتـى عـن سـبب وجـودي في ذلـك المـكان غـير المألـوف، كـما قـد يفعـل مواطـنٌ أصـلي مـن حـي المسـاكن، وأخـبرني بكلـماتٍ سريعـةٍ لاهثـةٍ، وأشـم رائحـة التبـغ تُحاصره مـن كل صـوْب، إن الصهـر المسـتقبلي قرياقـوس، قـد أوجـد لـه بعلاقاتـه الواسـعة في الدنيـا، مقاولـة جيـدة هنـا في البسـتان، وسـيقوم بتنفيـذ الأبـواب والنوافـذ لأحـد البيـوت حديثـة البنـاء. لم تكـن تهمنـي ثرثرتـه في تلـك اللحظـة، وأكاد لا أسـتمع إليـه

جيـدًا، بـل وأكاد ألعنـه وألعـن صهـره، والأخـت الذائبـة في الشـوارع بـلا عظـم ولا غضاريـف. لم يبـد عـلى الحـداد، أنـه كان يحـس بتفاعـلاتي، أو يلمـح أصابعـي التـي كانـت تتحـرك بالقشـعريرة، وتحـدث عـن رغبـة أختـه في تـرك حـي المسـاكن نهائيًّـا والانتقـال لحـي آخـر يليـق بمكانتهـا وسـتقنع زوجهـا بوجهـة النظـر تلـك، حـين يتـم انتقالهـا إليـه. والحقيقـة لم أفهـم مـا هـي تلـك المكانـة، وأعـرف أن آل راجـي، كانـوا مـن طبقـة أقبـاط شـعبيين، لم تعـرف الـثروة طريقهـا إليهـم أبـدًا. هـي ورشـة الحـدادة الموروثـة، التـي يعمـل فيهـا الأخ ويحصـل عـلى رزقـه منهـا بمشـقةٍ، وعاصفـة رقـة عنـد الأخـت، ربمـا ظنتهـا مكانـة. وفي اللحظـة التـي بـدا أنـه غـادرني فيهـا مُفسـحًا المجـال لشـقائي الخـاص، عـاد ليداهمنـي مجـددًا، ويسـألني إن كنـتُ قـد سـمعت بالأخبـار الجديـدة.

تعرفـين يـا أسـماء بأننـي لم أعـد مُتسـقطًا لأي خـبرٍ إلا إن كان سيرسـمك أنـت، لا خـبر إلا مـا يجعلـك تطلـين مـن أي ناصيـةٍ مـن تلـك النـواصي الممتلئـة بالخامـات إلا خامتـك، أي حديقـة داخـل بسـتان أقـف فيـه ولا أحـس بتغريـد طيـوره.

مـاذا سـيُخبرني الحـداد؟.. أحدُهـم قتـل أحدَهـم؟ أسـعار الحديـد ارتفعـت فجـأة؟ دفنـوا نفايـات ذريـة في إحـدى القـرى؟ رئيـس الـوزراء التـوى عنقـه وأصيـب بالشـلل؟ اكتشـفوا النفـط في إحـدى صحـارى البـلاد القاحلـة؟ لا

شيء يعنيني، ولا أستطيع أن أخبره بأنني لا أود سماع أي خبر. يعتبرني من وجهاء حي المساكن، برغم خلوي من أي وجاهة، ولولا تلك الصفة التي يخصني بها، لما كان كولمبس حيًّا حتى الآن.

– اكتشفوا جماعة من المتطرفين التكفيريين، كانوا يُخططون لمحاربة السلطة، وقتل الناس باعتبارهم ضالين، وسمعت بأنهم كانوا يجتمعون في بيتٍ بحي المساكن، لكني لا أعرف أي بيت.

سأقول لك يا أسماء، وأنا خجلٌ من نفسي ومنك، ومن عشاق بني "عذرة"، أسلافي في الشقاء، بأنك طرت في تلك اللحظة من ذاكرتي وحاستي المتمكنة، وأصبح من العسير أن أبقيك. طار ليل الخميس المختلف الذي أوقدك بداخلي، وطارت المرأة صاحبة البيت المعروض للبيع وطار بيتها، وحي البستان كله، وأصبحت الذاكرة فجأة، مسرحًا لقوى الأمن الوطني، تحتل بيوتها كلها، وتشنق على أبوابها، محيي الدين ألماني وجماعته.

لن يكون ثمة متطرفون تكفيريون اجتمعوا في بيت بحي المساكن غير ألماني وجماعته، الذين اجتمعوا في بيتي، ذلك المساء غصبًا عني. يا إلهي.

أوسعتُ جسدي ثباتًا كي لا أسقط أمام الحداد، وناديت عليَّ ابتسامة عصية، باهتة، ابتسمت بها أمامه، وقلتُ

لـه بسرعـةٍ قبـل أن تفـر حتـى تلـك الابتسـامة الباهتـة: "إن حـي المسـاكن لا يُمكـن أن يحتفـي بفئـةٍ ضالـةٍ يـا أخـي، وأنـا شـخصيًّا أعرفـه أكـثر مـن أي أحـد آخـر، بوصفـي مـن سـكانه الأصليـين"، ثـم فـررت مـن أمامـه بسرعـةٍ، وأبحـث عـن سـيارة للأجـرة، أنكمـش داخلهـا.

لم أكـن أسـتطيع الذهـاب إلى حـي المسـاكن، ولا حتـى مجـرد تشـممه مـن بعيـدٍ، والتأكـد مـن كلام ألبـيرت الحـداد، ولا وجـدتُ بداخـل الخيـارات الضئيلـة، التـي أخـذت تتقافـز إلى ذهنـي، وتزاحـم الرعـب الـذي يسـكنه، طريقًـا واحـدًا حتـى لـو كان مليئًـا بالحفـر، كي أسـلكه.

ذلـك الاجتـماع الوحيـد الـذي جـرى في بيتـي بواسـطة ألمـاني ورفاقـه في ذلـك المسـاء أصبـح اجتماعـاتٍ فجـأة، وليـس بمسـتبعد أبـدًا أن تُـزرع لي داخـل السراديـب المظلمـة لحيـة تُشـبه لحـى ألمـاني وجماعتـه، وأسـمى متطرفًـا تكفيريًّـا، ولـن أخمـن مـا سـيحدث بعـد ذلـك.

في داخـل الخيـارات التـي تُومـض وتختفـي، جـاء منـزل عبـد القـادر الـذي اسـتأجره في وسـط المدينـة، وكنـتُ سـخيفًا في طرْقـي لـه مـن أجـل الصـور، منـزل أهلـه في الحـي الطـرفي البعيـد، المدرسـة التـي أعمـل بهـا، المستشـفى عنـد فـاروق كولمبـس، بيـت شـمس العـلا، في حـي "مايـو" الأفضـل قليـلًا مـن حـي المسـاكن، وحـين أعـدتُ تلـك الخيـارات جميعهـا

ورتبتها باضطرابٍ وأنا في سيارة للأجرة، يتحدث سائقها عن أحقيته برئاسة نقابة سائقي عربات الأجرة، ولا أسمعه جيدًا، وجدتها جميعًا خيارات بلا طعم، خيارات مضروبة.

بيت عبد القادر لن أستطيع دخوله، لعدة أسباب، منها أن قريبي الآن في عمله، وأيضًا لأن ذلك قد يؤدي إلى طلاقه، وهو لا يزال في أشهر العسل الأولى. منزل أهله، لا أستطيع وداخله مراهقة فرَّت وعادت مُكرهة، ولا بد بأنهم يشوونها الآن، بعيدًا عن الغرباء، المستشفى، سهل اكتشافي فيه، المدرسة، هي المكان الأفضل لاقتناصي، ولا بد قد امتلأت الآن بكل الذنوب التي تسعى لتركبني. بيت شمس العلا لا أعرفه، ولم يسبق أن ذهبتُ إليه. هو من يأتي إليَّ دائمًا، لسبب اقتصادي بحت، هو أنه يملك دراجة نارية.

ماذا بعد؟..

تذكرتُ أصدقاء أبي كلهم، الذين رحلوا منهم، والذين لا يزالون أحياء. صديقات أمي كلهن، بعض المتسولين الذين عبروا بحياتي، تذكرتُ حي الصهاريج الذي لم أدخله في حياتي إلا نادرًا وأقلعتُ حتى عن ذلك النادر بعد أن كبرت، تذكرتُ القبور التي تحوي أمواتي، تذكرتُ بخاري وهو يلتقط حقيبةً باليةً، يحشوها بالتوافه ويفر، وتلك

الأيـام التـي قضيتُهـا داخـل سردابٍ مُظلـمٍ خرجـتُ منـه محطـمًا. وسـائق العربـة، توقـف فجـأةً عـلى ناصيـة الطريـق، وسـألني:

– إلى أين في وسط البلد يا أخ؟ لم تُخبرني بوجهتك!

ولأني لا أعـرفُ حقيقـةً يـا أسـماء إلى أيـن أمـضي، تلفـتُّ حـولي، وكانـت مفاجـأتي عظيمـة، قاتلـةً، حـين وجدتـه قـد توقـف بالضبـط أمـام مبنـى أبيـض مـن أربعـة طوابـق، بـلا لافتـة دالـة، وأعرفـه جيـدًا. كان مبنـى جهـاز الأمـن الوطنـي.

لم أكـن أملـك وقتًـا أتصفـح فيـه سـائق العربـة، وأشـغل حاسـتي المتمكنـة في شـأنه، لأعـرف إن كان مجنـدًا أمنيًّـا أم لا؟ هـي عـدة ثـوانٍ، ارتعـدتُ فيهـا رعـدتي كاملـة وأخرجـت الأجـرة مـن جيبـي، ألقيتهـا لـه وهبطـتُ، وأكاد أحتـكُّ بصـفٍّ مـن التعسـاء خرجـوا مـن داخـل المبنـى في تلـك اللحظـة يتبعهـم أفـرادٌ خشـنون بملابـس مدنيـة. كان مـا أرعبنـي فعـلًا أنهـم كانـوا جميعًـا بلحـى غزيـرةٍ، تُشـبه لحيـة الصديـق ألمـاني. ولا أسـتطيع أن أجـزم إن كان هـو أو أحـد رفاقـه الذيـن أتـوا إلى بيتـي، كانـوا موجوديـن بـين أولئـك التعسـاء أم لا، لأننـي كنـتُ أبـصر ضبابًـا.

أسرعـتُ بالابتعـاد محـاولًا أن لا ألتفـت، وخضـتُ في مـاء راكـدٍ أسـود وأنـا أعـبر، ووصلـتُ إلى مبنـى هـواة الشـطرنج القريـب مـن المـكان وأنـا ألهـثُ ودخلتـه بـلا تفكـيرٍ، لأجـد

نفسي في صالة أضيق من صالة بيتي، محاطة بصفٍّ من الغرف، في أحد أركانها طاولة صغيرة جلس عليها رجلٌ في أواسط العمر، مدجج بالأوسمة والميداليات.

كنتُ أعرفُ ذلك الرجل يا أسماء، أعرفه لأن لا أحد في المدينة، حتى لو كان من سكان أحد أحيائها البعيدة، لا يعرف "قريشي" الذي لم يكن أحد أبطال لعبة الشطرنج المعروفين قط، ولا يعرف أصلًا كيف تفتح رقعة اللعب المطوية، كيف يتحرك جندي، أو يقفز الحصان ويقتل الوزير، ملكًا متوجًا، وكل علاقته باللعبة هي أنه مجنون، أوهمه الجنون بأنه بطلٌ عالمي، وبالتالي قام بتصنيع أوسمته بنفسه، ويأتي كل يوم من الصباح، يجلس على تلك الطاولة، ينتظر المعجبين الذين سيأتون، ليحصلوا على توقيعه.

لم تكن ورطةً كبيرةً، أو ليست ورطة على الإطلاق، أن أجد نفسي أمام مجنونٍ عاشقٍ للعبة ذهنية، إذا ما قارنت ذلك بورطة الحب الذي بعثرني، وورطة الأمن الوطني التي لا أعرف حجمها ولا أستطيع تصوره.

لم تكن ثمة ورقة داخل جيبي أو في ذلك المكان، وقررتُ أن أضحي بطرف قميصي، أمنحه للرجل، ليضع توقيعه، وكان قد ابتسم بعمقٍ، رفع قلمًا من أقلام الكوبيا، مبريًّا جيدًا، ولوَّح به في وجهي.

فجأة سأل وقلمه يتخبط في طرف القميص:

– هل تعرف فلادمير كرامنيك، وبوريس إسباركي، ورسلان بن موروف؟

لم أكن أعرفهم حقيقة، وحتى لو كنتُ أعرفهم، ما كان بوسعي تذكرهم في لحظة تخبط كهذه. لقد بدت أسماؤهم روسيةً، ومن السهل التخمين بأنهم أبطال شطرنج دوليون، التقط المجنون أسماءهم، احتفظ بها في ذاكرته ويستخدمها بلا وعي لتسويق نفسه، في لعبة لا يعرف عنها شيئًا.

قلت: نعم، تلافيًا لأي مشادة بلا ضرورةٍ قد تنشب بيني وبينه، وفي نفس الوقت، كانت عيني على باب الخروج..

– تافهون ولا يعرفون الفرق بين النملة والصرصور، في لوحة اللعب. هزمتهم جميعًا في عقر دارهم، وطلبوا ملاعبتي في عقر داري، وللأسف الشديد داري بلا عُقر. أنا بطل عالمي.

أظنها كانت فرصةً جيدةً لاغتصاب ابتسامةٍ وسط ذلك الرعب أو فضح ضحكة، وهذا لن يحدث مني، إما خوفًا من تقلبات مزاج المجنون أو احترامًا لحالة الخوف التي تركبني.

كان قريشي، قد عاد إلى طاولته، أصابعه تتسلى بالتوقيع على حواف الطاولة التي كانت ممتلئة أصلًا، ولا مساحة شاغرة، لإضافةٍ جديدةٍ، وعلى مقعدٍ من الحديد الصدئ، جلستُ بدوري صامتًا، ولا تزال عيني عند باب الخروج.

ثلاث أو أربع ساعات مرَّت وأنا في تلك الحالة، أفكاري تترنح في كل شيء، إلا العشق، ولدرجة ظننت فيها نفسي، ذلك القديم، المعروف بلؤمه في تذوق المرأة. وحين اقتربت الساعة من الرابعة عصرًا، وأصبح بالإمكان أن يأتي هواة الشطرنج الحقيقيون، ليُمارسوا تدريباتهم، ويجدوني جالسًا بلا معنى في مكانٍ لا يخصني، قررتُ أن أتخذ القرار الصائب، مهما حدث. سأعود إلى بيتي في حي المساكن.

كانت مرتي الأولى في السراديب المظلمة من أجل أخي بخاري، وكان من الطبيعي جدًّا، أن أحترق على أخي المفقود، وأستسيغ ظلام السراديب ومضاعفاتها من أجله، وهذه المرة ستكون من أجلك أنت، وأعتقد أن ذلك واجبٌ حتميٌّ، أن أموت حتى من أجلك، وإمعانًا في إقناع نفسي بالقرار الصائب في رأيي، خرجت من مبنى هواة الشطرنج، مشيت برصانة، وبخطواتٍ عادية، وأقرب إلى خطوات جلاد من خطوات ضحية، بل إنني وقفتُ قليلًا أمام مبنى الأمن، أشاهد تعساء بسمات وأزياء مختلفة،

يدخلـون ويخرجـون، والثائـرة "دنيـا" المعروفـة بنشـاطها ضـد ختـان البنـات، وحملـت السـلطة في عـددٍ مـن الخطابـات التي ألقتهـا في المدينـة، مسـئولية البـرود الجنـسي لأكـثر مـن مليـون فتـاة تـم ختانهـن في الأعـوام الأخـيرة. كانـت تُسـاق أمامـي في تلـك اللحظـة، إلى المبنـى وقـد شـد أحدهـم شَـعرها، ومزقـه.

حـين هـدأ المـكان، وجـدتُ الـرأي الصائـب يضغطنـي لأدخـل، لأسـتلم عـذابي سريعًـا، ولا أذهـب للبيـت أنتظـره، دخلـت بثقـةٍ مـن البـاب الضيـق، المنخفـض الـذي لا يسـمح بالدخـول إلا انحنـاء، وكنـتُ أواجـه مجنـدًا حليـق الـرأس، يجلـس عـلى كـرسي دوار مـن طـرازٍ حديـثٍ، وعـدة هواتـف وأجهـزة للراديـو تنبـح بجانبـه. وبحركـةٍ سريعـةٍ التقـط سـلاحه، لكنـه لم يصوبـه نحـوي:

– ماذا تريد يا سيد؟

كان يسألني.

مـن دون أن أنطـق، أخرجـت بطاقتـي الشـخصية مـن جيبـي، سـلمتها لـه، وقلـتُ لـه بأننـي أريـد التأكـد بأننـي غـير مطلـوبٍ في شيء، ولا بـد أنـه احتـار حقيقـة فلـم يكـن كـما أعتقـد قـد تعـود عـلى مثـل هـذا السـلوك، إلا مـن مجنـون.

تأمـل بطاقتـي قليـلًا، تأملنـي أيضًـا، أعـاد تأملهـا، وتأمـلي، رفـع سـماعة للهاتـف بجانبـه، أعطـى رقـم البطاقـة

لشخصٍ آخر، انتظر قليلًا وعاد ليخبرني بفظاظةٍ بأنني لستُ مطلوبًا في شيء حتى الآن، ولكن قد أكون مطلوبًا بعد دقيقةٍ واحدةٍ إذا لم أغادر. وكان جوابه كافيًا لأن أتنهد بارتياحٍ.

في البداية، خرجتُ من المبنى، مشيتُ وفي نيتي أن أذهب إلى موقف الباصات الرئيسي، أستقل حافلة تمضي بي إلى حي المساكن، وفجأةً جاءت أطيافك كلها دفعة واحدة، تلك التي فرَّت في الصباح لتهاجم الذهن من جديدٍ، وتجعلني أغير وجهتي، سأعود إلى حي البستان مرةً أخرى، سأبحثُ عن المرأة صاحبة البيت المعروض للبيع، وسأبحثُ عنك أيضًا، فما دمتِ تسكنين البستان، فأنت تسكنينه، وما دمت زهرة، فأنت زهرة زهوره، وما دمتِ حقيقةً وليس خيالًا، فلا بد من العثور على الحقيقة مهما كان الشقاء، ولو صادفني الحداد ألبيرت مرة أخرى فسأفتك بأنفاسه، قبل أن يُخبرني بأنهم اهتدوا للبيت الذي كان يزوره التكفيريون. لم أحس بأن مرتبي المتخاذل قد ضاع في سيارات الأجرة، وهكذا استوقفت واحدةً وقلتُ لصاحبها بمجرد أن تحركت:

– هل كنت تستحق الترشح لرئاسة سائقي عربات الأجرة، وخانك زملاؤك بسبب الحسد؟

طالعني الرجل باندهاشٍ، وهو يُردد:

- نعم.. نعم.. كيف عرفت ذلك؟

- خمنته.

قلتُ وأنا سعيد بأنني تخلصت من تلك الجملة التي باتت أكثر جملة تافهة أسمعها في تلك الأيام.

-١١-

كان ليل حي المساكن قد تمدَّد بظلماته كلها حين عدتُ إلى بيتي أخيرًا، بعد غياب يومٍ كاملٍ.

مشيتُ بلا وجلٍ من موقف حافلاته الشحيح في العادة، تلك الساعة، والمزدحم في ساعات النهار وأول المساء، إلى بيتي، وقد ضاعت آثار الطوفان كلها، وحلت مكانها سكينةُ الكآبة.

لم أكن خائفًا من أحدٍ، وأنت قابعة حيث كان الخوف قابعًا من قبل وانهزم، لقد قال مجند الأمن الذي كنسني من بوابة مبنى جهازه، بأنني لستُ مطلوبًا حتى هذه اللحظة، أعني لحظة وقوفي أمامه، ولا أدري إن كنتُ قد طلبت أم لا، في تلك الساعات التي قضيتها، ألوك الجمر في حي البستان، من دون أن أعثر على جرعة ماء، تُطفيه.

البنـاء الأصفـر، ذو الطابقـين الـذي كان معروضًـا للبيـع، والـذي اعتبرتـه مفتاحًـا سلسًـا، ربمـا يـدور في قفـل عـصي، ويفتحـه، مغلـقٌ بـلا أي إيضـاح. لافتـةُ العـرض المكتوبـة بخـط واضحٍ، فـرَّت مـن مكانهـا عـلى تلـك الأعمـدة الحديديـة التـي كانـت تحملهـا، الخيـاط النسـائي الـذي انتظـرتُ قريبًـا مـن بابـه سـاعتين، لا أجـرؤ عـلى الدخـول، أغلـق أبوابـه في النهايـة، وهـو يُخـبرني بجلافـةٍ شـديدةٍ، بـأن مهمتـه في الحـي هـي تفصيـل الملابـس للسـيدات وليـس سـمسرة العقـارات، ليعـرفَ إن كان البيـت الأصفـر قـد بيـع بالفعـل أم لا يـزال معروضًـا! مسـاعدته التـي كانـت مليحـةً، وسـمراء، وصغـيرة الجسـم بشـكلٍ مثيرٍ، اغتاظـت بشـدةٍ حـين سـألتها إن كانـت تسـتطيع أن تدلنـي عـلى صاحبـة البيـت، وكان اسـتغرابي بـلا حـدود، حـين صرخـتْ: هـل أشـبه قـوادة، في رأيـك؟ بائـع خـضروات متقـدم العمـر مـرَّ عـلى عربـة تويوتـا مكشـوفة، تتوقـف بعـد كل عـدة خطـوات لملاحقـة الزبائـن، لم يـرد، لا بخـير ولا بـشر، حـين سـألته. امـرأة مسـنة، تبـدو على وجههـا علامات غطرسـة بـلا حـدود، رددت، وقبـل أن أفتـح فمـي سـائلًا: بأنهـم ليسـوا في حاجـة إلى خـادم أو بسـتاني، وصدقـات أموالهـم يوزعونهـا في السـوق في مواسـم الأعيـاد. أطفـال يلعبـون التخفـي بمـرح، تمـددت في لعبتهـم، وسـألتهم عـن الخالـة أسـماء، ففـروا مـن أمامـي فزعـين، وجـاءت سـيدة مـن أحـد البيـوت، تبـدو زهـرة

لكنها ممتلئة بالشوك، احتضنت صبيًّا، ورمتني بنظراتٍ كان تفسيرها سهلًا للغاية: متحرش بالأطفال.

اضطررتُ لتغيير مكاني عدة مراتٍ، أناور في الحي، أدخل طرقًا، وتفرعات طرق، وتفرعات تفرعات طرق، أجلس على كافتيريا أجدها أمامي، ولا أعرف محتويات قائمة طلباتها الغريبة، أعود إلى البيت الأصفر مرات ومرات، أطرقه بصبر ولا أحد يفتح.

في حديقةٍ صغيرةٍ، مسورة بالحجر، يبدو أنها خلقت لتكون متنزهًا عائليًّا عامًّا، شاهدتها في أحد الشوارع، ودخلتها في أول المساء لأستريح قليلًا وألتقط أنفاس العشق، التي لهثت بها وبغيرها منذ الصباح، كانت الأضواء خافتةً، ثمة عمال يحفرون أو يسقون النجيل، بلا حماس، خامات رشيقة تتمشى، ومشاريع خامات في سن المراهقة تتسلى بمطاردة الفراشات، عثرتُ على مقعدٍ خالٍ في ركنٍ غير معتمٍ تمامًا، وجلستُ أقيِّم وضعي، وليس وضع أحدٍ آخر:

كان الموضوع كله يدعو للغرابة إذا ما قيس بمواصفات الحياة المادية الجلفة، أن يترك معلمٌ قاسٍ ونظيفٌ من المرأة وشوائبها، فجأة تاريخه، ليصير واحدةً من شوائب امرأة لا تعرفه وقد لا تحس به أبدًا، إذا صادف وعرفته،

ولـن تكـون ثمـة غرابـة، إذا مـا قيـس الوضـع بمقاييـس الرهافة، والنظـرة الأولى، والنصيـب، ووافـق شـنٌّ طَبَقَـه.

أنـا شـن ووافقنـي طبـقٌ مـن الذهـب، لكـن يحتـاج إلى عبـور مغـاراتٍ ووديـان مـن العـذاب، وأن أنتـصر عـلى أفـاعٍ تربـضُ في مـكانٍ، لم أعرفـه بعـد.

لامسـتْ كـرةٌ مـن المطـاط الأخـضر قدمـي، وكان قـد دحرجهـا طفـلٌ نظيـفٌ، يرتـدي ملابـس زاهيـة، ركلتهـا فانزلقـت إلى بركـة مـاءٍ صغيرةٍ، وصرخ الطفـل. التقـط الكـرة، أعادهـا إليَّ، نظفتهـا بـورق شـفاف، كان مشـتتًا في المـكان، سـألته وكان في الخامسـة تقريبًـا:

– أين خالتك أسماء يا بطل؟

– ها هي!

أشـار إلى ركـنٍ تتجمـع فيـه الخامـات، وأسـمع ضحكاتهـا بشـكلٍ متقطـعٍ. نهضـتُ واقفًـا، ملسـوعًا، والطفـل يصيـحُ: خالتـي.. أسـماء، خالتـي..

ويـا للسـخرية يـا أسـماء، فقـد كنـتِ مـن خلفـه، أصيـح: يـا أسـماء، يـا أسـماء، ولا أحـس أبـدًا بأننـي مجنـون، وبأننـي أسرفـتُ في النشـوة الضالـة، ولدرجـة أن أنسـاق وراء صياحـات طفـلٍ، ولا أعـرف هـل أنـت خالتـه أم لا؟ ولـو كنـت خالتـه

بالفعل واستجبت، هل ستصدقين بأن الأبله الذي يركض أمامك، يمكن أن يصلح عاشقًا؟...

نهضتْ فتاة من وسط الجمع، اقتربتْ، وكانت واحدةً من الخادمات الإثيوبيات، اللائي انتبهتُ إلى وجودهن بغزارةٍ في هذا الحي، منذ أمس، وكانت مهندمةً في قميص أبيض، وتلف منديلًا أحمر على رأسها.

قال الطفل:

– هذه خالتي أسماء.

قلتُ بسرعةٍ، وما أزال ألهث:

– توجد قطةٌ أخافته، وكنت أبعده عنها.

والحقيقة أني لم أشاهد في حي البستان الذي أزعم أنني غربلته بتأنٍّ، أي قطة يمكن أن تُخيف، كانت القطط التي رأيتها متزنةً وناعمةً، وصديقةً للبيئة، ولا تُشبه قطط حي المساكن الخبيثة بأي حالٍ من الأحوال. يا للسخرية المُرة يا أسماء، لو قيل لأمي في قبرها، إنني أصبحتُ متسولًا بلا حظ في حي لم أدخله إلا بهذه الصفة، لبكى القبر تعاسةً، لو قيل لأخي بخاري في غيابه غير المعروف، إن أخاك ضاع، لضحى بفراره، وعاد، وسقط في الدهاليز المظلمة. ولو عرف مدير المدرسة الجديد، أن معلمًا

للكيميـاء، هـو لا يُحبـه أصـلًا، قـد تـورم حـدَّ عـدم القـدرة، عـلى إنقـاص جنونـه، لطـردت في نفـس اليـوم.

هـذه النقطـة الأخـيرة بالـذات، أزهقـت معنويـاتي بشـدة، أن أطـرد مـن صرح تعليمـي شـاركتُ في إبقائـه صرحًـا لأكـثر مـن خمسـة عـشر عامًـا، وهـذا مـا عزمـتُ بـأن لا أسـمح بـه أن يحصـل أبـدًا، سـأغادر بـإرادتي، وبـلا تدخـل مـن رئيـسٍ أو غـير رئيـسٍ في وقـتٍ قريـبٍ، سأسـميه وقـت الانفجـار، سـأقف بوقاحـةٍ أمـام تلـك الطاولـة، أشـغل اليـد المشـغولة أصـلًا في التوقيـع عـلى اسـتقالتي غـير المسـببة، فلسـتُ بحاجـةٍ إلى كتابـة سـبب، ولـو سـألني زمـلائي، سـأتذرع بمحـاولات الهجـرة إلى أي بلـدٍ عـربي، لتحسـين وضعـي، وسـيصدقون، لأن واقعـة تصويـري مـن أجـل جـواز السـفر، كانـت قـد انتـشرتْ في المدرسـة بشـدة، ولدرجـة أن بعـض تلاميـذي أطلقـوا عـليَّ لقـب السـعودي سرًّا.

قالـت الخادمـة، وقـد ارتـدت سـلوكًا لا يشـبهها، ولا يشـبه وظيفتهـا، سـلوكًا متغطرسًـا:

– اتركه، نحن نريد أن تعضه القطط!

تركتهـا تتغطـرس للهـواء، وعـدتُ إلى ركنـي خجـلًا، وفي اللحظـة التـي هممـت فيهـا بالنهـوض ومغـادرة المـكان، وأفكر في نكهـة الليـل، وأرقـه المـضيء الـذي بـت أحبـه وأتمنـاه، ومـا سـيحدث في الصبـاح، إن أصبـح لي صبـاح، كان رفيقـي القديـم

محيي الدين ألماني، يقف أمامي فجأة، وإخاله قد طال وتمدد، وخرج من كل الأمكنة.

– ألماني؟

صرختُ منفعلًا.

– الشيخ أبو الصاحب.

سمعتُ صوتًا ينبع من العتمة خلفي، كان الليل قد تراكم بالفعل، تفرقت خامات الزهور إلى مخابئها، والطفل صاحب الكرة انصرف برفقة الإثيوبية التي لا أعرف كيف سميت أسماء، ولا تمنح الاسم ظلاله وأبعاده، ولن تمنحها في أي يوم من الأيام.

الشيخ أبو الصاحب؟

يا له من لقبٍ كبيرٍ، متمكن، جلف، يستهزئ بالماضي الموحل، لواحد مثل محيي الدين، لم يكن سوى صائد سائحات مستهتر، وروائي بلا رواية.

كان الأزهري هو صاحب الصوت، وكانا وحدهما، وعلى فم كل منهما مسواك من خشب الأراك، لكن ما سيجعلني أموت بحق، هو ذلك السلاح الناري الذي شاهدت الأزهري، يُخرجه من جيبه، ويُعيده.

– ماذا حدث؟ هل أنا متورط؟ هل أنا من الفئة الضالة؟

لم يضحك "أبو الصاحب" كما سمى نفسه، أو سماه الأتباع، لا أدري، راكلين لقبًا آخر ارتداه لأكثر من ثلاثين عامًا، لم يبتسم حتى، وعلى الضوء الخافت بالقرب منا، كنتُ أستطيع أن أميز وجومًا، أو لعله رعب، ينزُّ من الوجه.

– لم نسع إلى توريطك يا أخي، لكنك من الفئة الضالة، حتى تتوب. تُب إلى الله.. تُب!

كان يبدو متعجلًا، يتلفت باستمرارٍ، ويتكلم بلا ثقةٍ وباهتزازٍ لم يكن ينبغي أن يصدر من رجلٍ أعلن الحرب على السلطة، والأزهري يده على جيبه، حيث سلاحه المُخبأ، وأحد حراس الحديقة بزيِّه الرسمي يقترب، وأحس بمئة إحساس في نفس الوقت.

فجأة اختفيا من أمامي، ابتلعتهما بدايات الليل، ولم تكن لديَّ أي أسئلة إضافية أو ملاحظات.

لم يسؤني هذه المرة أيضًا، أنني سُمِّيتُ فئةً ضالةً، ولن يسوؤني في أي يومٍ إذا ما قيل بأن عشقك ضلالٌ، وهي الخطيئة الوحيدة الناصعة التي يستند عليها ألماني في تصنيفه، وأنا من لمعتها أمام أذنيْه للأسف، وقد بدا لي أشد ضلالًا من الفئات التي يتهمها في إيمانها. ولو كان على حق في تبنيه لفكرة محاربة المجتمع لما فرَّ ليختبئ في حديقةٍ أسريةٍ معتمةٍ، في حي يتوقع أن لا تنبش السلطة

فيه، والآن يفر هو وصاحبه، من رؤيتهما لحارسٍ فقيرٍ بلا سطوةٍ. ليختبئا في حفرةٍ، في مكان آخر، وليس بمستبعدٍ أبدًا، أن يغزوا حي الصهاريج، ويقضيان الليل في خمارة، بإيعازٍ من فقه الضرورة الذي كنتُ متأكدًا جدًّا أنهما لا يعرفان عنه شيئًا.

حين أجد ألماني هذا مرة أخرى، لن أسميه "أبو الصاحب"، سأرسمك له بتفاصيل أسخى، وألزمه باستخراج الضلال من تفاصيلك. إن كان يستطيع.

قلتُ لحارس الحديقة المُتجهم الوجه: أنا ذاهبٌ، قبل أن يسألني، وقلتُ لسائق الأجرة الذي سيقلني إلى وسط المدينة:

– لا تبتئسْ يا أخ، لأنهم لم يرشحوك رئيسًا لنقابة سائقي عربات الأجرة، فقد أصبح الحسد منتشرًا بين الناس.

ولم ألتفت إليه، لأرى ردة الفعل.

سأعتبرُ الأمرَ مُنتهيًا، إلا إذا جدَّ جديدٌ، وقد اتضح لي بالفعل أن ألماني وجماعته، ضالعون في خطبٍ ما.

أمام بيتي، كان كل شيء يبدو عاديًا، مزيرة الماء التي نصبتها أمي منذ سنواتٍ طويلةٍ، بأزيارها الثلاثة، تبدو مطروقةً، والماء مراقٌ على جانبها، شتلة الحناء الخضراء التي غرستها، بعد عدة أيام من تعلقي بك، تبدو قد

طالـت واخـضرَّت بشـدةٍ، صراخ جعفـر، وصراخ عفـراء، وضحـكات فـاروق، التـي مـن المفـترض أن تكـون الآن ملعلعـة في بيتـي، لـولا تأخـري في المجـيء، الـشيء الوحيـد الـذي لم يكـن عاديًـا، هـو أن جـاري الآخـر حليمـو، كان يمـر بالطريـق في تلـك اللحظـة، وآخـر مـرة شـاهدته فيهـا يمـر كان منـذ تسـعة أشـهر. كان مـا لفـت نظـري، هـو أن لحيتـه قـد طالـت بشـكلٍ مخيـفٍ، وبـدا شـبيهًا بجماعـة الورطـة التـي ربمـا أكـونُ عالقًـا فيهـا، وقـد كان حليمـو متزوجًـا فيـما مـضى مـن إحـدى نسـاء القبائـل المحليـة وهجرتـه زوجتـه بسـبب بقائـه في البحـر لأشـهرٍ طويلـةٍ، وحـين تقاعـد بعـد ذلـك لم أسـمع أبـدًا بأنـه تـزوج مـن جديـد. كانـت علاقتـي بـه أشـبه بعلاقـة رجـلٍ يسـكنُ في طـرفٍ آخـر مـن المدينـة، وليـس جـارًا.

طرقـتُ بـاب كولمبـس برفـقٍ، كنـتُ أود أن أرى علامـاتٍ سـلبيةً أو إيجابيـةً عـلى وجهـه، إن كان قـد سـأل عنـي أحـد أو لم يسـأل. إن كان أهـل حـي المسـاكن عـدا ألبـيرت الحـداد، قـد عرفـوا بأمـر التكفيريـين الذيـن كانـوا يجتمعـون في بيـتٍ هنـا. ظهـر فـاروق أخـيرًا، كان كـما ذكـرت مـن قبـل قـد باعـد بـين محـاضرات الحيـاة في ركنـه، ولم تكـن يوميـة، وبالتـالي يحـق لـه أن يمـشي في بيتـه بتلـك الصـورة التـي فتـح بهـا. فقـد كان يرتـدي ملابـس داخليـة قـذرة.

ابتـدأ يضحـك بجنـونٍ حـين شـاهدني، يضحـك ويمسـح دمـوع الضحـك بكُـمٍّ قميصـه القـذر، كأن وجهـي كان نكتة، أو ثمـة شـيطان غـير مـرئي ولا مسـموع، يـدرب حبالـه الصوتيـة، عـلى ضحكـةٍ سـينال عنهـا جائـزة. ومـن داخـل البيـت المظلـم، برغـم وجـود الكهربـاء، كانـت عفـراء تسـأل عـن الطـارق وكولمبـس يُخبرهـا بصـوتٍ عـالٍ، بـأن البـاب طُـرق لوحـده، ويضحـك.

لا تسـتطيعين أن تُخمنـي حجـم غيظـي في تلـك اللحظـات يـا أسـماء، لقـد كنـتُ مُعتـادًا عـلى الغيـظ مـن فـاروق، مُعتادًا عـلى وجـود سـخافاته في بيتـي ومُحيطـي، واسـتطعتُ بمشـقةٍ، أن أبتكـرَ عالمًـا مُنعـزلًا يخصـك، حتـى وهـو موجـودٌ حـولي ويضحـك، لكـن المسـألة في تلـك اللحظـة كانـت مختلفـة، ثمـة ورطـة أردتُ أن أسـتوثق مـن وجودهـا أو عدمـه، والجـار اللصيـق جـدًّا، يعـرفُ ذلـك بـكل تأكيـد.

قلـتُ: كفـى يـا كولمبـس، كفـى ضحـكًا أرجـوك! وتوقـف عـن الضحـك، فتـح عينيْـه كأنـه يُشـاهدني لأول مـرة، صـاح:

– كان هنـاك جـروٌ وكلـبٌ يسـألان عنـك وأخبرتهـما أنـك نائـم.

ثم عاد إلى الضحك من جديد.

في ذلك الليل المفرط في التفاؤل، الذي قررته لنفسي، وبدأت أدرسه برغم كل شيء، أبعدتُ ورطة ألماني عن ذهني تمامًا، ألغيتها كأن لم تكن. لم يسأل عني شيطانٌ أمني، لا أثناء غيابي في النهار، ولا بعد عودتي، والجرو والكلب اللذان ذكرهما فاروق، كانا في الواقع، تلميذًا من تلاميذي ووالده، جاءا لزيارتي بالفعل يُريدان دروسًا خاصةً في مادة الكيمياء، لأنهما عادا بعد ذلك ووضحا سبب الزيارة.

لم أكن بالطبع مؤهلًا في تلك الفترة لإعطاء درس، إلا إن كان طلبًا لدرس عشق أو درس عذاب، أو درس أرق طويل، لا ينتهي حتى بعد أن يرحل الليل. أخبرت التلميذ ووالده بأن الأوان قد فات، وانتبهت إلى إجابتي التي تُشبه إجابة من يريد الإقدام على خطرٍ ما، وخفتُ أن أموت قبل أن أعيش العشق بشكلٍ متكاملٍ كما أعرف من قصص أسلافي العاشقين. وضحت أكثر أن التدريس الخاص لا يستهويني، ولم أقم به منذ عينت مدرسًا، ووعدتهما أن أقوم بإخبارهما في أي وقتٍ أغيِّر فيه رأيي.

أظن أن الأب قد لاحظ زوغان عيني، لاحظ أن بيتي مبعثرٌ وبلا قيمةٍ منذ أن انقطعت عفراء عن غزوه وترميم عيوبه، وملابسي التي أرتديها وأمارس بها البكاء، كانت

ملابس زبال، وأظنه هو من غيَّر رأيه لأنه نهض وجملتي الأخيرة على طرف لساني، لم تسقط بعد.

غدًا ستبدأ في المدرسة لعنة جديدة، حين يصف التلميذ أو الجرو، على حسب تعبير كولمبس، لزملائه صالة جلس فيها في بيت معلم ومات من الرعب أو القرف، لأن صراصير بمختلف الأحجام أرعبته.. ومؤكد سيخترعون لقبًا سريًّا يُطلقونه ورائي، وأعرف أنني لُقبت بالسعودي لأن تلميذ الأستوديو العامل في تقطيع الصور، كان مقتنعًا بهجرتي إلى السعودية.

عددٌ كبيرٌ من القرارات توصلتُ إليها في ذلك الليل، بعضُها مستعينًا بالحاسة المتمكنة، وبعضها عن وعي وإصرار، توصلت إلى معرفة برجك يا أسماء، ومن معلوماتي البسيطة التي أحملها عنك، ودمجته ببرجي، وأحسستُ بشبه خيبةٍ، لم أسمح لها كالعادة أن تصبح خيبةً كاملةً.

كان برجك هو الجدي، ولن أخطئ على الإطلاق، فقد سميت أنثاه "بسمة الحب"، وأنت حين رأيتك كنت أكثر من بسمة حب. عملت ساعات على ذلك البرج، مُستعينًا بكتاب عن التنجيم، اشتريته من مكتبة أهل البلد، يوم غزوي لبيت عبد القادر، ولم أفتحه من قبل أبدًا. بسمة الحب، يا الله، ثم ماذا؟.. أقول لك خواصك كلها: متطلعة جدًّا، وعملية جدًّا، تُحبين الأزرق والأسود والرمادي، جافة

بعـض الـشيء، لكـن رقتـك، هـي الغالبـة، تنجذبـين بشـدةٍ لمواليـد بـرج الثـور والعـذراء، وتحتاجـين لفـتراتٍ طويلـةٍ مـن الـتردد والاستشـارة والتفكـير والقلـق لتقبـلي واحـدًا مثـلي، كان قـدره أنـه مـن بـرج الحمـل. تلـك ليسـت مشـكلة ولـن تكـون مشـكلة أبـدًا، وقـد قلـت لـك مـن البدايـة إن حبـي كان بـلا أملٍ واسـتمر بـلا أملٍ، لـو انتهـى بنهايـات القصـص السـعيدة سـأموت فرحـة، ولـو انتهـى كأي حـبٍّ أصـلي نـازفٍ، سـأموتُ أيضًـا، وعـن اقتنـاعٍ تـام بأننـي كنـتُ عاشـقًا جديـرًا بتلـك الوظيفـة.

حـوالي العـاشرة، وأنـا مـا زلـتُ مُنهمـكًا في كتـاب الأبـراج، أتلـوى عنـد برجـك، أحـاول أن ألجـه مـن عـدة نوافـذ وأبـواب، وسرقـة نجمـه، لأضيء بـه ظـلام برجـي، خُيـل إليَّ أن أحـدًا مـا ينطـق باسـمي.

في البدايـة ظننتـه كولمبـس، يحـشرني في نقـاشٍ طـارئ مـع عفـراء، لكـن الصـوت لم يكـن صوتـه. خرجـتُ إلى الطريـق، ولم يكـن ثمـة أحـد، عُـدت لأسـمع النـداء يـتردد مـن جديـدٍ.

تلـك السـاعة فقـط، أيقنـتُ بأننـي مُقبـل عـلى مرحلـةٍ أخـرى مـن مراحـل العشـق. المرحلـة التـي لـن أكـونَ فيهـا عاشـقًا فـذًّا، ولكـن عاشـقًا بـلا مقومـاتٍ. وهكـذا، عملـتُ عـلى أعصـابي عـدة دقائـق حتـى أعدتهـا إلى وضـع الاسـتقرار

واختفى صوت النداء، لن أكون بلا عقل حين أجدك يا أسماء.

وكالعادة منذ أن صادقتُ الأرق، وأصبحتُ أحفظ أصوات الليل كلها، لا تأتي القرارات المهمة إلا في أشد اللحظات قسوة، اللحظة التي أوشك فيها أن أغفو مودعًا عذابك الجميل، وهكذا جاء القرار الذي كنتُ أنتظره منذ مدةٍ، ولم يجرؤ على الحضور بين قراراتٍ عدة اتخذتها، وأتخذها في كل يوم: سأترك تعليم الكيمياء إلى الأبد، وسأبدأ حرفةً أخرى لا تعوق وصالك، ولا تلزمني بالبقاء أعزل من توهان المُحبين. عند تلك النقطة، بدأت في عدِّ الحِرَف التي قد تُلائمني وتلائمك، وأظنني قد عثرت على واحدة.. لماذا لا أفتتح متجرًا لبيع الشيكولاتة في حي البستان؟

خلال طوافي في ذلك الحي شاهدت أنشطةً تجاريةً متنوعةً، ولم أشاهد متجرًا للحلويات. أعتقد أنني ضحكتُ لسببٍ بسيطٍ هو أنني لا أملك ما يجعلني حتى تاجر ملابس مستهلكة.

-١٢-

في الصباح الباكر جدًّا، وقبل أن تستيقظ تضاريس حي المساكن كاملة، تتناثر في المدينة كلها، غازية لبيوتها وأسواقها وأماكن العمل فيها، حُل لغز البيت الخفي، الذي كان مقرًّا لاجتماعات ألماني، الشيخ "أبو الصاحب" وجماعته، وكان لدهشتي الشديدة، هو بيت القبطي قدسي قرياقوس، صاحب رياض الأطفال، الصهر المستقبلي لموزع الخبر ألبيرت راجي، والذي كان مؤملًا بشدة، أن يلتقط مريا البيضاء من ذوبانها في الشوارع، ويمنحها المكانة التي تستحقها كما تعتقد.

لكن دهشتي ما لبثت أن انقشعت سريعًا، حين وصلت إلى بيت قدسي ركضًا، يتبعني فاروق كولمبس، وقد نسي في لحظة اضطرابه، وفضوله الشخصي لمعرفة التفاصيل، أن يضحك من منظر حمارٍ وغدٍ من حمير حي

المساكن، كان ينهق بوجدانه يراود أتانًا ذابلةً مربوطة في الطريق.

كان بيت المستثمر القبطي مزدحمًا بشدةٍ، كان ثمة فضول في حوشه الضيق، فضول في صالة البيت الأشد ضيقًا، فضول حتى على سقف البيت، وأسقف البيوت المجاورة، وقد وقف قدسي نفسه في وسط الحشد، يرتدي بذلة سوداء كاملة برغم الحر ورباط عنق أحمر، وبجانبه مريا المكسرة، تتدلى من أذنيها أقراطٌ طويلة، والصهر المستقبلي ألبيرت، وثمة عاملان مستأجران كما يبدو يتحركان بصعوبةٍ وسط الحشد، يوزعان الحلوى وعصير الليمون على كل الفضوليين، الذين اعتبروا ضيوفًا مُكرمين بشدة في ذلك الصباح.

ماذا حدث في حي المساكن؟

وكيف يحتفي قبطي مثل قدسي، بجماعةٍ اعتبرت ضالة، هي ضده في الأصل؟ ويقدم لها بيته لاجتماعاتٍ سريةٍ، وتلك الغرابة في أنه ما زال طليقًا حتى الآن وبعيدًا عن السراديب المظلمة، يتبسم بأسنانه كلها، السليمة منها والتي أكلها التبغ، ويلعلع بذلك الصوت الكبير مرحبًا بالسادة والسيدات الذين شرَّفوا، ولا أشم رائحة أذى تتحاوم من حوله؟ أو ظلالًا مشوهةً تُوشك على ابتلاعه.

ما هذا؟

الحكايـة في غايـة البسـاطة يـا أسـماء. حكايـة قـد لا تحدث في حـي البسـتان، ولا أي حـي آخـر مشـابهٍ كثيرًا، ولكـن يمكـن أن تحـدث ببسـاطة في حـي مثـل حـي المسـاكن، اعتـاد عـلى غرابـة الحكايـات منـذ أنشـئ، ويسـكنه شـعبيون مروضـون عـلى تلقـي الغرابـة باعتبارهـا وجبـاتٍ عاديـةً يأتـون لالتهامهـا سـاعة الطهـو، ثـم مـا تلبـث أن تصبـح ذكريـات بعـد ذلـك.

لقـد تعـرَّف قـدسي بألمـاني وجماعتـه، حـين زاروا مسـجد الحـي عـدة مـرات في مـا سـموه الدعـوة والخـروج في سـبيل اللـه وتأكـد بـأن أفكارهـم التـي اسـتمع إليهـا تلصصًـا وهـو يتحـاوم حـول المسـجد، ويدخـل أحيانًـا مرتديًـا ثيابًـا وطنيـةً وملثـم الوجـه حتـى لا يلفـت الانتبـاه، يمكـن أن تتطـور في أي يـوم مـن الأيـام، إلى أفـكار قـد تـضره شـخصيًّا وتـضر فئتـه وكل الفئـات الأخـرى المعتدلـة في المدينـة، وربمـا تـضر الوطـن كلـه بحسـب تصـوره. وفي ذلـك اليـوم الـذي خرجـوا فيـه مـن بيتـي، كـما عرفـتُ مـن الرصـد الدقيـق الـذي ذكـره بابتسـامةٍ وطنيـةٍ كبـيرةٍ اعترضهـم، وقـدَّم نفسـه باعتبـاره أحـد المهتديـن الجـدد، ويريـد أن يعـرف عـن الديـن الجديـد أكـثر، منحهـم صالتـه الضيقـة عـن طيـب خاطـر يجتمعـون فيهـا متـى مـا أرادوا، ولم تكـن بالبيـت امـرأةٌ تُسـمى عـورة، منـذ رحلـتْ زوجتـه في حـادثِ طريـقٍ. كان يجلـس معهـم في كثـيرٍ مـن الأحيـان ويعمـل في الـسر ببراعـةٍ، بعيـدًا عـن عيـون مواطنـي حـي المسـاكن، كـما ذكـر، ولم يخـبر حتـى

الحـداد وأختـه المكـسرة الذائبـة، لكنـه أخـبر مـن يهمهـم الأمـر، وفي اليـوم الـذي ذكـروا لـه فيـه، بـأن بضائـع الغـرب التـي تـأتي عـبر البحـر بواسـطة بحـارة لا يتقـون اللـه، وتـوزع في المدينـة، ويسـتهلكها النـاس بكثافـة، حـرام لأنهـا صيغـت بأيـادٍ نجسـةٍ، وتجـارة الذهـب إثـمٌ كبـيرٌ لأن الصاغـة رجـالٌ يُغـوون ويسـتجيبون للغوايـة، وأمسـكوا بطفلتـه التـي كانـت في الرابعـة مـن عمرهـا، غطوهـا بعبـاءةٍ كثيفـةٍ لا تُظهـر حتـى العينـين، ودعـوه بجلافـةٍ لإلغـاء ريـاض الأطفـال التـي يسـتثمر فيهـا أموالـه، لأنهـا تضـم أطفـالًا مـن الجنسـين، وقابلـة لاكتشـاف العـورات مبكـرًا، أيقـن بـأن الـدور الوطنـي الـذي جنـد لـه نفسـه مـن دون أن يطلـب منـه أحـد ذلـك، قـد حـان أخـيرًا، وسـعى لمـن يهمهـم الأمـر الذيـن كانـوا عـلى مقربـة، ويتتبعـون في حـذر.

ألمـاني والأزهـري، أفلتـا مـن الـشَّرَك في اللحظـة المناسـبة، وبمصادفـةٍ بحتـةٍ، حـين أصيـب أحدهـما بصـداعٍ عنيـفٍ وانسـحب قاصـدًا سـوق العطاريـن لمداواتـه بالأعشـاب ورافقـه الآخـر، والآخـرون سـقطوا كـما يبـدو، ولا بـد أنهـم أولئـك التعسـاء الذيـن شـاهدت انكسـارهم جليًّـا أمـام مبنـى الأمـن الوطنـي حـين كنـتُ مضعضعًـا وبائسًـا.

قال ألبيرت الحداد، ورائحة تبغٍ نفاذة، تنزُّ من أنفاسه، وتسهم في ضيق المكان الضيق أصلًا، ومريا البيضاء قد تكسرت حتى خلتها ستسقط:

– الرب يباركك يا زعيم.

وردَّ قدسي على تلك التحية، بأن ردد: الرب قريب منا، ويهدينا لسكك الخير.

ثم ردد نشيدًا كنسيًّا بصوتٍ منخفضٍ، وأخرج من خزانة على أحد الحوائط شهادةً من ورقٍ مصقولٍ مذهبة الحواف سلموها له البارحة في احتفالٍ خاص لم يُعلن عنه، عرضها على الناس فردًا فردًا، وأعطاها لألبيرت ليعرضها في الخارج حيث آخرين منعهم سوء الحظ من التكاثف في بؤرة الحكي، وكان مكتوبًا عليها: إلى الوطني الشهم قدسي متى قرياقوس. نُثمن جهودكم في فضح الخونة.

أيضًا قام الحداد، بإيعاز من صهره المستقبلي، بقراءة نسخةٍ من ورقةٍ صغيرةٍ، مكتوبة بخط اليد، اعتبرت منشورًا، ولا تُشبه المناشير، وصادرته الأجهزة الأمنية، بعد أن تركت تلك النسخة الوحيدة تذكارًا للزعيم، كان مكتوبًا عليها: لا بديل لشرع الله، ماضون في تطبيق الشرع، حتى ننال الشهادة.

لقد ضحكتُ يا أسماء، أقول لك صراحة بأن جزءًا من ضحكات فاروق غير المحتشمة، تسلل إلى حلقي في تلك اللحظة برغم عذاباتي كلها، وفاروق نفسه، كان قد سقط على الأرض، من ضغط الضحك على مصارينه، وسمعتُ ما ظننته ريحًا وسخةً تخرج من تحته.

كان أكثر ما أدهشني في الأمر، هو أن يسقط متشددون مثل ألماني وجماعته في فخ نصبه قبطي بدعوى أنه مهتدٍ جديدٌ، من دون أن يتحققوا من هدايته، وإن كان حقًّا يُشبه اسم (طلاع الثنايا) الذي منحوه له فورًا، أم لا؟

لو كان جاري حليمو البحار السابق، هو من نصَب الشَّرك لما اندهشت، ولحيته الجديدة التي شاهدتها يوم أمس، تلائم الورطة بجدارة، لو كان فاروق كولمبس، لما اندهشت أيضًا، وأعرفُ أن محاضرات الحياة التي يُلقيها في ركنه تضم محاضراتٍ عدة، يُمكن أن تُواكب أفكار التطرف، لو عُدلت محتوياتها أو قُلبت معانيها بشيء من التركيز، لكن الأمر برمته، كان خارج تصوري، ورضيتُ به كواقعٍ حدث، ولا يمكن الادعاء بأنه لم يحدث، وكانت أكثر فقرة أعجبتني على الرغم من أنها لم تكن من ضمن فقرات الاحتفال، هي أن لا أحدَ تطرق لذلك الاجتماع الوحيد الذي جرى في بيتي رغمًا عني. كنتُ أقرأ نظراتٍ خاصةً

يُوجهها لي قدسي من حينٍ لآخر، أو يقترب مني يضع يده على كتفي ويبتسم، لكنه لم يقل شيئًا.

تركتُ الوطني المزعوم، يواصل احتفاله وسط ضيوفه، وتوجهت إلي بيتي. وأسمع صوته الكبير يلعلع سائلًا: ما معنى طلاع الثنايا يا أحبة؟

سأستحم وأغيِّر ثيابي، وأذهب إلى المدرسة، لا لأدرس تلميذًا ذكيًّا أو غبيًّا، ولكن لإلغاء نفسي من التعليم إلى الأبد. القرار الذي جاء وكنتُ أنتظره لحظة الانفجار التي وعدتُ نفسي بها مرارًا، وحان الوقت أن أفي بوعدي.

كان شمس العلا، أو عاصم الجديد، مهمومًا بشدة في ذلك الصباح، لقد حدَّد موعد زواجه أخيرًا بعد أن اعتمد اسمه الجديد لدى عائلة الخطيبة، ولم يكن قد ادَّخر من راتبه المتخاذل ما يُمكن أن يشرفه أمام أصهار مترفين إلى حدٍّ ما. أمه جاءت من قريته في وسط البلاد كما أخبرني، وكانت قرويةً في اللبس والحكي وتشتيت النظرات لتمتص كل شيء، واضطر إلى تعديل مظهرها من سوق الإفرنج بوسط المدينة، لكنه لم يستطع تعديل سلوكها، وذهب بها إلى أصهاره الذين تقبلوها بمشقةٍ. كان يمسح حذاءه في توترٍ ظاهرٍ، ولم يهتم كثيرًا حين أخبرته بنيتي ترك العمل، وكان يعرف أنني غارقٌ في عشقٍ أكبر من عشقه، لكنه لا يعرف التفاصيل.

سألني والعصبية واضحة في لسانه عن بدائل لحياتي المستقبلية، إذا ما تركت التدريس، ولم أكن أمزح حين قلتُ له بأنني سأطرقُ باب التجارة، أوسع أبواب الرزق قاطبة، لم يسألني أي دربٍ من دروب التجارة سأسلكه. أخرج الورنيش اللماع من دُرجه مرةً أخرى، أعاد مسح الحذاء، مرتين، التقط المقص من أمامه، وخلته سيقفز على شاربي المتجهم، ويعدله، لكنه لم يفعل، وأعاد المقص حيث كان.

لو كنتُ بنفس نكهتي القديمة يا أسماء، مدرس الكيمياء، غير المُعدل إلى عاشقٍ، لواسيته كثيرًا، لاخترعتُ ظلالًا في المواساة، ظللته بها كلها، لكن وضعي الآن أكثر محنةً من وضعه. هو يملك الروح الحية، ويُقاتل للوصول النهائي إلى هدفه، وأنا أملك الطيف وأقاتل لامتلاك الروح.

خرجنا أنا وهو من غرفتنا، وبنفس المعنويات المنهزمة، هو إلى حصته التي لا أعرف كيف سيدرسها اليوم، وأنا إلى مكتب المدير المسؤول لأشغل يده في توقيع استقالة، كتبتها منذ ليلة أمس، وأتحرق شوقًا لرؤية خربشته التي تُسمى توقيعًا، باركة أسفلها.

في الأيام الماضية، وفي الأوقات التي لم أكن فيها مرتديًا عباءة العشق كاملةً، فكَّرت في بيتي الموروث، في إمكان رهنه لدى أحد المصارف، من أجل رأس مال أتاجر به، ثم

عُدت واستسخفت الفكرة، أنا أولًا لم أكن أعرف شيئًا عن التجارة، وثانيًا أتوقع بقوة، أن يحظى ذلك البيت، بأدنى نظرة تقييم حين يخضع الأمر لمنح قرض.

فكرتُ في ذهب أمي الفقير، المحفوظ في خزانة في غرفتها، كما أعرف، وكان الأمر يتطلب خيانةً، لا أملكها، من أجل أن أفتح باب غرفتها وأبحث عن الذهب، الذي هو أيضًا لن يجلب الكثير.

فكرتُ في أشياء، لا ترقى للتفكير فيها، وأحصيت مدخراتي، وكانت كفيلةً بإعالتي عدة أشهر، إذا ما عملتُ موظفًا عندك في إدارة العشق أتقاضى الراتب المعنوي. فقط عليَّ أن أقلل من النفقات، لا آكل إلا في مطاعم الفقر، أو في بيتي وبأدنى المستويات، ولا أركب عربات أجرة يحلم سائقوها برئاسة نقابة، تمنيت لو أعرف مزاياها ذات يوم. ولا أنكر أنني فكرتُ في تسخير عفراء، جارتي، لتعدَّ وجباتي بعد أن تنتهي من عدة النفاس، وحقيقة، لم تكن عفراء بحاجةٍ إلى تسخيرٍ، إلا إذا كان وجود جعفر الجديد، سيقيدها إلى تلك الأمومة المزعجة.

قلتُ وأنا أقف أمام طاولة المدير، أراقب يده تفتح الأدراج تباعًا وتغلقها، كأنها تعزفُ مقطوعةً خاصة:

– صباح الخير سيدي.

ونفس رده حين وقفت أمامه للمرة الأولى، كأنه يصدر من آلة تسجيل:

– من المفترض أن تكون في الفصل في هذه الساعة.

وآلة تسجيلي الخاصة أيضًا ترد، ولكن بشيء من التعديل:

– نعم، ولكني لن أدرس بعد اليوم.

– ماذا؟

هتف المدير، وقد توقفت يده عن فتح الأدراج وإغلاقها، عن عزف المقطوعة النشاز، وارتفعت قليلًا في الهواء، كأنها تحتمي من ردي.

– وماذا ستفعل إذا لم تدرس؟

– حصلتُ على وظيفةٍ أخرى، عند أسماء.

قلتها وأنا جامدٌ، مُهندم اللسان، لا ترتعش أطرافي، ولم يكن على وجهي اصفرار أو آثار حُمى، وظنها المدير بنوايا مديري التعليم الحكومي الكلاسيكيين، وظيفةً في مدرسةٍ خاصة من تلك المدارس التي بدأت تنتشر مؤخرًا في البلاد، وتمنح رواتب أفضل حالًا للمعلمين، ولأنه لم يسمع بمدرسة اسمها أسماء، ولن يسمع بها بمجرد أن أغادر مكتبه، فقد أراد تفاصيل:

– وأين مدرسة أسماء هذه؟

– هنا.. في قلبي.

قلتُ، ووضعتُ يدي على صدري.

تغاضى المدير عن تلك الإجابة، غير اللائقة، أو هكذا تظاهر. عاد يسألني، وعيناه قلقتان:

– - وهل استشرتَ رئيس شعبتك في هذا الموضوع؟

– - نعم.. استشرتُ نفسي ووافقتْ بلا تردد. أنا رئيسُ الشعبة.

كان ذلك حقيقة يا أسماء، فقد كنتُ رئيس شعبة الكيمياء التي لا تضم سواي وشمس العلا، بحكم أقدميتي، ولا بد أن المدير يعرف، لكنني شوشت معرفته بتلك الإطلالات غير البريئة في نظره، واليوم بالذات كنت أطلبُ استقالتي، وهذا يعني أن يكمل معظم الطلاب، عامهم الدراسي بلا مادةٍ اسمها الكيمياء، لأن شمس العلا مهما كان عبقريًّا، وشابًّا، ويمكن أن يتمزق في التدريس، لن يستطيع أن يدرس مدرسةً كاملةً وحده.

في ذلك الصباح، لم يكن المدير بحاجةٍ لأن يترك مقعده وانشغال يده، ليحوم حول محيطي، يبحث عن الخلل، فقد كان الخلل كبيرًا وواضحًا أمام حواسه كلها.. مدرس يعثر على وظيفةٍ في قلبه. لن يكون ثمة جنون أكثر من

هـذا قـد صـادف المديـر طـوال عملـه في سـلك التعليـم، ولا أظنـه صـادف مديـر التعليـم، في المدينـة، ووزيـر التعليـم نفسـه. أمسـك بالقلـم، وقَّـع عـلى اسـتقالتي فـورًا، مضحيًـا بمعظـم طـلاب مدرسـته، أو لعـل ثمـة حـلًّا، تبـادر إلى ذهنـه في تلـك السـاعة، واسـتكمالًا لمـا يظنـه دورًا حيويًّـا لرجـال التعليم في توعيـة المجتمـع، كـما تبـادر إلى ذهنـي، قـال ويُحـاول أن يبـدو مبتسـمًا، وملامحـه بعيـدة جـدًّا عـن الابتسـامة:

– سـنفتقدك في المدرسـة كثـيرًا يـا أسـتاذ.. لكـن أنصحـك بعـرض نفسـك عـلى طبيـبٍ نفـسي.

ثـم فجـأةً، ومـن دون أن تصـدر منـي أي حركـة، تُنبـئ بأنهـا مـشروع إيـذاء، شـاهدت يـده تضغـط عـلى جـرس الخدمـة، المثبـت عـن يمينـه في الطاولـة، ثـم يـصرخ في حمـزة الفـراش بعـد أن جـاء خبًّـا، أن يرافقنـي إلى خـارج المكتـب بسرعـة.

لم أكـن لأسـمح لحمـزة الـذي يدلـق القهـوة عـلى الطاولـة ودفاتـر التحضـير، في كل مـرة يحضرهـا، أن يبـدو فتـوةً أو (بـودي جـارد) عـلى حسـابي، ولا كان في نيتـي إيـذاء أحـد حقيقـة، ولم أكـن مجنونًـا كـما تعرفـين ومـن ثـم اسـتدرت وأنـا أنحـي الفـراش جانبًـا، وأنطلـق لأسـلم اسـتقالتي الموقعـة، لقسـم الحسـابات مـن أجـل تسـوية معـاشي واسـتحقاقاتي

كمعلم نظيفٍ، خدم لأكثر من خمسة عشر عامًا، ولا يزال بالكاد يأكل..

لم تكن متعلقاتي الشخصية في المكتب الذي نشغله أنا وشمس العلا كثيرة، بالأصح لم تكن لدي أي متعلقات على الإطلاق، وتلك الأقلام المبعثرة على الطاولة والدفاتر والأوراق وألبوم الصور المخبأ في الدرج ويشتمل على صور حفلات التخريج السنوية التي تُقيمها المدرسة، لم تكن متعلقاتٍ، ويمكنني بكل سهولةٍ أن أتجاهل وجودها، أو أستدعي الفراش ليلقيها في أي مزبلة.

انتهيت أخيرًا من مسألة التعليم يا أسماء، انتهيتُ ويا لسعادتي. لن أحضِّر بعد اليوم، دروسًا خائبةً، لن أصنع من الأكسجين ماء على الورق، ولا من الكربون سمًّا قاتلًا، ولن أجلس أبله في معرضٍ بدائي، ينظم بلا معنى في كل عام، أشرح للمتبطلين، وصعاليك الشوارع والنساء المتبرجات خواص تلك القنبلة التي سقطت ذات يوم على هيروشيما اليابانية. أنا الآن موظف عندك، راتبي المعنوي كعاشقٍ مُعذبٍ، يكفيني، وما اعتزمت اقترافه في حي البستان، وكنت جادًّا للغاية، لم يكن الغرض منه أي ربح مادي، فقط هي سنارة صيد منقحة لاصطياد وجهك إن أطل، وللاستمرار في تثبيتك بحاستي المتمكنة، إن لم أعثر عليك.

أعـرفُ أن الأمـر، أعنـي مسـألة تـركي المدرسـة بهـذه الطريقـة، لـن تمـضي عـلى خـير، أعـرف مـاذا سـيُقال مـن خلفـي، وعـدد المصحـات الطبيـة التـي سـتُقترح لإيـوائي ومَـن مِـن أطبـاء النفـس في المدينـة والعاصمـة، قـادرٌ عـلى طبـي، وأعـرف أن الفـراش حمـزة، سـيتدخل ببدائيـةٍ، في نقاشـاتٍ قـد يجدهـا دائـرة في المدرسـة، ليقـترح دجـالًا مـن دجـالي الأحيـاء البعيـدة يشـفي المـرضى ويمكنـه أن يعـرض حالتـي عليـه. سيتسـاءل الكثـيرون: مـن هـي أسـماء التـي توظفـتُ عندهـا، وسـيرد المديـر بتلقائيـةٍ شـديدةٍ إنهـا في قلبـه، قـد يضحـك البعـضُ، قـد يبـكي الذيـن أخلصـت لهـم وأخلصـوا لي طـوال سـنواتٍ طويلـةٍ، وقـد يسـعى نفـرٌ مـن زمـلائي المعلمـين إلى بيتـي في حـي المسـاكن، ليسـألوا عـن الخطـب.

هل أنت خطبٌ يا أسماء؟

لا.. لا.. لـن أسـمح لأحـدٍ أن يُسـميك خطبًـا أبـدًا، وسـأتصدى لـكل الألسـنة التـي قـد تتبعنـي لاصطيـاد القصـة، مـن أجـل اسـتثمارها في نقـد التعليـم الحكومـي الـذي دائمًـا مـا يُوصـف بالتـدني.

خرجـتُ مـن المدرسـة، لا أتلفـت، ولا أحـسُّ بـأن الكشـك الصغـير المغـروس في الوسـط، والـذي طالمـا تناولـت فطـوري مـن إعـداده، سيشـكل مـادة فقـد أو حنـين، لا، ولا مكتبـي أو طاولتـي، ولا أدمغـة التلاميـذ، ولا شـجرة النيـم الوارفـة التـي

غرستها بيدي، في طرف الحوش، منذ أكثر من خمسة عشر عامًا. وحده شمس العلا من أريده أن يسألني، أن يراني من حينٍ لآخر، وأن يسمع قصتي كاملة كما سمعت قصته، يفهمني كما فهمته. وأظنني أعرف أنه لن يتركني، لأني تركتُ المدرسة.

أمام الباب رفعتُ رأسي، قرأتُ اللافتة الصدئة التي تساقطت بعض النقاط من حروفها: مدرسة المستقبل المتوسطة للبنين، وبدت لي غريبةً عني تمامًا، كأني لم أرها من قبل، ومرَّ باص متعجلٌ في الطريق، لمحتُ على ظهره كلمة أسماء، وكانت مفارقةً قاتلةً، أنني أحسستُ بانتماءٍ حقيقي لذلك الباص المتعجل.

ابتعدتُ بخطواتٍ، لن أطلق عليها: خطواتٍ واثقةً، ولن أقول بأنها لم تكن واثقةً، نوع من تلك الخطوات التي تحتمل الإقدام وتحتمل التردد معًا. وجهتي الجميلة، اللذيذة الطاعمة، تعرفينها جيدًا، ويعرفها كثير من سائقي عربات الأجرة الذين لم يرشحهم زملاؤهم لرئاسة النقابة بسبب الحسد، إنها حي البستان بالطبع، ووجهتي التي لا بد أن أتجه إليها الآن، لم أحبها وكنت مضطرًا لها. سأذهب إلى بنك "المدخرات" الوطني، حيث يعمل قريبي عبد القادر، موظفًا في قسم القروض، ليست لديَّ حيلةٌ أخرى، سوى رهن بيتي، مهما كان تقييمه، تلك الفكرة

التي طرأت عليَّ من قبل، واستسخفتها. سخيفة بالفعل، لكنها جديرة بأن أتبعها.

في جلسةٍ سابقةٍ مع عبد القادر، ربما قبل أربع أو خمس سنوات، دعاني هو لترك التعليم غير المُجدي، ودخول عالم الاستثمار، وسيعمل شريكًا سريًّا معي. يوفر لي القرض، ويدير استثمارنا من خلف ستار لا يمكن الإبصار عبره. كان يريد أن يثرى بأي طريقةٍ، ويعرف أن قوانين مصرفه تمنع ذلك الطموح بشدة، ولو عثر على غطاء غشيم مثلي ستسير الأمور على ما يُرام، وبالطبع رفضتُ عرضه بشدةٍ، واليوم أحس بأنني بحاجةٍ لعرضٍ جديدٍ.

لم أكن واثقًا بالطبع بأنني سأحصل على قرضٍ مِن رهن بيتي كما ذكرتُ من قبل، ولا أعرف ردة الفعل التي قد تحدث عند عبد القادر حين يرى وجهي أمامه، ولم أكن من الذين تقاطروا لزيارة أخته المراهقة المسكينة في المستشفى، بعد أن سعت للموت بصبغة الشعر، كما سمعتُ، لكنها لم تمت وخرجت من المستشفى إلى حياتها التعسة مجددًا. كنتُ خجلًا من مواجهة أهلها حين فرَّت إلى بيت حلاق أعزب، وظللت خجلًا، حتى لم يعد بإمكاني أن أسأل. وقد أخبرني قريبٌ آخر صادفته مرةً في السوق، بأنه ذهب وشاهدها، وكاد يبصقُ على وجهها، حتى وهي

في حالةٍ حرجةٍ. وأضاف بأنه كان سيسقيها صبغة الشعر بنفسه، لو كانت ابنته.

أنا الذي صنعت ردة فعلي كأني عبد القادر، أو كأني أمه، في تلك اللحظة، صرختُ في وجه الرجل وطردته من صلتي نهائيًّا، ولن أقرئه حتى السلام إذا ما صادفته مرة أخرى.

ليس من العدل أن تموت فتاةٌ لأنها أحبَّت، أو اختارت رجلها وفرَّت معه، وليس من العدل أن أُوصف فاجرًا أو ضالًا بلغة ألماني- " أبو الصاحب" ، لأني أحبك.

عند باب البنك، كان شلال المجنون، الذي يعرفه أهل المدينة كلهم، وتعرفينه بلا شك، يغني ويرقص بما يظنه استعراضًا أوبراليًّا حقيقيًّا، وقليل من المارة يتوقفون لمشاهدته، ذلك أن شلالًا لم يعد جديدًا، ولم يعد ذا طعم يُغري الطريق باستنشاقه. وعلى مقربة من المكان كان ثمة طعم آخر، هو الذي شد الطريق بتمكن، إنه سليمان القزم، الذي لا يتعدى طوله مترًا واحدًا، وقد كان من أبناء المدينة وهاجر إلى العاصمة ليصبح واحدًا من أبطال السيرك الوطني، لكنه يأتي من حينٍ لآخر.

كان يتقافزُ في فقرة السيرك برشاقةٍ، ويُلقي بالنكات، وتعشقه فتاةٌ جميلةٌ، يؤديان معًا رقصةً خالدةً. وكان في

تلك اللحظة مُحاطًا بحشودٍ غير عاديةٍ، يوقع لهم على بطاقات صفراء، يُخرجها من جيبه.

عثرتُ على عبد القادر، يجلس إلى طاولةٍ صغيرةٍ، في وسط الصالة العريضة للبنك، والتي جلس على امتدادها موظفون آخرون، كل ينحني، يتفحص أوراقًا أمامه، أو يوقعها، أو يُمزق ورقةً يُلقيها على سلة.

ناديته من خلف الزجاج العازل، فلم يسمعني، ناديته بعد أن تحرك من مكانه وتجوَّل قليلًا في الصالة وانتزع ورقةً من جهاز فاكس، وسقطت عيناه على الصالة الخارجية حيث أقف بجانب عددٍ من المراجعين، ولم ينتبه أيضًا. ظللت حوالي الساعة أتتبع نشاطه وخموله، انشغاله وعدم انشغاله، وحين يجلس ممدد الركبتيْن يشرب شايًا، وحين نهض أخيرًا واقترب من الحاجز الزجاجي حيث الصراف، ليلتقط بعض الأوراق المصرفية، لمحني، وأشار إليَّ أن أدخل من بابٍ صغيرٍ في آخر الصالة. لقد نجحتُ أخيرًا وتنهدتُ، وكنتُ في غاية الكآبة أنني أضعتُ ساعةً كاملةً، كان يُمكنني فيها أن أعيش في حبك، أو على الأقل، كنتُ قد وصلت حي البستان، وبدأتُ النبش، كما أفعل عادة.

حين جلستُ أمامه، بدا لي أنني أجلس أمام والده الراحل، فقد كان النسخة الشابة منه، لكنه كبر فجأةً في تلك الأيام التي لم أره فيها، وأعني من يوم أن أقلقت شهر

عسـله، وأنـا أبحـث عـن الصـور، والآن قـد انتهـى العسـل، ولا بـد أن مـا حـدث لأختـه، قـد تـرك تلـك الظـلال الكثيفـة حـول عينيْـه، وأنبـت ذلـك الشـعر الأبيـض في رأسـه. أظنـه يحترمنـي، يحترمنـي بشـدة، وأكاد أجـزم بأننـي الوحيـد مـن أقاربـه، الـذي كان بـلا أنـفٍ، جـاء ليشـم بـه سـقطة العائلـة.

لم أسـأله عـن أي شيءٍ لا حالـه ولا حـال زوجتـه، وأختـه، ولا سـألت ذلـك السـؤال التقليـدي المُقـرف الـذي يُسـأل عنـه كل زوجـيْن أتمـا فـترةً لا بـأس بهـا مـن عمـر الـزواج: هـل أصبحتـم ثلاثـة؟

– تفضل يا أستاذ!

كان يطلـب مدخـلًا، ومنحتـه المدخـل بـلا أي مزاليـج تعـوق ولوجـه. حدثتـه عـن اسـتقالتي بسـبب عـدم القـدرة عـلى الحيـاة براتـبٍ لا يتقاضـاه حتـى المتسـولون. بدليـل أننـي لم أتـزوج حتـى الآن، عـن حاجتـي لقـرضٍ أدبـر بـه مشروعًـا صغيـرًا وأسـدد فوائـده مـن الدخـل الـذي ينتـج، ولم أقصـده إلا لثقتـي الكبـيرة أننـي أقصـد رجـلًا لـن يـردني.

بـدا لي أن عبـد القـادر سـيضحك، التهبـت الضحكـة في حلقـه، وسـمعتُ بدايـات قرقرتهـا، لكنهـا لم تخـرج، أكيـد أن الهـمَّ الشـخصي الـذي يحملـه، أعـاق خروجهـا.

– هل تطلب قرضًا مني شخصيًّا أم من البنك؟

كان يسألني.

– من البنك طبعًا.

– ولماذا رفضتَ حين عرضت عليك الأمر قبل عدة سنوات؟

لقد أعمل ذاكرته في جحودي، وأنني كنتُ خسيسًا، وساهمت بجدارةٍ في إجهاض طموحه، وأظنه لم يعثر على بديلٍ لي منذ ذلك الحين، لأنني لم أسمع به قد اغتنى في يومٍ من الأيام. كانت حياته عادية، وحتى الآن لا يمتلك عربة، وذلك البيت الصغير الذي استأجره في وسط المدينة، لم يكن بيت رجل يملك غير راتبه. لقد بررت له الأمر، في تلك الأيام بأنني خُلقتُ معلمًا في المدارس، وسأظل معلمًا فيها حتى أموت، وللأسف فإن ذلك لم يحدث، وأكيد يحتاج إلى مبررٍ آخر في تلك اللحظة، وقلتُ محاولًا أن أجعله مبررًا يعتمد عليه:

– كانت الحياة أفضل، وكنتُ أحب التعليم، والآن تغير الوضع كما أخبرتك.

– تغير الوضع.

قال وهو يحك رأسه، وأنتظر في لهفة.

وفي تطور مباغتٍ، أو تحريفٍ مباغتٍ لمسار الأعمال المصرفية التي بدأنا بمناقشتها، سألني فجأة:

– هل عثرت على أسماء التي كنت تبحث عنها؟

بوغتُّ يا أسماء، بوغتُّ حقيقة، وشاهدتُ بخيالي تلك الطرق الطويلة التي مشيتها، وليالي الأرق التي تعذبت بها، تتضاحك بعنف.

لم ينس ذلك القريب بأنني ارتعشتُ أمام بابه ذات يومٍ، وتهشمت، أبحث عن صورةٍ لك. والآن وجدتُ نفسي بلا لسانٍ يرد. وأسمعه يُضاعف السؤال:

– صحيح يا أستاذ.. مَن هي أسماء تلك؟ ولماذا كنتَ منفعلًا، وتالف الأعصاب وأنت تسأل عنها؟ لم أسألك في ذلك اليوم حتى لا أحرجك أمام زوجتي، كان سلوكك غريبًا بحق.

لو أخبرته بما حدث من يوم حفل عرسه، وما يحدث حتى هذه اللحظة، وقد مضت أكثر من ثلاثة أشهر حتى الآن، لأمسكني من يدي، وجرني بنفسه، إلى أقرب مشفى، يقبل بإيواء فقراء المجانين، ولو كذبتُ عليه، حرفت القصة، واخترعت لك تعريفًا آخر، غير معشوقتي التي سأموتُ من أجلها، سأكون خائنًا لحبك، ووغدًا يستحق أن يعلق من قدميه ويُسلخ، ولو جمدت في جلستي تلك بلا حراكٍ، وجمدت لساني، لربما ترك سؤاله، ومضاعفات سؤاله وعاد إلى سيرة القرض مرة أخرى.

كنتُ أتصارع في داخلي وأنا أبحثُ عن حلٍّ وسط، لا يلوي نزاهتي، ولا يدرجني بائسًا يستحق العطف. تنحنحت لأرد، ولم يكن الرد قد تجمَّع في ذهني بعد، ولكن من حسن حظي، أن جاء أحد الفراشين راكضًا، ليُخبر قريبي بأن المدير يطلبه. أشار لي أن أنتظر، وذهب وما أزال أنحتُ مفردات الدنيا كلها أبحث عن قصةٍ مشروعةٍ، لا تشوهك، حتى إذا ما عاد وأعاد سؤاله، تصديتُ له.

-١٣-

الأمنيون في حي المساكن يا أسماء.

الأمنيـون في بيتـي وبيـت فـاروق كولمبـس، وحليمـو، وأي بيـتٍ آخـر تتخيلـين تضاريسـه في ذلـك الحـي الشـعبي المسـكين، وحكيـم الـدرل، رجـل النوايـا السـيئة والمهـام الصعبـة، الـذي شـكلت واحـدةً مـن مهامـه، أيـام اختفـاء أخـي بخـاري، وخرجـت بـلا معنويـاتٍ، متوافـر بنفسـه، ويُـشرف عـلى تلـك المهمـة الغريبـة حقًّـا في حيِّنـا.

لا.. لا تنزعجـي يـا أسـماء، فليسـت مهمـة إضافـة جديـدة للشـقاء، ولا حذفًـا مـن بهجـة الدنيا، كـما قد تتصوريـن، ولكنها مهمـة ترفيهيـة بحتـة، لم تكـن بحاجـة لـكل ذلـك الاسـتنفار. وكل تلـك النرفـزات، والأصـوات الصائحـة، والأسـلحة، وأجهـزة الراديـو، وغيرهـا مـن متطلبـات المهـام الوطنيـة العنيفـة.

كان الأمنيون منتشرين بغزارة، وقد ارتدوا ملابس عشوائية تُشبه أي ملابس يرتديها أي شخص. يجمعون الناس، يحشرونهم في عرباتٍ كبيرةٍ من نوع (تاتا) الهندية بلا لونٍ محدد ولا لوحات مرورية، ويذهبون بهم إلى حيث سيقام حفل العرس البهيج، عرس المستثمر الوطني قدسي قرياقوس على مريا البيضاء، أخت ألبيرت الحداد، وكان للمصادفة الغريبة، ستجرى مراسمه في النادي الطلياني، حيث التقيتك ذات خميس، ودخلتني ولم تخرجي مني أبدًا بعد ذلك. لم تكن ثمة بطاقات أنيقة للدعوة قد وزعت، كما هو مفترض، وكانت تلك البطاقات الغريبة، أيدي الأمنيين التي تذهب بالناس للعرس.

لم أحصل على القرض من عند قريبي عبد القادر، في ذلك اليوم الذي ذهبت فيه إلى مصرفه، كما كنتُ آمل، وأوشك أن يوقع بي باستفساره عنك. وكنت في مرحلة دسك في قلبي ما أزال، ليس لأنك خطيئة أو عيبًا بالطبع، وتعرفين ذلك جيدًا، إنما كان ذلك ضرورة، من ضرورات مرحلة العشق التي أعيشها في تلك الأيام، وأردت بأنانيةٍ مفرطةٍ، أن أبقي العشق بداخلي، لي وحدي، وكوني صرحت باسمك أمام مدير المدرسة، صاحب اليد المنشغلة، وأنا أنتظر توقيعه على استقالتي، فلن يحدث شيء على الإطلاق، ولن يعرف أحدٌ أنني كنتُ أصرح باسم كوكبٍ مضيء، سيعتبر الأمر جنونًا، بلا أي تفسير آخر. عبد القادر

يختلف، يختلف كثيرًا، لأنني قصدته شخصيًّا ذات يوم، وسألت عنك بمنتهى الصراحة المرتبكة.

في ذلك اليوم الذي جلستُ فيه، معه في البنك، لم يكن ضدي في مسألة القرض على الإطلاق، وكان مُستعدًّا لتيسيره، ومنحي إياه في أقصر وقتٍ ممكنٍ وكان على استعدادٍ لتقييم بيتي بأكثر مما يستحق، من أجل ذلك. ما أعاق المشروع، وألغاه تمامًا، سبب لم أنتبه إليه من قبل، وانتبه إليه قريبي، لأن جزءًا من تخصصه، أن ينتبه إلى أخطاء المعاملات ويُصححها، وهو أن بيتي لم يكن بيتي الخالص حقيقةً، كان بيتًا موروثًا، وأحد طرفي الورثة، أعني أخي بخاري، ما زال مفقودًا، بلا أي دليلٍ يُصنفه ميتًا تصح وراثته.

أقول لك الحق، إنني لم أحزن أبدًا لخسارة القرض، وسأفعل أي شيء آخر لأقيم قريبًا منك في حي البستان، الشيء الذي أحزنني هو أنني تذكرتُ بخاري فجأةً، تذكرتُ أن لي أخًا تسرَّب من أمامي بغتةً، ولم أسع إلى تسقُّط فراره، ومحاولة إعادته إلى حياتي، بصورةٍ جادةٍ. لم أسافر خارج المدينة، كما كان ينبغي عليَّ أن أفعل، لم أرسل خطابات استغاثة وترحُّم إلى السلطة التي طاردته، كي تعفو عنه وتُعيده بوسائلها الخاصة، وفي إحدى المرات، التقيت بأحد أصدقائه البعثيين، وكان قد انحنى للسلطة

حتى لامس فجوره الأرض، مزَّق أوراق انتمائه السابق كلها، ووقف في عددٍ من جلسات المحاكمة التي أقيمت لإدانة زملائه الذين سقطوا ولم يكتمل فرارهم كبخاري، وقف ليشهد ضدهم، وضد الأفكار التي يحملونها، وتحدَّث عن رغبته في تأليف كتابٍ يضم فضائح ذلك التنظيم الرهيب. قال لي بأن أخي، ليس مناضلًا على الإطلاق، هو سخل ليس إلَّا وعليَّ أن أخبره حين أعثر عليه، بأن ينظف جلده من تلك القذارات.

غضبتُ وكان لا بد أن أغضب، لم أكن من عُشاق أفكار حزب البعث بأي حالٍ من الأحوال، ولم أكن أعرف أصلًا أن أخي بعثي، وأنا أعيشُ معه حياة الإخوة المعتادة، وعلى الرغم من ذلك غضبت. جاءتني رغبةٌ عنيفةٌ، أن أبصق على وجهه، وقمعتها في آخر لحظةٍ، ذلك حين تذكرت الدهاليز المُظلمة، وتذكرت حكيم الدرل وغيره من عاجني خبز الضرر، في ذلك الظلام القاحل. ذهبتُ عنه، وما زلتُ أغلي في داخلي، وبحثتُ في غرفتي، حيث أعرفُ أن ثمة صورةً تجمعه ببخاري وآخرين، في حفلٍ خاص، وكنتُ أظنها صورةً بريئةً. لم أمزقها، فقط طمستُ عينيْه اللتين كانتا تضحكان في الصورة.

على نقيضٍ آخر، كان "فيصل خريف"، زميل آخر من بعثيي بخاري. وكان أكثر شجاعة، ذلك أنه انتظر في

بيت أسرته حتى جاءه الغزو، وسلم يديْه لحكيم الدرل، طائعًا، وقضى خمس سنواتٍ كاملةٍ في السجن، قبل أن يخرج في عفوٍ رئاسي، صدر بمناسبة أحد الأعياد. التقيته مصادفةً أيضًا قبل عامين، وعرض عليَّ بإصرارٍ، أن يساعدني في البحث عن بخاري وتسقُّط أخباره، لكنه للأسف، كان مجرد سجينٍ سابقٍ، موضوعًا تحت المراقبة الصارمة، ولا يحق له حتى أن يحك رأسه، أو يحفَّ شاربه، من دون أن يُسجل متابعوه، أنه حكَّ رأسه، وحفَّ شاربه.

لقد ذهبتُ إلى حيِّكم، حي البستان يا أسماء. عدة أيامٍ وأنا أذهب، وأعود ولا يفرُّ مني الأمل، وفي أحد الأيام وجدتُ البيت الذي كان معروضًا للبيع مفتوحًا، نصف فتحة، أسرعتُ لطرقه وأنا ألهث، وانفتح كاملًا لدهشتي الشديدة. ولم أكن مُستعدًّا بعدُ، لأبرر طرقي في صباحٍ مُبكر كالذي ذهبتُ فيه. فتحتْ لي امرأةٌ ناعمةٌ وشديدةٌ الملاحة، ترتدي قميصًا بيتيًّا نظيفًا، وتضع على شعرها عددًا من الرولات المعروفة في تصفيف الشعر، والتي أزعم أنها لم تُوضع على شعر امرأةٍ في حي المساكن بعد.

لم تتلكأ المرأة كثيرًا في وجهي ولم تُقيِّم ثيابي وعطري، ورائحة النشاز في جلدي، أو تظن بأنني سباك أو بستاني يبحثُ عن عمل. سألتني مباشرةً مستخدمةً لقب سيدي، إن كان بإمكانها أن تخدمني في شيء. وباستثارة من ذلك

اللطف الكبير، خرجتْ من حلقي عبارات التبرير سلسةً، قلتُ:

– آسف للإزعاج يا سيدتي، أخبرني بعض الأصدقاء بأن هذا البيت معروضٌ للبيع، وأتيتُ لهذا السبب.

– كان معروضًا للبيع، هذا صحيح، واشتريناه نحن.

ردت، وألمح طفلًا غزير الشعر، يطل برأسه عبر الباب، ويختفي. قلتُ بلا وعي:

– آه.. مبروك.. ولكن مَن هي صاحبته؟

هذا هو السؤال الذي سيُربك السيدة الناعمة المليحة، قليلًا، وفي مجتمعٍ تُسيطر عليه الذكورة بشدةٍ، كان لا بد أن أسأل عن صاحب البيت، وليست صاحبته، حتى لو كانت امرأةً بالفعل. أظنها ذكيةً أيضًا، وتُشبه إلى حدٍّ ما، نساء الاتحاد الاشتراكي الفخمات، ذلك التنظيم الذي أوجدته السلطة الحاكمة، أخلت له جميع مقاعد التسلط، ليجلسَ عليها وحده، وتوشك أن تُعممه على الناس في أحلامهم.

– آسفة يا سيد.. اشتريناه من شخصٍ يعمل خارج البلاد. وقد غادر بعد أن تم البيع، اسمه صالح عبد الله. هل تعرفه؟

– - لا..

قلتُ للمرأة، وأعطيتها ظهري من دون أن أشكرها حتى على الوقوف على عتبة بيتها عدة دقائق، ومناقشة واحدٍ مثلي، لا يُشبه ساكنًا محتملًا لحي البستان، ومشيتُ في الطريق أفكر بعنفٍ، وتبدو لي الحياة ثقبًا ضيقًا إلى أبعد حدٍّ. حتى المفتاح الذي كان من المفترض أن يدور في معضلتي العصيَّة، ويمكن أن يفتحها، اختفى يا أسماء.. اشتروا البيت من رجلٍ يعمل خارج البلاد، وأنا شاهدته ربما قبل أن يشاهدوه، والتقيتُ امرأةً تعرفك، وبحثتُ عنك مثلي في ليلة العرس، حين اختفيتُ فجأةً، وكانت تملك، وتُدير التفاوض، وتستحثني أن أسرع إن كنتُ أريد الشراء، لأن كثيرين سألوا.

كان من غير المنطقي، بل من العبط الكبير أن أسأل المرأة المليحة، هل هذا المغترب متزوج؟ مَن هي زوجته؟ وهل تُقيم هنا أم معه بالخارج؟

هذه ليست أسئلةً بمقاييس الأسئلة التي فصلت للاستفهام، في هذه المواقف، وبالنسبة للقلب المُحب الواجف، أعظم أسئلة، فقط تحتاجُ إلى من يمنحها مساحةً من التسامح، كي تخرجَ من الأعماق.

من بعيدٍ شاهدتُ ألبيرت راجي الحداد، يتحاوم بعربته المكشوفة القديمة، وقد انحنت من تحميلها بأبواب ونوافذ من الحديد، والألمونيوم، واختبأتُ داخل

بيتٍ تحت الإنشاء حتى لا يلمحني، عُدت لأتسكع أمام الخياط النسائي من بعيدٍ، حتى لا أثير ريبته، أو ريبة مساعدته الصغيرة الحجم، إن صادف وخرج أحدهما لأي سببٍ، وأرى عددًا من الخامات الناعمة، تدخل وتخرج، وتهمسُ وتضحكُ، وأشتهي لو نطقت واحدةٌ باسمك، مجرد نطق، حتى أجند حواسي لالتقاطه، وربما أتبعها إلى حيث يمكن أن أعثر على شيء.

أنا الآن حرٌّ تمامًا، حرٌّ في الحركة، في التلصص، في سرقة الفرح من أي جهةٍ تتركه بلا رقابةٍ، ولا وجود لتلميذٍ أدرسه، كي يُصادفني ويعوق تنفسي، ولا أب منزعجٌ بأدائي، يُباغتني فجأةً، ويذكرني أنني أنتمي لمدرسةٍ فيها ابنه، ولو أردتُ البكاء حتى في الشارع العام، سأبكي.

بهذه الفلسفة الجديدة، المُبهجة، رددت على زملائي المعلمين الذين تجمَّعوا، وغزوا بيتي لأول مرةٍ، يوم أن استقلت وغادرتُ التعليم بلا رجعةٍ، قلتُ لهم بأنني أملك قناعتي، وسأظل أملكها حتى أموت، ولم يجرؤ أحدهم على الاستفسار عن تلك الأسماء التي في القلب، وسأعمل عندها، ذهبوا، وأكرمتهم كرمًا، لا يمكن أن يحدث في بيت مجنون، وكان الجنون، هو تلك هي الفكرة التي قدموا بها إليَّ، كما أخبرتني حاستي المتمكنة، وما شممته بسهولةٍ من السلوك القلق لبعضهم، وأنهم كانوا يتحدثون،

وأعينهم تتقافزُ في المكان بلا ثباتٍ. وودعتهم حتى باب البيت لأعثر على حمزة الفراش يتلكأ أمام الباب، وأعرفُ أن في ذهنه دجالًا شعبيًّا قد يُعيدني إلى الوعي، كما يظن، ويخاف أن يُواجهني به. لم يكن شمس العلا من بين تلك الحملة الغازية، لكنه جاء وحده في آخر المساء، ولم يجلس كثيرًا، فقط عدة دقائق، لم تسمح له حتى بتلميع حذائه جيدًا، ولم أستطع أن أحكي له قصتك كاملة، بعض مقاطع رددتها، وأشك بأنها دخلتْ أذنيْه.

انتبهتُ وأنا أمشي في الطريق، بعد أن شبعتُ من الكآبة بالقرب من الخياط النسائي، إلى أن أحدهم يتبعني. لم أجرؤ على الالتفات مخافةً أن يكون أذى سلَّطه أهل حي البستان لملاحقتي بعد أن ترددتُ على الحيِّ كثيرًا، وأصبح وجهي مألوفًا حتى للأطفال الصغار، والخادمات الإثيوبيات اللائي يتبعنهم، وغازلتني مرة إحداهن، ولم أفهم لغتها الراطنة، ولا لغة عينيْها، وفررتُ. أيضًا خفتُ بشدةٍ أن يكون الوطني المزعوم قدسي قرياقوس، قد غيَّر أقواله، وأدرج بيتي، من ضمن آليات الخيانة التي جرتْ وقائعها في حي المساكن، وأصبحتْ واحدة من مهام حكيم الدرل العاجلة. وأطل في ذاكرتي وجه ألماني المذعور، ولم أستطع حذفه. خفتُ بشدةٍ يا أسماء، ولكن على الرغم من ذلك، لم تنقشع كآبتي الأخَّاذة بسبب الخوف، ظللتُ ممسكًا بالخوف وبالكآبة في نفس الوقت، وأجدُّ في السير

وأوشك أن أركض، ثم لأسمع صوتًا شبه مألوفٍ يُناديني: يا أستاذ.. وأتوقف.

أقول لك الحق، وأظنها شهادةً رائعةً في حق عشقي لك، أنه غطى الذهن، حتى لم تعد ثمة مساحةٌ فارغةٌ لاستيعاب غيره من الحوادث، ولذلك لم يكن مستبعدًا أبدًا، أن تُقال وزارة تاجر العملة العاصمي، بقرارٍ جمهوري مُفاجئ، ويُسَّرح وزراؤها، ولا أسمع بذلك، أن يفقد ابن حيي السابق، طلحة رضوان، منصبه، ويأتي مواطنًا عاديًّا، ليقيم في حي البستان، ولا أسمع. الحقيقة أنني استغربتُ بشدةٍ حين أخبرني، وهو يشد على يدي، بيدٍ ناعمةٍ، خلتها ستُجرح من عناق أصابعي الخشنة، واستغربت أكثر، أن كولمبس، جاري اللصيق، أو أحدًا غيره في حي المساكن، لم يُخبرني، وبدهي أنهم يعرفون، وكم من مرةٍ سمعتُ حكاياتٍ رائجةً عن الوزير طلحة، لا أستطيع أن أجزم بصحتها أو عدم صحتها، توزع في الحي، ويأكلها السكان مثل الخبز. ولأن لقب سعادتك، لقب دائم لكل من تذوق لحم الوزارات، حتى لو كان ذلك عدة أيام أو أشهر، فقط، فقد استخدمته بشدة، وأنا أشد على اليد الناعمة، وأتأمل وجه رجلٍ، كان على حق، حين تنفض من معرفة أمونة، وقاذورات حي المساكن كلها، حين دلقناها على مزاجه ذات يوم. وقد كان يسكن في حي متوسط، بعد أن اشتغل بتجارة العملة، والآن يسكن في

حـي البسـتان، ومـررتُ بـباب بيتـه مـن دون أن أدري، وحتـى لـو كنـتُ أدري مـا كنـتُ سـأطرق بابـه عـلى الإطـلاق. مـا حـيَّرني أكـثر وأنـا أدخـل صالونـه الأنيـق وأشـم عطـر البسـتان لأول مـرة، مـن داخـل إحـدى رياضـه، هـو سـبب اهتمامـه بي وملاحقتـي في الطريـق، ودعـوتي بـإصرارٍ أن أدخـل بيتـه. صحيـح أننـا نشـأنا معًـا في نفـس الحـي، لكـن الهـوة الطبقيـة بيننـا، اتسـعتْ بجـدارةٍ، ولـن يعـودَ بالإمـكان أن نقـتربَ مـن بعضنـا أبـدًا.

وأنـا أتجـول بعينـي في اللوحـات المُعلقـة والصـور الشـخصية لمئـات الاحتفـالات والمؤتمـرات وشـوارع أوربـا ومعالمهـا، وضحـكات سـعادته أمـام كنيسـة مـار بطـرس في رومـا، وداخـل متحـف التاريـخ الطبيعـي في لوكسـمبورج، خطـر لي هاجـسٌ أزعجنـي بشـدةٍ أن أرى صورتـك وسـطها، بوصفـك زوجتـه، أو أخـت زوجتـه، أو صديقـة للعائلـة، لكـن ذلـك لم يحـدث لحسـن الحـظ.

أول مفاجـأة تلقيتهـا مـن السـيد الوزيـر، في سلسـلة مفاجآتـه المهمـة، والمدهشـة في ذلـك الصبـاح، هـي أن باغتنـي بسـؤالٍ هامـسٍ، وهـو يُقـدم لي عصـير البرتقـال بنفسـه في كـوبٍ مـن زجـاجٍ، لم أر مثلـه، أو أسـمع بـه مـن قبـل:

– صحيـح يـا أسـتاذ.. هـل عـادت أمونـة إلى المدينـة مـرةً أخـرى، بعـد أن تزوجـت وسـافرت؟

– أمونة؟.. مَن أمونة سعادتك؟

كنتُ أسأل حقيقةً، وقد طارت ثوابت كثيرة من ذهني، من بينها أن ثمة فتاةً كان اسمها أمونة، أحبها رجلٌ كان من حي المساكن، منذ أكثر من عشرين عامًا، وخرج منه، واغتنى، واختير وزيرًا، وأعفي من منصبه، واقترب من الخمسين، وما زالت ترعى في ذاكرته، على الرغم من أنه أنكرها أمام وفدنا البائس في أحد الأيام.

أمونة؟

والوزير يرد بصوتٍ ازداد همسًا، وقد جلس بجانبي على كنبةٍ واسعةٍ، ضمتنا نحن الاثنين بلا تذمر:

– أمونة عوض السيد يا أخي. كانت فتاةً رائعةً.

– لا أعتقد سعادتك، لم أسمع أنها جاءت مرةً أخرى.

أجبته، وأنا لستُ مُستغربًا أبدًا، ولكن في قمة السعادة.

هل تدرين ما معنى ذلك يا أسماء؟

لقد بيَّن ذلك السؤال، وتلك الرعشة التي شاهدتها جليةً تتراقص في شفتيْ الوزير، وتسري في همسته، أن لا أحدَ ينسى حبه الأول، حتى لو كان حبًّا مهلهلًا، مسكينًا، نبت في حي، لا تنبتُ فيه الزهور إلا نادرًا، وقد أحب سعادته نبتةً حجريةً، كان يمكن أن يركلها بجبلٍ من النسيان، بعد أن تغيرتْ ظروفه، وأصبح من الممكن جدًّا،

أن يحب نجمةً في السماء، وتتدلى استجابةً لحبه. إذن أنا في الطريق الصحيح، حبك هو الأول، وهو الأخير أيضًا.

هنأتُ نفسي في السر، وارتشفتُ أكبر رشفةٍ من برتقال الوزير، وأنا أضع ساقًا على ساقٍ. جاءت خادمةٌ إثيوبية، وضعتْ طبقًا من تمر المدينة المنورة الفاخر أمامي وذهبتْ، وجاء بستاني أعرج، شبيه بأغلب سكان حي المساكن، لكنه لم يكن منهم، حيانا بتحيتيْن مختلفتيْن تمامًا، واحدة كبيرة القياس خصَّ بها الوزير، وأخرى ضيقة جدًّا، لم تتعد كلمة: سلام، وجَّهها لي بلا حماسٍ وانصرف.

الآن أنا في ضيافة الوزير بجدارةٍ، في بيته وعالمه الجديد على فهمي، والأهم من ذلك، في حي البستان، من دون تسكعٍ في الشوارع، وإثارة للتساؤل واستياء السكان، وقد فكرتُ أن أطلب منه وظيفةً تُبقيني في حديقة الزهور هذه، قريبًا من طيفك، حتى لو لم يتعد الأمر مجاورة طيفٍ، لكن طلبه كان أسرع، تنحنح قليلًا وهو يقول:

– أبحث عن معلم جيد لتدريس ولدي الصغير في البيت، وأفضل أن يكون متفرغًا ولا يعمل في مدرسةٍ، هل تعرف أحدًا من زملائك بهذه المواصفات؟

لن أقول لك يا أسماء، بأنني ضحكتُ، وأزعم أنك خمنت ضحكتي، وانهيار توازني، ويمكن أن تكوني قد سمعتِ رقصات غازات الانفعال بداخلي، على الرغم من

أن توجيه ذلك العرض إلى نفسي، وقبوله بعد ذلك، قد يُعد خيانةً لإنهاء علاقتي بالتعليم، التي نفذتها بشجاعةٍ، من أجل أن أتوظف عندك. لكن لا تتسرعي بالحكم عليَّ، وأنني من النوع الذي يتجاهل قراراته، من أجل منفعةٍ. نعم تجاهلتُ قراري في تلك اللحظة، ولكن من أجلك، وفلسفتُ القرار بسرعةٍ شديدةٍ، حتى أضحى مفصلًا على التعليم النظامي وحده، القرار لا يخص حي البستان، وتدريس ولد صغير، بلا أي شك. لقد عثرت على الغراء الذي يلصقني بقربك في حي أعرف تمامًا، أنك إحدى أزهاره، بل زهرته الأكثر شذى، ولن أفلته، سأقول لسعادته، إنني تركتُ التعليم في مدارس الحكومة، وإنني أتيتُ إلى هنا لمقابلة شخصٍ عرض عليَّ تدريس أبنائه، وأن العرض لم يُعجبني، ويُمكنني أن أقبل بعرضه، وهذا ما حدث.

تقبلني الوزير بلا أي تعقيدٍ، وعرض عليَّ راتبًا لم يكن أخاذًا أو مُشعًّا، لكن إضافته للراتب المعنوي باعتبار أن وجودي بقربك راتبٌ معنوي، جعله شبيهًا برواتب مديري التعليم كلهم، سأدرِّس ولد الوزير مواد في غاية البساطة، لا تحتاجُ حقيقةً لمدرسٍ خاص، لكن الوجاهة الاجتماعية ووفرة المال، ما جعلت من الأمر ضرورةً ملحة. سآتي يوميًّا في ساعات العصر، ما عدا عصر الخميس، وفي أول المساء أكون حرًّا في التصعلك في شوارع الحي، ومحاولة

التقاطك، ولن يتساءل أحدٌ عن هويتي، وأنني غريبٌ، لأن ما يحدث في بيت وزير حتى لو كان سابقًا، يُعتبر من المقدسات.

أبارك لنفسي يا أسماء، أبارك لها غِراء الالتصاق بقربك، وسأحتفل اليوم في بيتي أو أي مكانٍ آخر، بذلك النصر الكبير.

سلمني الوزير شيكًا على المصرف الذي يعمل فيه عبد القادر، عبارة عن أتعابي مُقدمًا لشهرٍ كاملٍ، ونادى على الولد الصغير لأراه، وقد كان في حوالي السابعة من عمره، عنيفًا بعض الشيء، وكثير الحركة، واستفزَّ أنفي بأن حكه بظفر ناتئ، وملابسي حين سألني عن ماركتها، وكانت للأسف، ملابس تُشبهني وأشبهها، اقتنيتها من أسواق الشعبيين التي لا تحتفي بالماركات، من قريبٍ أو بعيدٍ.

في ذلك اليوم، خرجتُ من عند الوزير، منتفخًا بهجةً، أتجشأ فرحًا، استوقفتُ أفضل سيارة أجرة مرَّت بالطريق، سيارة من نوع الكرسيدا اليابانية، جديدة ونظيفة ومكيفة الهواء، ومفروشة بالجلد الناعم، ويقودها سائقٌ يبدو في هيئة وكيل وزارة، سألته بمجرد أن جلست بجواره، وتحرَّكت العربة:

- هـل كنـت تسـتحق رئاسـة نقابـة سـائقي عربـات الأجـرة، ولم يرشـحك زمـلاؤك بسـبب الحسـد؟

لم يلتفـت إليَّ حتـى، وبـدت عينـاه مُعلقتيْن بالطريـق، وردَّ عـليَّ بحـزمٍ شـديدٍ:

– أنـا رئيـس نقابـة سـائقي عربـات الأجـرة يـا أخ، ولا يوجـد في النقابـة زملاء حسَّـاد.

ارتبكـتُ قليـلًا مـن المفاجـأة، لكنـي ضحكـتُ في سرِّي وأنـا أتذكـر أولئـك المهلهلـين، الذيـن يقـودون عربـاتٍ مهلهلـةً مـن ماركـة الهمـبر والتاونـوس والزفـير، التـي فقـدت أبسـط قواعـد الأمـن والأناقـة، ويحلمـون، ويخترعـون ذلـك المـبرر الوسـخ، وتمنيـت أن لا أكـون شـبيهًا بهـم وأنـا مـن حـي المسـاكن، لكنـي لسـتُ مهلهـلًا، برغـم ذلـك، وأسـتحق رئاسـة المشـاعر في قلبـك.

أنزلنـي رئيـس النقابـة أمـام مطعـم القـصر، أفضـل مطعـم بالمدينـة عـلى الإطـلاق، بنـاء عـلى طلبـي، وكان طـوال الطريـق يقـود برزانـة، والراديـو المثبـت عـلى عربتـه، يبـث نـشرةً للأخبـار مـن إذاعـة بي بي سي، وأسـمع عـن عـودة آيـة اللـه الخمينـي إلى إيـران بعـد نجـاح الثـورة الإسـلامية، وتقاطـر النـاس لاسـتقباله، وكانـت المـرة الأولى التـي أسـمع فيهـا بثـورةٍ إسـلاميةٍ حدثـتْ في مـكانٍ مـا بالعـالم. وأن مُحركهـا يُسـمى آيـة اللـه.

لم أكن جائعًا، وكان الوقتُ مبكرًا، وعلى الرغم من ذلك دخلتُ المطعم. كنتُ أحتفل بطريقةٍ خاصة، يا أسماء.

في العصر، وقبل أن يطرق كولمبس بابي، برفقة عفراء التي عادت إلى نكش عورات بيتي، وترتيب المطبخ الفقير من حينٍ لآخر، تاركة جعفر البكاء، يصرخُ على سريري، ويوسخ ملاءاتي، ويطرد أحلامي المترفة من ذهني، كنتُ أنا أطرق بابه، أردتُ أن أفهمه بأنني سأكونُ متغيبًا بصفةٍ يوميةٍ في ساعات العصر، ابتداء من غدٍ، وفي نفس الوقت أسأله عن السبب في عدم إخباري بأن طلحة رضوان قد أصبح بلا وزارة.

لم يكن الأمر مهمًّا بكل تأكيدٍ، ولديَّ أنت الأهم في ذلك الوقت وكل وقتٍ آخر، فقط استغراب من عزلي عن أخبار حي المساكن، التي ربما تعرفها نملة مهمشة تسكن أحد الجحور. فتح وكان يرتدي ملابس تسمح له بالظهور دقيقةً في الشارع، تلك الدقيقة التي ينتظرها أمام بيتي حتى أفتح، وبيده سيجارة بانجو يعمل على لفِّها بورقٍ خاصٍّ من ماركة "برينسس" استعدادًا لتدخينها في بيتي. سألته وكان رده في غاية البذاءة، طعنني به، واستلَّ الفرحة التي فرحتها منذ الصباح كاملة، ألقاها في المسافة بيني وبينه:

– لأنـك عاشـقٌ مجنـونٌ لامـرأةٍ في المدينـة، والعشـاق لا يُحبـون أن يسـمعوا سـوى أخبـار العشـق.

عاشق لامرأة؟.. مَن قال ذلك؟

عرفـتُ في تلـك اللحظـة مـا لم أكـن أعرفـه يـا أسـماء، عرفـتُ بـأن عفـراء التـي لم تعـد لاهثـةً منـذ أن خـرج جعفـر مـن داخلهـا، قـد اكتشـفتْ دواخـلي، وعلامـات مـرضي بـك، ولقنتهـا للـزوج المُسـتهتر، الـذي قـام بصياغتهـا محـاضرةً ركيكةً للذيـن مـا زالـوا سـذجًا وقليـلي حيلـة، يأتـون لسـماع ركاكتـه في ركـن محـاضرات الحيـاة، عرفـتُ أن معظـم سـكان حـي المسـاكن، والأحيـاء المجـاورة، يعرفـون سـقوط معلـمٍ رصـينٍ في الحـب، وأنـه الآن مثـار تهكـم وسـخرية، يـا إلهـي، هـل أخنـق فـاروق في تلـك اللحظـة، هـل أصفـع عفـراء التـي لم تعـد لاهثـةً؟ هـل أتمـرغ في الـتراب وأبـكي؟

كل ذلـك لـن يحـدث، والـذي سـيحدث هـو أننـي سأبتسـمُ بأكـبر قـدرٍ مـن الابتسـامات، سـأُطري ظَـرْفَ فـاروق وملاحتـه، وأشـكره عـلى حسـن ظنـه وظـن امرأتـه بي، حـين ظنـاني عاشـقًا، وأنـا أكـثر النـاس لؤمًـا في مـا يختـص بالمـرأة، بدليـل أننـي لم أتـزوج حتـى الآن. وسـأعودُ إلى بيتـي أتمـزق وحـدي، وأتجاهـل طرْقهـما العنيـف الـذي كان يرجَّنـي بـلا رحمـةٍ.

-١٤-

كان اليوم هو الخميس، وكان بعد أكثر من ستة أشهرٍ كاملةٍ، من خميسنا معًا. خميسك الذي لم تعودي تذكرينه، ولا يتحاوم في عالمك، كما أرجح، وخميسي الذي أذكره، كما أذكرُ اسمي، وقد أنسى اسمي وأظل أذكر ذلك الخميس، إلى الأبد.

هبطنا من عربات التاتا الأمنية أمام النادي الطلياني، متبوعين بالنرفزة وانفلات الأعصاب، ودخلنا المبنى صاغرين، نفس المسرح القديم المفروش ببساط المخمل الأحمر، نفس الأضواء الملونة بألوان قوس قزح والمبعثرة في كل مكانٍ، والزهور الحمراء والخضراء والبنفسجية، نفس العمال المتأنقين بأرديةٍ موحدةٍ، يوزعون الحلوى وأكواب العصير، فقط كان الدم القبطي غالبًا في المكان، والعروسان اللذان يجلسان على الكرسيّيْن المُزركشين بالمخمل في أحد

الأركان، ويتزاحم المدعوون الحقيقيون، والمدعوون الذين جاءوا قسرًا لتهنئتهما، يجلسان ببرود فرح، ولا يقفان لتحية المهنئين كما كان يفعل قريبي وعروسه. بالنسبة لي كانت ليلة تذكر هائلة، أرقت فيها الكثير من هرمونات التوتر، وأنا أترحل بعيني من ركنٍ إلى آخر، ومن فتاةٍ إلى فتاةٍ، ومن سحرٍ راسخٍ عريقٍ، إلى سحرٍ مصطنعٍ بمستحضرات التجميل، كنت أعرف أنها مجرد ذكرى، مجرد هيجان لم يكن ضروريًّا، أن أتهيجه لولا تلك الحملة الأمنية القاسية. مؤكد أن قدسي نفسه، لا يد له في ذلك، فقط هو نوعٌ من إكرام عرسه وحشده بالناس، لأنه أدى واجبًا للوطن بحسب تصور حكيم الدرل ورؤسائه.

أقول لك صراحةً بأنني لم أعد أحب قدسي أو أقدره، كما كنتُ أفعل في السابق، وأعتقد أن أهل الحي جميعًا لن يقدروه، فما دام سعى لبيع أناسٍ لم يُناصبوه العداء علانيةً، فبإمكانه أن يبيعَ حي المساكن كله، بأحلامه الصحيحة وأحلامه المجهضة معًا، أظن أن تلك النظرة كانت هي نفسها نظرة حكيم الدرل، وبالتالي سعى لتجميل الاشمئزاز العام، وحشر المشمئزين جميعهم في عرس قدسي قرياقوس.

أيًّا كان الوضعُ بالنسبة لي فلم يكن مريحًا على الإطلاق، وفكرتُ أن أرحل قبل أن تسقط دمعتي التي

ساءها أن أكون حيث كنتِ أنت يومًا، من دون أن توجدي الآن.

تحركتُ من مقعدي والأضواء تبرقُ بشدةٍ، والمغني القبطي المغمور الذي لا يعرفه أحدٌ تقريبًا "إيليا شكر" يشكو التباريح بحرارةٍ، في أغنيةٍ عن الحب المستحيل والهجر القاسي، أداها بلهجةٍ مصريةٍ صميمةٍ، ورقصت فيها بناتُ الأقباط رقصاتٍ مصريةً أيضًا، وسكان حي المساكن باردون في مقاعدهم. صعدتُ إلى المسرح، ومددتُ يدًا ماسخةً لقدسي، وأكثر مساخةً لمريا البيضاء المكسرة حتى وهي عروس تُزف في ليلة عرسها وهبطتُ مُتجهًا إلى باب الخروج، حتى أتنفس بلا رقابةٍ.

كان الوقتُ مبكرًا جدًّا لا يزال، وأطباق عشاء الكوكتيل التي جاءت من مطعمٍ مختص بالأفراح لم تُوزع بعد، وأعلن مذيع الحفل، وكان ألبيرت الحداد نفسه، بأن الليل ما زال طفلًا يحبو، وهناك الكثيرُ من المفاجآت في البرنامج، ستُلقى قصائد شعر من نظم شاعر الجمال "موريس مجدي" وسيأتي سليمان القزم لاعب السيرك المخضرم، الموجود الآن في المدينة، ليؤدي عددًا من الفقرات الجاذبة، ولو وصل الباص القادم من العاصمة في موعده سنتشرف جميعًا بحضور النجمة "سعدية" الشهيرة بسوسو الطرب، أجمل مطربات الأفراح في الدنيا.

لم يكن يهمني كل ذلك يا أسماء، وتلك الطلاسم التي بيَّنها بنفس حماسهِ حين ينحتُ بابًا أو نافذةً في ورشة الحدادة، لم أعرف منها سوى القزم سليمان، ما يهمني هو أن أعود إلى بيتي بأي شكلٍ من الأشكال، أحياك كما اعتدتُ أن أحياك في كل يومٍ من تلك الأيام الطويلة منذ أن عرفتك، وأكتبُ مزيدًا من الأرق في ليلي الذي لا ينتهي، وفي دفتري المكتنز بالأوراق، بحبري الأخضر الذي لا أدعه ينفد أبدًا:

٣٦٦، رسالتي التي لن تصلَ إليك يومًا، وفقط أكتبها، لأن واجبي كعاشقٍ نقي في زمانٍ غير نقي، يحتم عليَّ أن أكتبها، ولأن الكتابة في حدِّ ذاتها، تمنحني دروسًا في الصبر، أحتاجه بشدةٍ لأكون العاشق المثالي في كل الأزمان، الموظف المعنوي عندك، إضافة إلى وظيفتي الجديدة مدرسًا لشقاوة ولد الوزير.

عند باب الأثر الطلياني كان الأمرُ مختلفًا تمامًا، عثرتُ على عشرات الأمنيين، بعضهم أعرفه من أيام الدهاليز المظلمة، وبعضهم أراه لأول مرةٍ، كانوا منتشرين في محيط النادي، وعرفني حكيم الدرل الذي كان يُشرف على تنسيق الأذى، بسهولة شديدة، حين وقعت عيناه عليَّ، على الرغم من أنني كنتُ مهمةً روتينيةً من مجموع مهامه المتعددة منذ أكثر من سبع سنوات. شدَّني من قميصي

برفـقٍ، أبقـاني واقفًـا بجانبـه، ويـده مـا زالـت عـلى القميـص، اسـتخدم جهـازًا للراديـو كان بيـده اليمنـى، صرخ داخلـه: رافع الأثقـال.. حـوِّل.. دون جـوان أصـلي.. حـوِّل.. يتيـم الخرابـات.. نعـم.. نعـم. وسـمعت صوتًـا مضطربًـا يصـدر مـن الراديـو، بعـد عـدة ثـوانٍ: الـدب القطبـي يـا زعيـم. أسـطورة ملكـة الجـن يـا نحلـة.

بالطبـع لم أفهـم شـيئًا عـلى الإطـلاق، لكـن قبضـة الـدرل عـلى ثيـابي تراخـت، وعنـد ذلـك ابتسـم، مـدَّ لي يـدًا مواطنيـة عاديـة، صافحنـي بهـا وهـو يقـول:

– شرفت العرس الوطني يا أستاذ.

أضاف بسخريةٍ، لا تُخطئها أي أذن:

– لكـن الانـصراف بعـد نهايـة الحفـل، مـع الاعتـذار لجنابـك. هـل تتكـرم وتعـود إلى الداخـل لـو سـمحت؟

نفَّـذت التعليـمات بـلا أي خيـارٍ آخـر، وعُـدت للداخـل، وأزداد حنقًـا عـلى العريـس المحـروس أمنيًّـا والعـروس التـي تتكـسَّر بـلا رغبـةٍ في أن تجمـع نفسـها كامـرأةٍ عاديـةٍ، وعـلى نفـسي، وجميـع مواطنـي حـي المسـاكن الذيـن انقـادوا كالبهائـم وركبـوا العربـات المصفحـة، ليحـضروا هـذا العـرس.

شـاهدتُ كولمبـس مُتضايقًـا، مرتعـش اليديـن، ويبـدو أنها مضاعفـات عـدم تعاطـي سـيجارة البانجـو اليوميـة، شـاهدتُ

عفـراء غـير اللاهثـة تحمـل جعفـر ويـصرخ مـن الجـوع كـما يبـدو، وليـس ثمـة طريقـة لإرضاعـه أمـام النـاس، شـاهدتُ حليمـو وقـد أزال لحيتـه في لحظـة خـوف واسـتعجالٍ بـكل تأكيـد، لأن الإزالـة لم تكـن متسـاويةً عـلى ذقنـه، ثمـة أمكنـة ما زالـت محشـوةً بالشـعر، وأمكنـة عاريـة، وضحكتُ. وشـاهدتُ حتـى بائعـة قصـب السـكر أسـماء، التـي كلـما رأيتهـا صممـت عـلى التفكـير في محاولـة جرهـا ذات يـوم إلى المحكمـة الشرعية لأنتـزع منهـا اسـمًا لا تمـلأه، ولـن تمـلأه مهـما فعلـتْ. وحـين انتهـتْ أغنيـاتُ القبطـي إليـا، وفتـاة أخـرى كان صوتهـا كارثـةً حقيقيـةً، وصعـد سـليمان القـزم ليُـؤدي فقراتـه الموعـودة، كان الليـل قـد انتصـف بالفعـل، وكنـتُ مـا أزال مسـمرًا في المقعـد، معـزولًا عـن مُحيطـي، وداخـل مُحيطـك أنـت، أفكـر في يـوم الغـد الـذي سـأقضي عـصره في حـي البسـتان بصفـةٍ شرعيـةٍ، ولـولا خبطـة فـاروق عـلى كتفـي وهـو يُطالبنـي أن أشـاركه التذمـر ولـو بإيمـاءةٍ مـن رأسي لظللـت هكـذا مغمـىً عـليَّ في حلمـك، حتـى يذهـب النـاس جميعًـا، وأبقـى.

-١٥-

رُعب.. رُعب غير عادي يا أسماء. رُعب لن تستطيعي تصوره، لا أنت ولا أنا ولا أي أحدٍ آخر. الرعبُ المجنون، الكلاسيكي، المُتقن، المُكتمل، والذي أطار العشق من قلبي، بكل أسفٍ وعشش في كل نبضةٍ أنجزتها في ذلك الليل.

كانت قد خُصصت لي في بيت الوزير طلحة رضوان غرفةٌ منعزلةٌ عما يدور بالبيت، على الرغم من أنها داخله، وذلك لتدريس الولد "هـمَّام"، وهذا هو اسمه. كانت غرفة في غاية النظافة، مُرتبة بعنايةٍ ومفروشةً بملاءاتٍ حريريةٍ بألوانٍ مختلفةٍ، تستبدل كل يوم بواسطة إحدى الخادمات، وبها خزانةٌ واسعةٌ للثياب من خشب التيك، وخزانةٌ صغيرةٌ للجوارب، وطاولةٌ من الحديد المصقول من أجل الكتابة، وأباجورة حمراء اللون، تضخ ضوءًا بنفسجيًّا حالمًا، وأيضًا ثلاجة صغيرة، من ماركة

"كلفينتور" للارتواء منها في ساعة العطش، إضافةً إلى عددٍ من اللعب البلاستيكية والسيارات الصغيرة التي بإمكان الولد أن يتسلى بها، عند شعوره بأي ملل، كما قيل لي في أول يومٍ استلمتُ فيه مهمة تدريسه.

ابتهجتُ بتلك الغرفة كثيرًا، بدتْ لي مخدع غرامٍ مُكتملًا يُستخدم في غير غرضه، أدخلتها في أحلام الوصال الوردية وتصورتها بلا أي وجه حق مخدع عشقنا الثري، الذي سيضمنا ذات يومٍ. أعرف أنها مبالغةٌ كبيرةٌ، ولطالما كانت حياة العشاق أغلبها مبالغات، ولكن التهيج المجنون يجعلها حقائق غير قابلةٍ للجدال. ولأن حبك حقيقة وغير قابلٍ لأن يكون غير ذلك، فإن كل ما يتعلق به حقيقة أيضًا.

كان بإمكاني أن أتكئ على السرير المُريح حين أتعب من جلستي، أتواجدُ بمتعةٍ في أحلام يقظتي اليومية، وأمسح عَرق التوتر الذي يُصاحب تلك الأحلام، بينما همَّام يُراجع واجباته التي أردمه بها أحيانًا، وكانت دروسه في الحقيقة، في غاية البساطة، دروس تلميذٍ ابتدائي في بداية الدرب، تضم نصوصًا قرآنيةً من جزء عم، ومسائل بسيطة في الرياضيات، وقواعد اللغة العربية الأولية، وتاريخ غير مهم أو غير ضروري لطفلٍ، يعيشُ حاضرًا سلسًا ويتطلعُ لمستقبلٍ أكثر سلاسةً، إضافةً إلى جغرافيا شديدة السطحية،

لم أكـن بحاجـةٍ لأطالـس العـالم الممتـدة، كي أراجعهـا. وكنـتُ أدرسـها مـن خـبرةٍ تعليميـةٍ بحتـةٍ.

لا تتصـوري حجـم سـعادة المعانـاة، وهـي تقتنصـك في حيِّـك، تتراكـضُ إلى مـا وراء الغرفـة المنعزلـة، لترسـم تلـك الروضـة المفقـودة، وأنـت زهرتهـا الأكـثر رحيقًـا، ومـن نافـذةٍ مفتوحـةٍ في الغرفـة، وتطـل عـلى حديقـة البيـت، كنـتُ أسـتطيع أن أتبـين أصواتًـا متعـددةً، أميـز بـين صـوت الرقـي المُتمثـل في صاحبـة البيـت أو زائراتهـا المخمليـات، حـين يثرثـرن في الحديقـة، وصـوت اللارقـي، ويُمثلـه البسـتاني الشـبيه بسـكان حـي المسـاكن، وليـس منهـم، وهـو يُغنـي بشـعبيةٍ، أو يُغـازل خادمـةً عابـرةً. وبرغـم أن هـمام كان كثـير الحركـة، ومعقـدًا في التربيـة، بحيـث تقتلـه رائحـة عطـري الشـعبي الـذي أضعـه ويسـد أنفـه عـدة ثـوانٍ كلـما زرتـه، إلا أنـه كان سريـع الفهـم ويسـتطيع في أقـل مـن سـاعتين أن يُنجـز واجباتـه كلهـا، ويدخـل إلى البيـت يجلـبُ رقعـةً للشـطرنج، ويُلاعـب نفسـه، لأننـي لم أكـن ضليعًـا في الشـطرنج، بالأحـرى كنـتُ مثـل المجنـون الـذي وقـع عـلى قميـصي في نـادي هـواة الشـطرنج، لا أعـرف عـن تلـك اللعبـة أي شيء، ورفضـت أن يعلمنـي إياهـا هـمام، لأكـون غريمـه، لا بسـبب تكـبري مـن أن أصبـح تلميـذًا لطفـل وأنـا مُعلـم، بـل لأنهـا فرصـةٌ سـانحةٌ، لاسـتعادتك، ورسـمك بألـوانٍ متعـددةٍ في الذهـن، أثنـاء انشـغاله بملاعبـة نفسـه.

كانت زوجة الوزير، واسمها (ليلك)، وهي المرة الأولى التي أسمع فيها بذلك الاسم، ولم أعرف بأنه اسم زهرة، إلا بعد زمنٍ، امرأة في حوالي الخامسة والأربعين، جميلة جدًّا، وراقية جدًّا، بوصفها تذوقت لحم الوزارات هي أيضًا، وسافرتُ إلى العالم كله، تحت مظلة زوجها المسافر باستمرارٍ، كأن التخطيط القومي وزارة طائرة في الجو، أو وزارة مهامها موزعة في الدنيا كلها، وأجزم أنها كانت تشبهك في يومٍ ما، ولا أعرف هل كان ذلك حقيقة، أم بإيحاءٍ من الصورة التي التقطتها لوجهك في ذلك الخميس المختلف، وثبتها على عيني، لا تسقط قط. كان لديها ثلاثة أبناء وبنت، كما عرفتُ، همام أصغرهم سنًّا، آخر العنقود كما يقولون، والباقون ما زالوا في الجامعات، لا أدري في جامعاتنا الداخلية التي تخرَّجنا فيها، وتضم كلَّ من هبَّ ودبَّ، أم جامعات أخرى في بلادٍ لم نحلم بمطالعتها حتى في الصور. كانت تأتي أحيانًا، تتكئ على بباب الغرفة، وفي يدها دائمًا كوب عصير، لم يكن مانجو ولا برتقالًا، ولا أي عصيرٍ آخر، أستطيع معرفته، تسألني عن تقدم مستوى همام، وأجيبها بثباتٍ أستلفه فقط، ساعة سؤالها، بأنه يتقدم، ويعود ارتباكي فيك، بمجرد اختفائها، سعادة الوزير، لم يكن يأتي إلى تلك العزلة أبدًا، ولم أكن أراه إلا ظلًّا مُشبعًا بالغموض، يتحرك في البيت، حين أدخل أو أخرج.

بعد نهاية ساعات العصر، وتحرري من معضلة هِمام، وانضباط البيت الوزاري، كنتُ أتسكعُ في الجوار كثيرًا، قبل أن أستقل سيارة أجرة، وأعود إلى وسط المدينة، لأتعلق في الحافلات المتجهة إلى حي المساكن، أمارس تسليتي المفضلة، حين أخرجك من بيت فخمٍ، وأدخلك آخر، أكثر فخامة، أجعلك تشترين من تلك البقالة الواسعة الممتلئة بالسلع، أو تخيطين ثيابك عند ذلك الخياط الذي طالما تيبَّست قدماي من الوقوف أمام محله، وكم من مرةٍ خُيل إليَّ أنني شاهدتك بالفعل، وأركضُ بلهاثٍ مجنونٍ لأتجاوز من شاهدتها، وألتفت، وأجدها خامة أخرى نظيفة، لكنها ليست أنت.

لم أتعب أبدًا، ولم أملَّ أبدًا يا أسماء، أكثر من ذلك، كنتُ مستغربًا بشدةٍ، كيف عشتُ حتى تجاوزتُ الأربعين بلا تلك اللذة المعذبة.

في الحديقة التي جلستُ فيها ذات يومٍ، وتغطرستْ عليَّ فيها الإثيوبية، وظهر ألماني المُعدل إلى الشيخ أبي الصاحب، وتابعه الأزهري، يوم فرارهما من فخ الوطني قدسي قرياقوس، وكنتُ أجلسُ فيها أحيانًا في بدايات المساء، تعرَّفت على رجلٍ في حوالي السبعين، كان بملامح قاسيةٍ، يرتدي الثوب والعمامة، ويتحدث بلهجةٍ مصريةٍ ليست مستقيمةً أو مألوفةً تمامًا، أخبرني بأنه أصلًا من

صعيد مصر، وجاء منذ عامين برفقة أسماء حين زارت قريته، والآن أصبح من أتباعها ويُساعدها في العمل.

قفز قلبي في تلك اللحظة، حتى خلته سيشق الضلوع ويخرج:

– أسماء، مَن أسماء يا عم؟

بدا مستغربًا، أنني لا أعرف أسماء، وسؤالي المتعجب العنيف، لم يكن في الحقيقة، عن المعرفة أو عدمها، كان ردة فعل متوقعة جدًّا، حين أسمع اسمًا عزيزًا، ساحرًا، وموجودًا في حي البستان، تنطقانه شفتا صعيدي من جنوب مصر. ردَّ:

– أسماء شيخة الزار الشهيرة، ألا تعرفها؟.. هذا هو بيتها.

كان يتحدثُ بفخرٍ، ويُشير إلى بيتٍ غريبٍ من طابقيْن، مدهون بأخضر نشاز، يُطل على الحديقة، وتنهدتُ في ارتياحٍ. لن تكوني شيخة زار أبدًا، إضافة إلى أنني سمعتُ بشيخة الزار تلك، فلا يوجد أحدٌ لم يسمع بها وكانت من علامات المدينة الكبرى. وهي أيضًا من اللائي وددتُ مرارًا أن أنتزع منهن اسمك، ألبسهن أسماء أخرى، ليست من أسماء الكواكب والنجوم.

قلتُ لحواري شيخة الزار الصعيدي، وأنا أتحدثُ من باطني، بلا وعي، بأن الرزق واسع، وإنني أتعجب من تبعيته لامرأةٍ مثل هذه، تغتني من بيع الشعوذة، بينما يزداد أتباعها الفقراء فقرًا، فاتسعت حدقتا عينيْه بما خلتُه رُعبًا مفاجئًا وفرَّ من أمامي، ولم أعد أراه يتنزه في الحديقة مرةً أخرى.

أحيانًا، وبمجرد أن أنتهي من ساعات التدريس وأخرج من بيت الوزير، كنتُ أعثرُ على شمس العلا- عاصم، ينتظرني قريبًا من الشارع العام على دراجته النارية، وهو يُلمع حذاءه كالعادة، نذهب معًا إلى حيث نجلس في مكانٍ منعزلٍ، نتبادل حكاياتٍ شبه خرساء، هو صامتٌ مُستغرقٌ في معضلته أو مسْح حذائه، وأنا صامتٌ أيضًا، تتناسل في داخلي لغاتٌ شتى. وكان أول من انتبه إلى نحولي وأنني فقدتُ الكثير من الوزن، وكان ذلك حقيقة، وأخبرني بأنه جاهد في المدرسة حتى يلغي شائعة جنوني التي انتشرتْ بشدةٍ بين الطلاب بعد أن استقلتُ. لم يُخبرني كيف جاهد، وكيف انطفأت الشائعة، وشكرته كثيرًا. وفي يومٍ رائقٍ خالٍ من الحرِّ والرطوبة التي تشتهر بها المدينة الساحلية، جلسنا في كافتيريا مراحب على شاطئ البحر، حيث كان يجلسُ ألماني قبل أن يتعدل إلى كارثة.

كان المكان مزدحمًا بالسياح، ثمة سياح عرب وأوربيون، وحتى من الهند، لا أعرف ماذا يجدون في بلادٍ لا توجد فيها سوى الشمس، ولا سياحة منظمة، أو معالم يُمكن أن تُلتقط فيها صور، وتبقى ذكريات.

كان شمس العلا مُنشرحًا بشدةٍ في ذلك اليوم، ولدرجة أن ثمة ذرات غبار حقيقية علقت بحذائه، لم يسع لإزالتها. أخبرني بأن مشكلته قد انتهتْ تمامًا، ذلك أن أمه باعتْ باختيارها ومن دون أي ضغطٍ منه عدة أراضٍ زراعيةٍ كانت تملكها في القرية، وستُرسل له المال اللازم قريبًا مع أحد أقاربه، من أجل أن يُحيي مناسبة عرسه بشكلٍ لائقٍ، ويؤسس بيته الجديد لفتاة الأسرة الراقية، كما تُؤسس بيوت طبقتها. أخبرني أن زوجته المستقبلية، تُخطط معه باستمرارٍ، وأنها اختارت قاعة "صفاء" الجديدة الفاخرة، في وسط المدينة لليلة الزفاف، واختارت اسمي "وضاح وشمعة" لطفليْن جميليْن سيلدانهما، وبقليلٍ من الحظ قد يجدُ عملًا في دولةٍ عربيةٍ خليجيةٍ ويُسافر، منهيًا علاقته مثلي بالتعليم الحكومي السخيف.

هنأته بصدقٍ، وكانت ثمة فرحة أخرى، فرحتُها في السر، ذلك أنه قد وفر كل شيء، بعيدًا عما خمَّنته حاستي المتمكنة من قبلُ، وأنه سيرتكبُ جريمةً من أجل

أن يُحقق الحلم. صحيح أن الحاسة أخطأتْ، ولكنه خطأ كنتُ أريده وأتمناه دائمًا.

بغتةً سألني:

– وكيف تسيرُ أمورك مع أسماء، هل عثرت عليها؟

ارتبكتُ بالطبع، أكثر من ستة أو سبعة أشهر مرَّت وما زلتُ مُعلقًا، أقيم في بؤرة العسل، ولا عسل يرشح، لكني لن أعترف، سأقول بأنني التقيتك أخيرًا، وبأننا نلتقي باستمرارٍ، وأننا نتبادلُ الحب بجنونٍ، وأضيف بأن موعد زفافي يقتربُ أيضًا، وربما يكون متزامنًا مع موعد زفافه. سيصدقني شمس العلا، ولن يسمح له ذهنه المشغول بشدةٍ أن يطرح مزيدًا من الأسئلة، ولو طرحها سأخبره بما لا يستطيع تصوره، وتعرفين بأنني تمكنتُ في سيرتك، وأعرف ما لا تعرفينه حتى أنت.

الشيء الغريبُ الذي شعرتُ به أيضًا في تلك اللحظة، هو غيرةٌ مُهلكةٌ أصابتني، ارتعش جسدي كله وهو ينطق باسمك، لا أحد أريده أن ينطبقَ باسمك غيري.

-١٦-

كان حي المساكن بلا كهرباء، حين هبطت من الحافلة في بدايات ذلك الليل، الحقيقة كان بلا كهرباء منذ عدة أيامٍ، ولا أحد منا يسأل عن السبب، وقد أخبرتك من قبل عن تلك الكهرباء المتقطعة، عن الرقصة التي اخترعها الولد الشقي خطاب ابتهاجًا بعودتها إن انقطعتْ، ولا تُستخدم إلا نادرًا.

دخلتُ بيتي بطريقةٍ عاديةٍ، شبيهةٍ بالتي أدخله بها كل يوم. كانت ثمة شموع موضوعة في أحد أركان طاولتي على الصالة، وأردتُ التقاط واحدةٍ، أشعلها، وكنتُ قد أقلعت عن المشي، وممارسة حياتي في الظلام منذ زمنٍ، وبالتحديد في ذلك الليل الذي علقت فيه بك، وتعثرتُ بالطاولة وسقطتُ، وتحطم قلبي. مشيتُ بحذرٍ، ومددتُ يدي إلى مكان الشموع كما قدرتُ، لكنها سقطت على

ما خلته شَعرًا أجعد. ارتعشتُ قليلًا وحركتها إلى الأسفل، وكنتُ أحركها على لحمٍ طري.

لا أذكر متى صرختُ لأول مرةٍ، من بعد صرخة الميلاد الحتمية، لكل قادم جديد للحياة، والعشق الذي يُغلفني وأرتدي ثوبه الكثيف منذ أشهر، قد يحتلب البكاء من الأعماق، ولكن لا صراخ مع العشق.

صرختُ.. وأحسُّ بعظامي قد تيبَّست، ولا أستطيعُ أن أحرك يدي ولا قدمي، ولا أسد الحلق الذي واصل الصراخ.

في دقائق معدودةٍ، كان فاروق كولمبس وأسرته المكونة من عفراء وجعفر البكاء، وعدد من مواطني حي المساكن، كانوا يحضرون الركاكة الليلية في ركن فاروق، وحليمو الذي كان لا أحدَ في كل أوقاته وهو جارٌ لصيقٌ، يدخلون بيتي بأيديهم شموعٌ مُتقدة، وفوانيس ذات ضوءٍ شاحبٍ، ومشاعل يدوية، وثمة من تطوَّع للوقوف بباب الصالة مانعًا دخول النساء والأطفال.

كان المنظرُ الذي اتضح بعد ذلك غريبًا بالفعل، كان ثلاثة رجال بالغون، يرتدون الثياب الوطنية كاملةً من ثوبٍ وعمامةٍ وحذاء من الجلد الرخيص، جالسين على مقاعدي ووجوههم منكفئةٌ على الطاولة، بينما أيديهم تترنح في الهواء. وقد سقطت عمامة أحدهم، ولا بد أنه الذي لامسته يدي وأنا أحركها في الظلام. ابتعدتُ وأبعدتُ

عينـي بسرعـةٍ، وأسـمع فـاروق يضحـك بجنـونٍ وهـو يُقلـب الأجسـاد، ويقـول مـن بـين ضحكاتـه الدامعـة: إنهـم ميتـون.

كيف ذلك؟

أسـتدعي صوتًـا، لا أعتقـد أنـه خـرج منـي حتـى يسـمعه أحـدٌ، أعـود إلى المنظـر الغريـب، وأشـاهد رجـال حـي المسـاكن الصلديـن، يجسـون النبـض، يتسـمَّعون الصـدور، يرفعـون الأيـدي ويلقونهـا في الفـراغ، يُـرددون: إنهـم ميتـون.

كيـف ماتـوا؟ ولا توجـد آثـار عنـف في المـكان الـذي تفحصتـه بسرعـةٍ، ولا عـلى أجسـادهم، أو ملابسـهم، وأيضًـا مَـن هـم أصلًا، وكيـف دخلـوا بيتـي، ليموتـوا بداخلـه، لأننـي لم أتذكـر أبـدًا، أنهـم عـبروا بحيـاتي ذات يـومٍ، ولا أحـد آخـر مـن حـي المسـاكن المنغرسـين في قلـب المحنـة، اسـتطاع أن يعرفهـم.

كان الحـي في ذلـك الليـل الحالـك بـلا كهربـاء، بحاجـةٍ إلى وليمـةٍ قاسـيةٍ، كي يمضغهـا عـلى عجـلٍ، ويبصـق جزئياتهـا الممضوغـة في كل مـكانٍ تطـأه الأقـدام، وقـد أوجـدت لهـم، مـن دون أن أدري، تلـك الوليمـة الغريبـة.

كان أسـوأ مـا في الأمـر أن المسـتثمر الوطنـي المزعـوم قـدسي قرياقـوس قـد جـاء، وبصحبتـه الصهـر الجديـد ألبـيرت الحـداد. كان صوتـه أكـثر جلجلـةً مـن بقيـة الأصـوات، وهـو ينصـح بتوخـي الحـذر وعـدم لمـس الجثـث، وإبقـاء صاحـب

البيت تحت الرقابة حتى لا يفر. أضاف بأنه قد أرسل أحدهم لاستدعاء الشرطة، وأنها قادمة في الطريق. أردت أن أصفعه بصيحةٍ أكبر من صوته، أفهمه بأنني لستُ قاتلًا ولا سفاحًا، ولا أعرف أولئك الموتى، ولم أرهم من قبل، فلم يخرج صوتي من حلقي، كأن تلك الصرخات التي أسرفتُ في نزفها قد جففته، وكانت سخريةً مُرةً بحق حين وجدتُ نفسي أحاط بغتةً، بنفرٍ من صعاليك حي المساكن، أولئك الذين لم أكن أقرئهم حتى السلام إذا ما صادفتهم في الطريق، أجلسوني على الأرض في إحدى الزوايا، وأرى قدسي مُنتفخًا، يُدير التحري ويتحدث عن النقاط القانونية والدافع إلى الجريمة، والأداة التي استُخدمت، وبين الحين والآخر، يصيحُ ألبيرت الحداد:

– الرب يباركك يا زعيم.

ويرد قدسي على تلك التحية:

– الرب يباركنا جميعًا يا ابن عمي.

حين جاءت الشرطة أخيرًا، كنتُ بلا عقلٍ أجمع خلاياه لأحكي، بلا لسانٍ أسخره في سرد ما حصل، بلا قدميْن أستند عليهما، ولا معنويات أرفع بها رأسي، أبعد قليلًا عن الأرض. كان ثمة مسعفون تعاونوا مع الحاضرين في نقل الجثث إلى المستشفى، حيث تُشرَّح لمعرفة سبب الوفاة، أيدي رجال الشرطة نكشت جيوبهم، على أمل العثور على بطاقاتٍ

تبين الهوية، ولم تكن ثمة بطاقات، ورجل صلد فهمتُ بأنه من المعمل الجنائي، تبعثر في البيت كله، ولا أعرف عن ماذا كان يبحث، أخبرتهم بإشاراتٍ من يدي، وبصوتٍ مبحوحٍ بالكاد يخرج، أن يُمهلوني وقتًا حتى أستعيدَ ثباتي لأسرد ما حدث، وكانوا مُتعجلين بشدةٍ، وتطوع فاروق الذي ضاعت ضحكاته، وضاع مزاج البانجو من رأسه، إلى إحضار شرابٍ ساخنٍ من بيته من أجل تطرية الحلق والحبال الصوتية.

كانت قصتي في غاية البساطة، حين استطعت أن أسردها أخيرًا: كنتُ أدرس ابن الوزير طلحة رضوان، وزير التخطيط السابق، في حي البستان، كما أفعل في كل عصر، ما عدا عصر الخميس، خرجتُ من بيته، وتسكعتُ قليلًا في الحي، بلا هدفٍ محددٍ، ركبتُ عربة أجرة إلى وسط المدينة، كان سائقها متذمرًا من عدم ترشيحه لرئاسة نقابة سائقي عربات الأجرة، نزلتُ في موقف الحافلات الرئيسي، والتقيتُ ببائعة قصب السكر، أسماء التي تُقيم في حي المساكن أيضًا، وركبنا حافلةً معًا، كانت تجلسُ بقربي، وحدثتني طوال الطريق عن خسَّة زوجها الأخير، في سلسلةٍ مكونةٍ من ثلاثة أزواج، عبروا بحياتها، وكيف اشترى لنفسه شطيرةً من لحم الضأن يوم أمس، ولم يشتر لها. نزلنا معًا وما زالت تسب الزوج، اتجهتْ إلى بيتها، واتجهتُ إلى بيتي، ولم أنسَ أن أقول لها كما اعتدتُ في

الأشـهر الأخـيرة كلـما التقيتهـا: سـآخذك يومًـا إلى المحكمـة الشرعيـة لأنتـزع منـك هـذا الاسـم السـاحر، وألبسـك آخـر يُشـبهك.

اسـتوقفني الضابـطُ الـذي كان يقـفُ في منتصـف الصالـة الخاليـة، إلا منـي ومنـه وعسـكريّن آخريْـن، وقـدسي قرياقـوس، بإشـارةٍ مـن يـده. سـألني:

– ولماذا تُريد أن تغير اسمها بالقوة؟

لم أكـن بحاجـةٍ لارتبـاكٍ إضـافي، وأنـا الارتبـاكُ نفسُـه في تلـك اللحظـة، رددتُ عـلى الضابـط، بأنهـا مـن صديقـات أمـي الراحلـة، وقـد اعتـدتُ أن أمـزح معهـا منـذ الصغـر، ويبـدو أنـه تقبـل ردي غـير المُنسـق جيـدًا، وخاطبنـي أن أسـتمر:

– دخلـتُ بيتـي كـما أدخلـه عـادً، دحـرتُ ظـلام الصالـة كـما أدحـره عـادةً، تحسسـتُ موضـع الشـموع، وأعـرف أيـن تُوجـد، وكان أن عـثرتُ عـلى الرعـب وصرخـتُ. هـذا كل مـا حـدث.

أظـن أن قـدسي كان سـخيفًا جـدًّا، الرجـل الـذي بـاع جماعـةً ربمـا لم تكـن تُخطـط لـشيء ضـده، وضـد أي أحـدٍ آخـر، يسـتعد لبيعـي، ولم أفعـل لـه مـا يُـبرر ذلـك الجـرس العنيـف الـذي يدقـه الآن في مـزاد ضياعـي، قـال:

– هناك نواقص في هذه القصة، هناك تناقضات. أين الشموع التي تدَّعي وجودها في الصالة؟ لم يقل أحدٌ أنه عثر على شموعٍ حين حضر الناس على صرختك.

لا أدري لِمَ لمْ يُسكته المُتحري، وهم عادةً يُسكتون الرضع لو صاحوا جوعًا أثناء تحقيق مع الأم، يُسكتون الذبابة لو طنَّت بين أسئلتهم، وإجابات متهمٍ يسألونه. لماذا تركه يحضر التحقيق أصلًا، ويتفلسف بهذه الطريقة، وهو ليس رجل قانونٍ ولا رجل شرطة، ولا مواطنًا أصليًّا من مواطني حي المساكن.

قلتُ للضابط بعد أن تجمَّعت لديَّ بعض الشجاعة، المستمدة من وقاحة قدسي، وغدا صوتي رطبًا ويمكنه أن يضفر حديثًا:

– سيدي لماذا يوجد هذا الأخ هنا؟.. لماذا يُمارس التحري؟ هل هو رجل شرطة؟

الضابط سكت، وفهمتُ لحظتها بأن رجلًا رضيتْ عنه الأجهزة الأمنية، واحتُفل به كمواطنٍ صالحٍ، ومُنح شهادةً تُثبت صلاحه، لا بد عُممت سيرته على كل من يهمهم أو لا يهمهم الأمر، وممنوع تمامًا أن يُسكته أحد.

أنا الآن في السجن المؤقت يا أسماء، هل تُصدقين بأن عاشقك الذي تسكنين دماءه ونبضات قلبه في السجن؟ في تلك الحظيرة البائسة، بصحبة عشرات الخارجين على

القانـون، ولم يخـرج عـلى قانـون مـن قبـل قـط، إلا إذا عُـد عشـقك خروجًـا عـلى القانـون.

اقتادونـا أنـا وكولمبـس وحليمـو، كـما تُقـاد القطعـان، أيدينـا مسلسـلة بالحديـد، ووجوهنـا باتجاه الأرض، ولم يُسـمح لكولمبـس أن ينفـرد بعفـراء، ولـو للحظـةٍ، يُخبرهـا عـن أسرار بيتـه التـي لا تعرفهـا حتـى تنتظره آمنـةً، كان سـيُخبرها بكيفية إغـلاق بـاب الحديـد مـن الداخـل، ولم تكـن تعـرف، أي مفتـاح تسـتخدمه لتفتـح خزانـة النقـود القديمـة، وكيـف تطيـق بـكاء جعفـر بـلا زوجٍ يُسـاعدها. أخبرتهـم بـأن يخلـوا سـبيله هـو وحليمـو لأن المـوتى كانـوا في بيتـي أنـا، فلـم يسـتمع إليَّ أحـدٌ، وقـال قـدسي وهـو يُطالعنـا بسـخريةٍ حـين صعدنـا إلى سـيارة الشرطـة، إن التحريـات يُفـترض أن تشـمل الجميـع، حتـى هـو شـخصيًا، وأسـمع الضابـط يُـردد: لا يـا زعيـم، كلهـم إلا أنـت.

وأسـتغرب مـن تلـك "الزعيـم" التـي تُطلـق عليـه، ولا أرى لـه زعامـة كـرام أبـدًا.

كانـت المـرة الأولى التـي أدخـل فيهـا سـجنًا يـا أسـماء، ولا تُعـد الدهاليـز المظلمـة التـي قضيـتُ فيهـا شـهرًا مـن قبـل سـجنًا، لأن السـجن يعنـي إدانـةً، أو احتـمال إدانـةٍ قـد تـأتي، بينـما الدهاليـز لا تخضـع للإدانـات وغيرهـا، مملكـة حكيـم الـدرل وغـيره مـن عاجنـي خبـز الـضرر، خـارج نطـاق المحاكم، وخـارج نطـاق الحيـاة كلهـا. كان كولمبـس يائسًـا، وتيبسـتْ

أطرافُه من غياب النشوة، ويُواجه إدانةً أخرى حتميةً، لأنهم عثروا على عدة فصوصٍ من البانجو في جيبه حين فتشوه، وحليمو لا أحدَ حتى وهو في السجن كان منزويًا في أحد الأركان، ولا تنبئ تقاطيعه عن أي لهفةٍ أو حسرةٍ أو خوفٍ.

كنا مع القتلة يا أسماء، مع اللصوص وقطاع الطرق، والمغتصبين، وتجار الاحتيال، ومروجي الحديد والأسمنت المغشوش، وباعة السلع منتهية الصلاحية، وعثرتُ على تلميذي الذي كان يعمل في تقطيع الصور ووضعها في الإطارات في أستديو عنتر وإخوانه أيام الجمع من أجل أن يعول أسرته. فوجئتُ بوجوده، وفُوجئ بوجودي، وتشابهنا في البؤس وجلسة الأرض الخشنة، كأننا لم نكن يومًا تلميذًا ومُعلمه، وأخبرني صراحةً، وربع سيجارة متقدٌ على فمه، بأنه لم يكن يعمل من أجل أسرةٍ يعولها، ولا كلام فارغ، ولكن من أجل زوزو، بنت الهوى، عشيقته في حي الصهاريج، وقام بكسر خزانة الأستديو في إحدى الليالي وسرقة محتوياتها، من أجلها أيضًا، لأنها أرادت أن تبدو حسناء مميزةً في نظره حين يأتي، وكانت بحاجةٍ لمستلزمات الحسن. وحين سألني وربع سيجارة آخر يتسلل من جيبه، إلى أصابعه، عن تهمتي، قلتُ له: كان ثمة ثلاثة رجال ميتين في بيتي، ورأيته يرتجفُ، تتسع عيناه بغتةً، تنقبض أمعاؤه بمقدمات قيء، ثم يزحفُ بعيدًا عني.

سامحيني يا أسماء، لأن تفكيري في المعضلة الراهنة، كان أعظم من تفكيري فيك، ولأول مرةٍ منذ أشهرٍ طويلةٍ، أجد تفاهةً تافهةً مثل هذه، تقصيك عن ذهني وتشوه رسومات الأمل التي لم أتوقف عن رسمها منذ عرفتك.

بدأتُ باسترجاع الموتى على طاولتي، ومحاولة تذكر وجوههم، التي شاهدتها ضبابًا وأنا بين الوعي والغيبوبة، فلم أعثر مجددًا على وجهٍ أعرفه. كانوا متشابهين إلى حدٍّ كبيرٍ، كأنهم إخوة أو أبناء عم أو خالٍ، أو لعل الموت يستهزئ بالملامح، فيوحدها كلها. أعمارهم متقاربةٌ أيضًا، ربما كانوا في الثلاثين أو أزيد قليلًا، جلابيبهم بيضاء نظيفة، وكما قلتُ لك، لم يكن ثمة أثر لعنفٍ استشرى، أو دمٍ أُريق، لا آلة قتل ولا أي شيء، وبالطبع من غير الممكن، بل من المستحيل تمامًا، أن يكونوا قد ماتوا بعادية مطلقة، في الوقت نفسه.. لن تدخل تلك الفرضية ذهن أحدٍ، لن يقبل بها ضابطٌ ولا متحرٍّ ولا حتى فردٌ عادي من سكان حي المساكن. حليمو أيضًا لم يتعرف عليهم، وفاروق أقسم بأنه لم يرهم إلا بهذه الصورة، فلم يكونوا من أهل حي الصهاريج الذي يعرفه جيدًا، ولا كانوا من موزعي نبات البانجو، ولا كانوا من جلساء بيته الركيكين في يومٍ من الأيام، ولا من الصعاليك الذين تعجبه صحبتهم، ويتوغل في الضياع معهم أحيانًا. الشيء الغريب أيضًا غير وفاتهم الغريبة، هو لماذا تواجدوا في بيتي أنا بالتحديد،

وكيف دخلوا؟ ولم تحدث من قبل قصة مثل هذه في حي المساكن.

– هل كانوا ملتحين؟.. لم أنتبه إلى ذلك.

كنتُ أسأل كولمبس، وكلومبس مُتخشبٌ، لا يُجيب، وأظنني فكرتُ في أشياء قد تبدو بعيدةً جدًّا، أن يكونوا من تعساء ألماني وتمت تصفيتهم في بيتي، لسببٍ لا أعرفه.

كانت متاهةً واسعةً يا أسماء، وقد مضى يومان قاحلان، لا نعرفُ ماذا يدور خارج قحطهما، تنفتح الأبواب عدة دقائق، يرمون لنا بخبزٍ بائسٍ وأطباقٍ من العدس المُر، والفاصوليا النيئة، أو يأخذوننا إلى مراحيض قذرة، ويُعيدوننا، ولا أحد يرد حين نسأل عن وضعنا، أو نستفسر إن كانوا قد عرفوا هويات الرجال، أو سبب موتهم الغريب، والذي تسبَّب فيه.

في اليوم الثالث، وأنت ما زلت غائبةً عن ذهني، بكلِّ أسفٍ، وعجلة المحنة تدورُ وتطحنُ، وتدورُ وتطحنُ، ولا نتيجة، والشيء الوحيد الذي سمحتُ له أن يُطل وسط المحنة، وطردته سريعًا بعد ذلك حتى لا أموت، هو خوفي من أن تعتبرني "ليلك"، زوجة الوزير، وحشًا غير جديرٍ بدخول بيتها، حتى لو ثبتتْ براءتي، وأُعفى من تدريس هام، وبالتالي من الغراء اللذيذ الذي يلصقني بحي البستان، على أملٍ أن أعثر عليك. انفتح الباب بغتةً،

ونـادى عسـكري جامـد الوجـه عـلى اسـمي واسـم كلومبـس وحليمـو، وطلـب منـا أن نتبعـه.

كنـا في ممـرٍّ ضيـقٍ، ممتلـئٍ بالمعضـلاتِ، سـكارى ينتظـرون البـتَّ في شـأن ترنحهـم في الشـوارع، بائعـات هـوى بأظفـار طويلـة مصبوغـة بالمانيكير، وملاحـة رثـة، يتضاحكـن، ويعـدن ويتواعـدن، بـلا رهبـةٍ مـن المـكان، رجـالٌ بملامـح عاديـة، لا يبـدون مـن الخارجـين عـلى القانـون، وامـرأة في الثمانـين تصيـحُ بأعـلى صـوتٍ سـمح بـه العمـر، إن رجـال الشـارع الـذي تسـكنه، في حيهـا، انقلبـوا فجـأةً إلى وحـوشٍ مُغتصبـةٍ.

عنـد نهايـة الممـر، دخلنـا إلى غرفـةٍ صغـيرةٍ، يحتلهـا ضابطـان مُدججـان بالرتـب، وكان الوزيـر السـابق، طلحـة رضـوان، مُكتمـلًا في إشـعاع ذوي الشـأن العـالي، يجلـس بارتياحٍ وأمامـه فنجـانٌ مـن القهـوة.

– سعادة الوزير؟

كان كولمبـس مَـن نطقهـا، وسـبقني برغـم تيبُّسـه، ولم يكـن حليمـو سـينطقها أبـدًا، لأننـي أشـك بأنـه يعـرف الوزيـر طلحـة أصـلًا.

مـا قيـل في تلـك الغرفـة يـا أسـماء، ومـا تبـع ذلـك مـن ارتجـاجٍ في داخـلي، أدونـه لـك بوصفـه واحـدًا مـن الأحـداث الكـبرى التـي عصفـتْ بحيـاتي، بعـد حبـك. الوزيـر لم يقـل شـيئًا في البدايـة، وأحـد الضابطـين تحـدَّث، ولم يكـن القصـد

أن يُعلن براءتنا، ويُطلقنا، ولكن ليطرح المزيد من الأسئلة، والمدينة خارج الأسوار كما فهمتُ، تفور وقد أصابها الرعب. الرجال الميتون اكتشفتْ هوياتهم أخيرًا، وكانوا تجار ماشية من وسط البلاد، باعوا بضاعتهم مؤخرًا، وكانوا في طريقهم إلى موطنهم، وقد فُقدت جرابات الجلد التي كانوا يربطونها في وسطهم وتحمل الثروة.. نتيجة تشريحهم لم تُبين سببًا للوفاة على الإطلاق، واستخلصت مواد من أحشائهم وعينات من أنوفهم وجلودهم، وتحت أظفارهم وأرسلت إلى العاصمة تمهيدًا لإرسالها إلى خارج البلاد، لمعرفة سبب الموت.

كانت المأساة العظيمة، أنهم إخوة، والآن نفرٌ من قبيلتهم كانوا موجودين بالمدينة، خارج نطاق السيطرة. قال الضابط إنه يستنتجُ بأنهم استُدرجوا إلى بيتي من أجل صفقةٍ وهميةٍ، لشراء شيء لا يعرفه، واستُلبت منهم نقودهم، وقُتلوا بعد ذلك.

إذا لم أكن أنا من استدرجهم، وقتلهم، مَن فعل ذلك؟

يا إلهي.

ارتججتُ بشدةٍ، ارتججتُ حتى لم أعد أميز بين الوزير وساعٍ عادي دخل الغرفة، يحملُ أوراقًا، بين ما يقوله الضابط ويقوله عقلي المُشتعل، ولعنت حاستي المتمكنة

بعنفٍ، ذلك أنني كنتُ أعرفُ، ولم أسع لتعميم معرفتي، لإيقاف ما قد يحدث ذات يوم.

شمس العلا.. يا إلهي!

أمه التي باعت أرضها الزراعية، كانت في الواقع تُجار ماشية تُعساء، استُدرجوا إلى فخ، والمال اللازم للاقتران بفتاة الأسرة الراقية، كان حصيلة جريمة، لم تحدث مثلها في المدينة أبدًا من قبل.

لكن لماذا في بيتي بالتحديد، وبماذا قتلهم، ولا تُوجد آثار قتل؟

نقرتُ على رأسي عدة مراتٍ، وعرفتُ. ليس صعبًا أبدًا على عبقري الكيمياء أن يعثر على المادة المطلوبة، لإزهاق روحٍ من دون عنفٍ، ولطالما كان متمكنًا في كل ما يتعلق بالمواد وتأثيرها، ونجح كثيرًا في استخلاص مواده الخاصة، التي لا تُوجد معادلاتها في الكتب.

وأنا ألتقطُ أنفاسي، وأعثرُ على صوتٍ أستطيع أن أستفسر به، ويحميني وجود الوزير المشع، يدعمني ليسمعني الضابطان، سألتُ:

– وهل عثرتم على شخصٍ من المحتمل أنه مُرتكب الجريمة؟

– لا.. باستثنائك أنت.

رد الضابط بعنفٍ.

عند ذلك تحدث الوزير، لأول مرةٍ منذ دخلنا وكان حديثه واضحًا، حديث ابن قانون، أبًا عن جد، على الرغم من أنه لم يدرس القانون، والواقع أنه لم يقف على باب جامعة قط:

- ليس لديكم أي أدلة ضد أقاربي، وكون أن الرجال وُجدوا في بيت الأستاذ لا يعني أنه قاتلهم، وقد أقرَّ كثيرٌ من الشهود بأنهم سمعوا صرخته، ساعة أن عثر على الجثث. أقرت بائعة قصب السكر، أسماء، أنه جاء معها في نفس الباص، وأقر سائق الباص الذي استُجوب، أنه كان من بين ركاب باصه، ومن اطلاعي على وقت الوفاة التقريبي الذي حدَّده الطبيب، أقول لك بأن الأستاذ كان في بيتي، في تلك الساعة. فاروق كان في بيته وشهد كثيرون كانوا يجلسون معه، والأخ حليمو، لم يُبارح منزله، ويذهب إلى وسط المدينة ليفاوض تجارًا أو غيرهم، منذ أكثر من عامين. سأدفع كفالتهم جميعًا بموافقة النيابة.

أقسم أن أمونة عوض السيد، ساكنة حي المساكن السابقة، كانت أغبى امرأة في الدنيا، حين لم تتزوج من طلحة، وتستمتع بثروته، وبلاغة لسانه، وأسفاره المتعددة التي جاءت بعد أن أصبح وزيرًا.. لا.. لا.. أتراجع عن

قسمي، فقط لأنني تذكرتُ الحب ووعكاته، وعذرتها. لقد اختارتْ مَن أحبته.

كنتُ أستمعُ إلى بقية كلمات الوزير، بنصف عقلٍ، بينما النصف الآخر، أضفره حبالًا يائسة، أحاول بها أن أصطاد خلًا ولو بسيطًا في المحنة، يخرج عبره شمس العلا، عبقريًّا في الكيمياء فقط، بلا أي إضافاتٍ مُهلكةٍ، وما سيُنفقه في العرس، بالفعل، قيمة أراضٍ زراعيةٍ، باعتها الأم من أجله. مع الأسف الشديد، لم يكن ذلك ممكنًا، والآن تهبط إلى ذهني مثل مطر الجليد القاسي حزمٌ من الذكريات، لا مجال لدحضها أبدًا، تذكرتُ مفتاح بيتي الذي يملك نسخةً منه منذ سنواتٍ، أنا الذي أعطيتها له كنوعٍ من الاطمئنان، أن يأتي لتفقدي في البيت، إذا لم أحضر إلى المدرسة ذات صباح، وهذا ما لم يحدث إلى أن استقلت. نظرته لتجار العملات، والهامشيين الذين اغتنوا بالحظ، لا بالكدِّ، والأهم من ذلك، قدرته على اختراع الأذى الكيميائي.. بحيث يُؤذي من دون أن يُسبب صوتًا، أو يترك أثرًا بينًا تكتشفه معدات التشريح الكلاسيكية. يا إلهي. صديقي الوحيد، الذي ما زلتُ محافظًا على صداقته، ولم أعتبر أبدًا أن إصراره على مسح حذائه، عشرات المرات في اليوم، خلًا يستحق تصنيفه اضطرابًا، والآن أتمنى أن يُصنف كذلك حتى يفلت من الحبل الذي سيدور في رقبته، لو انكشف أمره.

لكن هل من المعقول أن أفضحه أنا؟

أن أقـول لهـم بـأن لـديَّ حاسـةً متمكنـةً، لا تخيـب، صنفـت الصديـق قاتـلًا، ولم يخيـب ظنهـا؟ أن أخبرهـم عـن نسـخة المفتـاح، عـن النظـرة التـي يحملهـا؟ هـل أفعـل ذلـك يـا أسـماء؟

لقـد جـررتُ ضياعـي فيـك بالقـوة، في تلـك اللحظـة، لا لأعيـد إحيـاءه، وهـي لحظـةٌ لا تحتفـي بضيـاع العشـق، فقـط أردتُ مقارنتـه، بتلـك المعضلـة، وكان أهـون كثـيرًا منهـا.

سأرتاحُ الآن قليلًا، لأنني تعبتُ.

أفقـتُ، والضابـط المتحـري، يترنـح أمـام حجـة الوزيـر، غـير القابلـة للنقـاش، وثمـة كفالـة سـتدفع مـن أجـلي وأجـل حليمـو وكولمبـس، لكـن كولمبـس لـن يعـودَ إلى عفـراء وجعفـر، للأسـف الشـديد، هنـاك مسـألة البانجـو الـذي عـثر عليـه في جيوبـه، ومسـألة أخـرى طـرأت بعـد ذلـك، وهـي أنـه كان بالفعـل ذلـك الملثـم الـذي كـسر مـرة ذراع فتـاة هـوى في حـي الصهاريـج واختلـس إيرادهـا، ولم يسـتطع أحـد إدانتـه، وكانـت المفاجـأة هـي أنـه بنفسـه مـن اعـترف بذلـك وبأشـياء أخـرى مخزيـةٍ أيضًـا، تحـت تأثـير الأعـراض السـلبية لغيـاب المخـدر في دمـه، وأخفقـتْ محـاولًاتي كلهـا مـن أجـل إسـكاته. أوصـاني بعفـراء وجعفـر، وأنـا أحتضنـه بعاطفـةٍ طارئـةٍ، وقـال

وهـو يمـضي برفقـة مجنديْـن يحرسـانه، بأنـه سـيعودُ قريبًـا إلى بيتـه وعملـه، ولـن يقـرب سـكك الضيـاع مـرةً أخـرى.

كنـتُ في أشـد اللهفـة، لسـؤال الوزيـر عـن وضعـي في بيتـه، وبالنسـبة لهـمام، وأوشـك أن أبـكي كلـما تذكـرتُ بأننـي قـد أُنتـزع مـن حـي البسـتان، ولا أسـتطيع ممارسـة العـذاب الممتـع قريبًـا مـن منبـع الرحيـق مـرةً أخـرى. والوزيـر أراحنـي بشـدة، حـين ابتسـم في وجهـي، ردد:

– خذ عدة أيام إجازة، لترتح، وعُد بعد ذلك إلى عملك.

الآن، ومـرة أخـرى أحـس بـأن أمونـة عـوض السـيد، قـد أخطـأتْ، وأعـود لأردد لنفـسي بحنـق: لا.. لا.. لم تُخطـئ، كانـت تُـؤدي واجـب الحـب حـين تزوجـت مـن رجـلٍ اختـاره قلبهـا.

– ألا توجد مشكلة؟

كنتُ أسأله.

ويجيبُ:

– لا.. أبدًا، لا توجد أي مشكلة.

لم أكـن أملـك جـرأةً، أدخـل بهـا بيتـي، بـل حتـى لأقـترب منـه مجـرد اقـتراب، ومشـهد تجـار الماشـية الميتـين، يـكاد يتمـدد في الطريـق كلـه، كان الشـارع مزدحـمًا بالفضوليـين، عـشرات منهـم مرابطـون أمـام البـاب، يتطلعـون إلى الأفـق، كأنهـم ينتظـرون شـيئًا، وأقسـم بأنهـم كانـوا يتحدثـون عنـي،

يخترعون البدايات، وينتظرون أن تُكملها المصادفة، أعرف أن سمعة بيتي وما جاوره من البيوت الآن في الحضيض، وسمعة الحي كلها في المحك، وما لم تعلن السلطة أنها توصلت لطريقة القتل وهوية القاتل فلن يتغير شيء؛ لقد أُعلم أقارب تجار الماشية الراحلين بأن لا دخل لي في شيء، وأنني ضحية استخدام بيتي مسرحًا فقط، والتحريات ما زالت جاريةً لمعرفة الفاعل الحقيقي، ودوافعه، وطريقة ارتكابه للجريمة، وتقبلوا الأمر بقليلٍ من الرضا، وعلى مقعدٍ بلاستيكي في الشارع العام، أحضرته عفراء الباكية من بيتها، ومحاطًا بنفرٍ من أبناء حي المساكن المساندين، جلست لأقضي الليل، خارج بيتي.

لم أرد على أي سؤالٍ خبيثٍ من تلك الأسئلة الفاجرة التي رشقني بها البعض، وظللت طوال الليل، مُنتحيًا بنفسي، وللأسف الشديد، لم أكن معك يا أسماء، كنتُ مع الصديق القاتل، أبحثُ عن ثغرةٍ، عن مفتاحٍ ضائعٍ، عن أملٍ، عن رقدةٍ هامدةٍ للضمير، الذي ينغزني لأخبر بما أعرفه. أتذكر انشراح وجهه حين جلسنا، ولا أستطيع أبدًا أن أتصور قاتلًا منشرح الوجه، وهو يُخطط لجريمة. لن أبحث عنه، وأخاف إن بحثت، أن ألحق بأولئك التعساء، ومعلوماتي عن القتلة العصابيين، وهكذا صنفت شمس العلا، أنهم، لا يتذكرون حتى صلة الدم، حين ينوون القتل، وأخاف أن يبحث هو عني ويجدني، وساعتها لن

أعـرفَ كيـف أبـدو صديقًـا مخلصًـا، مـن المحتـم أن يشـارك بـكل كيانـه في حفـل الزفـاف، وأنـا أعـرف كل شيء.

الآن أصـوات الليـل التـي كنـتُ أسـمعها في السـابق، مـرَّت مجسـدةً كلهـا مـن أمامـي، الـكلاب اللاهثـة، ضفـادع الـبرك الموحلـة، القطـط المنتشـية والتـي تبحـثُ عـن نشـوةٍ، سـكارى يترنحـون، ولـص تعـس، يطـارده مـأزق، وكانـت عفـراء التـي ظلـت سـاهرة في بيتهـا، تطـل علينـا مـن حـينٍ لآخـر، وجعفـر يتبعهـا زاحفًـا، يبـكي بشـدةٍ. مـع بدايـة بـزوغ الفجـر، انفـض المتحلقـون مـن حـولي، ثمـة أعـمالٌ يؤدونهـا، وعليهـم أن يذهبـوا، وكنـتُ أنتظـر الصبـاح كامـلًا لأدخـل بيتـي بـلا رعـبٍ. أعـرف بأننـي لـن أسـتطيع النـوم، ولطالمـا كانـت أيامـي كلهـا منـذ عرفتـك، بـلا نـومٍ حقيقـي، الآن أضيفـت تلـك المحنـة، ومخرجـي غـير موجـودٍ، ولا أؤمـن بوجـوده، كنـتُ بحاجـةٍ إلى معجـزةٍ كي أنجـو مـن تلـك الغيبوبـة الكـبرى، وأعـود إليـك يـا أسـماء، أعـود أنـا الحـالم، النـاري، الوعـر في مناسـك العشـق التـي تسـتحقين أن تُـؤدى لـك.

أظننـي غفـوتُ عـلى مقعـدي، ولم أنتبـه لتلـك السـيارة التـي توقفـتْ أمامـي فجـأةً إلا بعـد أن هبـط سـائقها، وكان نفسـه ضابـط الشرطـة الـذي اسـتجوبنا في حـضرة الوزيـر، وأطلقنـا بعـد ذلـك أنـا وحليمـو، كان يبـدو مُجهـدًا، شـاربه غـير منسـقٍ جيـدًا، وقـد حظيـت بقعـة حمـراء عـلى وجهـه،

بحـك وافـر، لأنهـا بـدتْ متورمـةً. وقـف أمامـي، وخاطبنـي مبـاشرةً مـن دون أي تحيـةٍ:

– عفـوًا يـا أسـتاذ، هنـاك سـؤالٌ لم أسـأله لـك سـابقًا: هـل يُوجـد مـن يمتلـك نسـخةً مـن مفتـاح بيتـك؟

آخ، سـؤالٌ ضـارٌّ مُفاجـئٌ، سـيجعل ضميري يهتـز، سـؤالٌ لم أكـن أتمنـى أن أُسـأله، ومضطـرٌ أن أجيـبَ عليـه الآن، سـلبًا أو إيجابًـا، قلـتُ بمـا يُشـبه الإلهـام:

– نعم. أخي الأكبر بخاري.

– أخوك بخاري؟ هل لك أخ؟ وأين هو الآن؟

الضابـط فُوجـئ بـلا شـك، ولم يـرد اسـم لسـاكنٍ آخـر بالبيـت غـيري، في تلـك التحقيقـات المكثفـة التـي أُجريـت، ولعلـه يظـن بـأن أخـي هـذا يُقيـم في بيـتٍ آخـر، ويدخـل بمفتاحـه، حـين يـزورني.

– اختفـى منـذ سـبعة أعـوام يـا سـيدي، ولم يظهـر بعـد ذلـك قـط.

أظنـه أحبـط، وعـلى الرغـم مـن ذلـك، لم ينهـزم، اقـترب منـي أكـثر، تنـاول بـراد الشـاي الـذي أحضرتـه عفـراء السـاهرة، حـارًّا، وصـبَّ لنفسـه كوبًـا، كان ثمـة مقعـدٌ خـالٍ بقـربي، جلـس عليـه، سـأل:

– لماذا اختفى؟ ولماذا لم يعد؟.. هل حدثت مشكلة بينكما؟

– لا.. أبدًا، كان من أعضاء حزب البعث الاشتراكي النشطين، وطاردته الأجهزة الأمنية.

قلتُ وأنا أتطلع إلى وجهه.

ارتبك بشدةٍ، وبدت النجوم المفترض أنها مُشعة، على كتفيْه، مجرد خيوطٍ باهتةٍ، صدئةٍ، ويعرف، وتعرفُ الدنيا كلها، أن كلمة مثل الأجهزة الأمنية، كفيلةٌ بإرباك آلاف من ضباط الشرطة على شاكلته، هناك لا تُوجد تفرقةٌ بين مدني وعسكري، بين رجلٍ يحمي القانون، ورجلٍ يُمزقه. مملكة حكيم الدرل، وعاجني خبز الضرر. تزحزح بمقعده حتى ابتعد عني مسافةً تكفي لدحر الوسواس، واستطعتُ أن أستنتج بأنني هزمته، وأنه سيرحل قبل أن يُكمل كوب شايه.

في تلك اللحظة، كان قدسي قرياقوس، يعبُر بعربته القديمة، باعة اللبن المبكرون، يخبُّون بحميرهم، وكان عليَّ أن أستيقظ أكثر، لأن شوقًا اجتاحني فجأة لطقوس عشقي، التي لم أؤدها كاملةً ولا صحيحةً، منذ عدة أيامٍ.

-١٧-

ثلاثة أشهر مريرة، مرَّت، منذ محنة بيتي، ولا جديد على أي مستوى من مستويات الحكاية كلها.

لم يتوصل أحدٌ إلى معرفة أسباب وفاة الرجال قط، وجاءت نتائج تلك العينات التي أرسلت للعاصمة، ومنها إلى خارج البلاد، سلبية تمامًا. لم يكن ثمة أثر لتسمم، أو جرعة زائدة من أي مكروهٍ، أو تمزق في الأحشاء، أو حطام في القلب، وأضحى البحث عن قاتلٍ محتملٍ شبه متوقف، لأن أدوات إدانته لم تكن متوافرة، ولا تريد أن تُصبح متوافرة.

ضميري الذي كان ينغزني من حينٍ لآخر استطعت أن أسكته تمامًا، رشوته بتفاصيل صداقتي القديمة جدًّا بشمس العلا، وما بيننا من ذكرياتٍ بعضها ثري بالفعل،

وبعضها مجرد خربشات على جدار الحياة، وشمس العلا من ناحيته، لم يتوقف عن زيارتي قط، ولا عن اصطحابي إلى صيد السمك، أو جلسات حميمة، أنا أقضيها صامتًا أتأمله، وأتخيل لحية شيطان قد نبتتْ في أسفل فكه، وعينيْن ملوثتيْن بأرواح الضحايا تتأملانني من حينٍ لآخر، وأستغرب من صلابته، وشدة بأسه، وفرحه الغامر، وأنه سيتزوج حالًا، من حصيلة جريمة لم تحدث من قبل، ولا أتوقع حدوثها مرةً أخرى في تلك المدينة. وكم من مرةٍ غزاني الرعب من مجرد الجلوس بقربه، ومبادلته الأحلام، وبتُّ أخاف أن أتذوق شيئًا من طعام التسلية الذي كان يجلبه في كثيرٍ من الأحيان، مثل الفستق المملح، وشيكولاتة جيرسي، ولبّ القرع الذي يشتريه من بائعاتٍ مخمراتٍ في الشوارع، أتعلل بخطبٍ في المعدة يمنعني من الأكل، ونصائح أطباء لم أزرهم حقيقة، وفي اللحظات التي أجد فيها لساني مبريًّا بحدةٍ، ومستعدًّا لطرح عدة أسئلة شائكة، مثل:

كيف قتلتهم؟

ولماذا في بيتي بالتحديد؟

وكيف تبدو عاديًّا وأنت قاتل؟

أجد نفسي أتراجع، ولساني المبري جيدًا تتكسر نصاله، أنا خائفٌ من شمس العلا يا أسماء، خائف جدًّا،

وأصادقه بدافع الخوف أيضًا، لأن انقطاعي عن صداقته يعني أنني استربتُ فيه، ولو شك للحظةٍ بأنني استربتُ فيه ستكون نهايتي، ولا أريد نهاية ليست من نهايات حبك، أعني أرحب بالموت في كل لحظةٍ، فقط لو كان منك ومن عشقك، وليس من اختراع مجنون عبقري.

في الأيام الأولى للمحنة جاء شمس العلا عدة مراتٍ إلى بيتي، دراجته النارية من ماركة الفيسبا القديمة، مغسولة ولامعة، وقد جدَّد طلاءها، وحذاؤه الأسود كالعادة، يُجابه المسح المجنون في أي لحظةٍ، واساني كثيرًا، وسبَّ جميع آباء القاتل المجنون الذي تجرأ أن يقتل ثلاثة أشخاص دفعة واحدة في بيت معلمٍ محترمٍ، وأيضًا أخبرني بأنه تصدى بكفاءةٍ لكل الشائعات التي انطلقت في المدرسة، بأن معلم الكيمياء السابق قاتل، وسعى بنفسه إلى قسم الشرطة، ليُسجل شهادة براءة في حقي لم يطلبها منه أحدٌ، والتقى بأقارب المتوفين كلهم، وكانوا من منطقةٍ قريبةٍ من قريته، عزاهم في فقدهم، وشارك في تشييع الضحايا إلى مقبرة المدينة نيابةً عني، وهو يعرف بأنني في صدمةٍ، ولا أستطيع أن أفعل ذلك.

في ذلك اليوم بالتحديد، سألته وأود أن أستوثقَ من تخمين حاستي في أمره، وكنتُ قد صنفته قاتلًا عصابيًّا، بلا مشاعر:

– مـاذا كنـتَ تفعـل، لـو دخلـت بيتـك ذات يـوم وعـثرتَ عـلى جثـثٍ كـما حـدث معـي؟

ردَّ ويـده تحـرك الخرقـة النظيفـة التـي أخرجهـا مـن جيبـه، عـلى حذائـه النظيـف أصـلًا:

– لـن أصرخ كـما فعلـت أنـت، سأسـتريح قليـلًا، أتنـاول عشـائي، وبعـد ذلـك أخـبر جـيراني، وأذهـب للشرطـة.

واسـتعدادًا لطـرح سـؤالٍ جديـدٍ قد يبـدو بريئًـا في ظاهره، وواسـع الخبـث في باطنـه، ذهبـتُ إلى مكتبـة أبنـاء البلـد، التي يملكهـا العطـا، مديـر مدرسـتنا الأسـبق في وسـط المدينـة، كنتُ قـد شـاهدت مـن قبـل كتابًـا عـن أشـهر السـفاحين في التاريـخ الإنسـاني، وأرعبنـي مجـرد عنوانـه، والآن أريـده بشـدة، أردتُ أن أقـارن بـين سـكانه الوحـوش، وزميـلي، سـاكن صداقتـي القديمـة شـمس العـلا. كنـتُ محظوظًـا حـين عـثرتُ عـلى نسـخةٍ وحيـدةٍ، أخفيتهـا تحـت ثيـابي وأنـا أتلفـتُ، كأننـي أرتكـبُ فاحشـةً، وأنفقـتُ فيـه نهـارًا كامـلًا وكانـت نظـرتي للأسـف صحيحـةً تمامًـا: جريـي هيدنـك، جـورج جروسـمان، فريتـس هارمـان، كارل دينـكي، والعـشرات منهـم، في كل بقعـة بالعـالم، ووردت سـيرهم كاملـة في الكتـاب، جميعهـم يتسـمون بـبرودة الأعصـاب، وأنهـم لم يكونـوا مُشرديـن ولا عالـةً عـلى أحـدٍ، وفيهـم أطبـاء، وتقنيـون وأصحـاب وظائـف براقـة، ويمكنهـم أن يُقيمـوا صداقـاتٍ، وأن يُحبـوا ويتزوجـوا

ويعيشوا سعداء بصحبة عائلاتهم، لكن دائمًا ثمة خلل ما في سلوك أي منهم، هناك مَن كان يشتري حمالات صدور النساء يُخزنها في بيته، هناك مَن تشتعل غريزته الجنسية، على صراخ طفلٍ حديث الولادة، هناك من يعشق نواح النائحين على ميتٍ، وفوبيا اتساخ الحذاء ومسحه عشرات المرات في اليوم، خللٌ كبيرٌ، عند شمس العلا.

سألته بعد ذلك، حين التقيته، كأني أسأل عن خيالٍ بعيدٍ:

– هل تظن بأن الذي قتل أولئك الرجال في بيتي يمكن أن يعيش سعيدًا بعد ذلك؟

كان في مرحلة وضع طبقةٍ جديدةٍ من الطلاء اللماع على حذائه، وكنا في كافيتريا مراحب، نتناول غداء خفيفًا، وكانت المدارس قد أغلقت، ولم يبق على موعد زفافه من الفتاة الراقية، سوى عدة أيام.

ردَّ على الفور، ويده لا تزال مشغولةً بالتلميع:

– وما الذي يمنع ذلك؟ لقد نفذ مهمةً يعتبرها حيويةً من وجهة نظره، وأكيد أنه نفذها ببراعةٍ يستحق عليها السعادة.

أضاف وعيناه في عينيَّ مباشرةً:

– لكـن التحقيـق أثبـت أنهـم ماتـوا ميتـةً طبيعيـةً.. أليـس كذلـك؟

– نعم.. نعم..

قلـتُ وأحـس أن حلقـي يابـسٌ، وثمـة وجـع طـارئ في أمعـائي.

وفي حفـل زفافـه الـذي حضرتـه بعـد ذلـك، وأقيـم في قاعـة صفـاء الفاخـرة، بنـاء عـلى رغبـة العـروس، وحيـث جـاء إليهـا العروسـان بعربـة مرسـيدس سـوداء مزينـة بالورود اسـتؤجرت خصيصًـا مـن وكالـة عشـم اللـه، أول وآخـر وكالـة للسـيارات بالمدينـة، صعـدتُ إلى المـسرح كي أهنئـه، كان سـعيدًا بشـكلٍ لا يُصـدق، والمغنـي المرمـوق الـذي أحـضره مـن العاصمـة، كان كفيـلًا بمـلء الليلـة كلهـا، وارتجـل بكفـاءة، أغنيـة اسـمها "عاصـم، وتيسـير" أهداهـا للعروسـيْن، وعروسـه فتـاة الأسرة الراقيـة حسـناء في كل شيء، شـدني بغتـةً مـن قميـصي، حتـى قـارب وجهـي وجهـه، أخـرج مـن جيبـه مفتاحًـا قديمًـا صدئًـا، دسَّـه في يـدي، وهـو يقـول مـن بـين ضحـكات خلتهـا ضحكات وحـش:

– مفتاح بيتك يا صاحبي. آسف جدًّا.

أضـاف فيـما يُشـبه الهمـس، بعـد أن عرَّفنـي بزوجتـه السـعيدة:

– كانت المادة في إحدى شموعك، وقد نظفتُ المكان.

– أي مادةٍ؟

هتفتُ وقد تشوش عقلي:

– تلك التي استنشقها الأغبياء. التيجاني وقسم الله والنعيم..أغبياء حقيرون،لم يكونوا يستحقون الحياة.

بصق على الأرض بعشوائيةٍ لا تُلائم طقس الرقي الذي هو داخله، وغمز لي بعينه وضحك.

لن تُصدقي يا أسماء بأن حصيلة صداقة اثني عشر عامًا، بيني وبينه، قد فرَّت في تلك اللحظة، وأيقنتُ بما لا يدع مجالًا للشك بأنني أصبحتُ تحت رحمة مرحلةٍ جديدةٍ من صداقته، ولو صاح ضميري أو ظل هامدًا على حاله، فالنتيجةُ واحدةٌ.

ابتعدتُ عنه، وأفكر في تلك المادة التي استنشقها التعساء وماتوا من جرَّائها، ولا أستطيع الوصول إلى نتيجةٍ، لعلها أول أكسيد الكربون الغاز الذي يحتل مساكن "الهيموجلوبين" في الدم، ويمكن أن لا يتم التوصل إليه. ولكن كيف حضَّره وهو أصلًا ينتجُ من الاحتراق، ويُميت في الأماكن المُغلقة، وكان بحاجة لتقييد الرجال كي يميتهم مختنقين، وهو ما لم يحدث. لا.. ليس أول أكسيد الكربون، ولا مادة أعرفها، تلك التي أعجزت مختبرات الدنيا.

اضطررتُ إلى حضور الحفل حتى النهاية، وأنا أتصنع البهجة، ولا أجيد تصنعها تمامًا، أرقصُ على المسرح، وأتعثر، والأسوأ من ذلك أنني اضطررت إلى المبيت مفترشًا أرضًا صُلبة، أمام فندق (أوسوك)، أحد فنادق المدينة الجيدة، والذي قضى فيه ما تبقى من ليلته، قبل أن يُسافر صباحًا إلى العاصمة، ومنها إلى أثينا، حيث يقضي شهر عسله، وكنتُ أيضًا أسبقه إلى محطة القطار، أنحني ببذاءةٍ وأنا أودِّعه بحرارةٍ، وفي داخل نفسي أتمنى أن لا يعود من السفر أبدًا.

لم أكن خائفًا على المرأة الشابة التي تزوجته، وأعرف أنه لن يضرها، فما دام قد غيَّر اسمه من أجلها، وما دام قد أضرَّ بثلاثة أبرياء من أجلها، فلن يضرها. هذا هو نسق القتلة العصابيين، كما عرفته من ذلك الكتاب المرعب.

الآن أملي الوحيد، أن ينساني شمس العلا بمجرد تقرفصه على القفص الذهبي، ينساني إلى الأبد، يتركني أعيش لأعيشك، لأسترجعك، لأجعل من طيفك الغالي ممحاةً أزيل بها آثار الموت من بيتي، الكوابيس التي باتتْ تغزوني في كل ليلةٍ، وتُفسد عليَّ أرقي المضيء، اللعنة التي كانت لا تزال ممسكةً ببعض سكان حي المساكن، حين يفرون من وجهي، وتلك المهمة الإنسانية البحتة،

وهـي أن أخـبر سـعادة الوزيـر طلحـة، أن يسـعى للإفـراج عـن فـاروق كولمبـس، وقـد غـدت عفـراء مثـلًا أخـاذًا لكآبـة النسـاء، أسـمعها تبـكي باسـتمرار، ولا أسـتطيع دخـول بيتهـا بحكـم غيـاب الـزوج، ولا تسـتطيع هـي أن تدخـل بيتـي لأن ثمـة أعـزب، كان متهـمًا في جريمـة، يُقيـم بداخلـه.

المسـتثمر الوطنـي قـدسي قرياقـوس، اختفـى فجـأةً مـن حـي المسـاكن، بعـد أن بـاع روضـة الأطفـال القريبـة مـن حينـا، وواحـدة أخـرى في وسـط المدينـة، لمسـتثمرٍ جديـدٍ، ظهر فجـأةً في المدينـة، وقـد تـرك مريـا البيضـاء مُعلقـة في الهـواء، وعـادتْ تتكسـر وتـذوبُ في الشـوارع مـن جديـدٍ، سـمعنا بأنـه عُـين سـفيرًا للبـلاد في "نيكاراجـوا"، ولا أدري لِمَ اختـارت تلـك الشـائعة نيكاراجـوا في أمريـكا الجنوبيـة بالـذات، وقليلـون مـن سـكان حـي المسـاكن مَـن سـمع بهـا، وربمـا لا يوجـد مَـن سـمع بهـا عـلى الإطـلاق. قيـل أيضًـا، إنـه تلقـى تهديـدًا مـن الشـيخ "أبـو الصاحـب"، الـذي مـا زال طليقًـا لا يعـرف طريقه أحـدٌ، وفـرَّ مـن المدينـة بدافـع الخـوف، لكـن ألبـيرت الحـداد، أخـبرني بأنـه في أزمـةٍ، وفضَّـل أن يبتعـد بنفسـياته المُحطمـة حتـى ينتهـي كل شيء ويعـود. ولم أسـتطع أن أخمـن، وبرغـم كل مـا أبدتـه حاسـتي المُتمكنـة، مـن تعـاونٍ حتـى الآن، إن كان صادقًـا أم كاذبًـا؟ الـشيء الـذي اكتسـبه الحـداد مُجـددًا، والحقيقـة أنهـا كانـت اسـتعادة لـشيء كان عنـده وفقـده، هـو أنـه عـاد لتتبـع ذوبـان أختـه، وعـراك النـاس في الشـوارع.

أذكر يا أسماء، ذلك اليوم الحار الرطب بشدةٍ، أذكره لأن عينيَّ ما زالتا تؤلمانني، ووجهي المشوه الذي شاهدته، بتضاريس لم تكنْ عندي ولا أظنها ستكون، ما زال متمثلًا أمامي بشدةٍ. خرجتُ من بيتي قاصدًا موقف الحافلات، لأستقل واحدةً إلى وسط المدينة، وأخرى إلى حي البستان، بعد أن أنشأت السلطة خطًّا للمواصلات العامة، لذلك الحي الراقي، ولم يكن ثمة واحدٌ من قبل، وقد أخبرتك مرارًا بعربات الأجرة التي كنتُ أستقلها وسائقيها غير المرشحين لرئاسة النقابة بسبب الحسد، وأسكتني صاحب الكرسيدا النظيفة، الذي كان هو الرئيس.

شاهدتُ وجهي مرسومًا باستفزازٍ، بلحيةٍ مضحكةٍ، وأنفٍ مُقزز عليه بقايا مُخاط، وأرتدي ملابس ممزقةً، وبجوار الرسم كُتب بالفحم: المجنون.. عاشق أسماء. شاهدته على حوائط بيتي، حوائط بيوت الجيران، وبعض الأبنية الأخرى التي شاهدتها بعد ذلك، في أحياء أخرى قريبة من حي المساكن، أثناء عبوري لها بحافلة الركاب. فضحني سكانُ حي المساكن يا أسماء، صيَّروني مجنونًا قذرًا مرسومًا على الحوائط، كتابًا مدنسًا يقرأه الكلب وماشي الدرب، ونسوا أنني كنتُ من وجهاء الحي وما أزال، ولن يعرفوا أبدًا أن العشاق الخالدين، هم الذين تعشش سيرهم في النهاية، وترحل سير أولئك الذين صنفوهم عارًا. أستغرب من ذلك كله، أستغرب من الذين

لم يبصروا ثلاثة تعساء، يُساقون للموت في بيتي، وأبصروا العشق في عيني، في سلوكي. لا هذا لم يحدث، هناك مَن تشدَّق بالسر، هناك مَن حرَّض، مَن روَّج اسم المعشوقة. وتذكرت فجأة فاروق كولمبس، ومحاضرته الركيكة عني التي ألقاها في ركنه، لكن ذلك كان منذ مدةٍ، ولا أعرف ما الذي قفز بها الآن إلى أذهان أولئك الذين رسموني.

كنتُ أمام حلين، أن أترك تلك المدونات الشوارعية كما هي، حتى تنقضي مدة تداولها، إن تداولها أحدٌ وينتهي الأمر، أو أسعى لإزالتها بشتى الطرق. كان وجودها سيقضي على ما تبقى من أعصابي التي كنتُ أدخرها للقائك، وللأسف لم يبق من ثباتي شيء كثير.

لن تتخيلي ما حدث بعد ذلك يا أسماء، بعد أن ذهبتُ إلى حيِّ البستان، اعتذرتُ عن تدريس هِمام في ذلك اليوم، لسببٍ طارئ وعُدت. لقد كانت عفراء، جارتي، برغم أنها مَن نبهت الزوج العربيد، بأعراض عشقي أول مرةٍ، وبرغم أنها لم تنقطع عن البكاء قط من يوم تلك المحنة، إلا أنها كانت عوْنًا كبيرًا، وقد قضينا أمسيةً سخيفةً رافقنا فيها صاحب عربة كارو شهم، نغسل جدران البيوت من أدران لعبة خرجتْ تمامًا عن حدِّ اللياقة. وما كنتُ أتوقع أن يحدث ذلك في حي المساكن.

أتذكـرُ محيـي الديـن فجـأةً يـا أسـماء، ألمـاني القديـم، صائـد السـائحات المسـتهتر، الـروائي بـلا روايـة، و"أبـو الصاحـب" الجديـد الـذي لم أعـرف قـط أسـباب تطرفـه فجـأةً، ومـا كان في نظـري مـن القابلـين للتطـرف، أتذكـر ضياعـه المُختلـف، ولا أسـتطيع أن أقـترح مكانًـا ربمـا يُوجـد فيـه الآن هـو ورفيقـه الأزهـري طبـاخ الأتـراك العنيـف الـذي تطـرف أيضًـا. لقـد سـمعنا بـأن أعضـاء تنظيمـه التعسـاء قـد رُحِّلـوا إلى العاصمـة، وعُوقبـوا بأحـطِّ العقوبـات بعـد محاكـماتٍ سريعـةٍ، وسـمعنا أن أبـا الصاحـب قـد لملـم أطرافـه مـرةً أخـرى، ويسـتعد لقتـال السـلطة بحـق منطلقًـا مـن إحـدى الـدول المجـاورة. وسـمعنا أيضًـا أنـه في سـبيله لنيْـل الشـهادة، بقتـال الشـيوعيين في أفغانسـتان. والـذي حـدث بالفعـل، أن لا ألمـاني "أبـو الصاحـب" ولا الأزهـري، قـد ظهـرا في المدينـة، حتـى لحظـة تذكـري هـذه.

ـ١٨ـ

كانت عَلاقتي قد توطدت ببيت الوزير طلحة، بصورةٍ مشرقةٍ، برغم قصة الموتى الثلاثة في بيتي، التي لم يسألني عنها أحدٌ داخل البيت. لم أعد ساكن حي المساكن الشعبي الذي يُلقي درسًا لهمام في غرفةٍ منعزلةٍ ويمضي مُتسكعًا في حي البستان، على أمل أن يقتنصك طيفًا أو حقيقةً ذات يومٍ، وما عادت "ليلك" الفخمة، الممسكة بجمالها القديم، لا تفلته، تتكئ على الباب حاملةً عصيرها الغامض، تسأل سؤالًا أو سؤالين عن همام وتمضي إلى عالمٍ لا أعرفه، وبالكاد أستنشقُ رائحته.. وكعادة البيوت في البلاد كلها، حين تطول الإطلالات الغريبة بين أركانها، تتأقلم، ولا يصبح الغريب غريبًا بأي حالٍ من الأحول.

كان بإمكاني الآن أن أتمشى في البيت إذا أردتُ، أن أطلب طعامًا إنْ كنتُ جائعًا، أن أنهر خادمةً كسولةً، أو أشكو

مـن اتسـاخ المرحـاض، إنْ وجدتـه مُتسـخًا، وكانـت ليلـك الآن، تدخـل تلـك الغرفـة المنعزلـة، تجلـس عـلى مقعدهـا بارتيـاحٍ تـام، وتُحـاورني في كل مـا يخطـر ببالهـا، ومـا لا يخطـر ببـالي، ولدرجـة أننـي أوشـكتُ في أحـد الأيـام أن أبـكي أمامهـا بحرقـة أيامـي كلهـا، وأطالبهـا علانيـة أن تُسـاعدني في البحـث عـن أسـماء. حدَّثتنـي عـن أبيهـا الراحـل بافتتـانٍ، وعـن أمهـا الراحلـة أيضًـا، بكثـيرٍ مـن العرفـان بالجميـل لهـا، لأنهـا أنجبتهـا، عـن أخيهـا الوحيـد "والي" الـذي يعمـل في منظمـةٍ دوليـةٍ، تُعنـى بشـؤون لاجئـي الحـروب في إفريقيـا، ومقرهـا نـيروبي، وأنـه قـادمٌ عـما قريـبٍ مـن أجـل أن يتـزوج بواحـدةٍ مـن حسـناوات حـي البسـتان ليسـت مـن أقاربهـم، ولكنـه شـاهدها في زيارتـه الماضيـة في حفـل عـرس إحـدى قريباتهـم، وجـاءوا مـن العاصمـة لحضـوره، لأن طلحـة كان وزيـرًا في ذلـك الوقـت، وتمـت خطبتهـا لـه، بعـد أن وافقـت الفتـاة، ووافـق أهلهـا.

أحسسـتُ بـدوارٍ عنيـفٍ في ذلـك اليـوم، وبـأن قلبـي يُخفـق بشـدة، واسـتغربتُ مـن دواري وخفقـان قلبـي.

لمـاذا أتخيـل كل فـرحٍ قـادمٍ، ضـدي؟ لمـاذا أتخيـل حسـناوات حـي البسـتان جميعهـن أنـت؟

هنـاك آلاف الخامـات المشرقـة، مـن مختلـف الأعـمار، شـاهدتها، تتمـشى أو تضحـك، أو تتسـوق، أو تخيـط الثيـاب،

أو تمضي أمسياتها الناعمة في الحدائق. عشرات الجميلات، كلهن يصلحن حبيباتٍ دافئاتٍ، وخطيباتٍ، وزوجاتٍ مستقبلياتٍ لرجلٍ يعمل في منظمةٍ دوليةٍ، وحتى لو قالت زوجة الوزير بأن اسم تلك الحسناء: أسماء، فليس من حقي أن أتهيج، أن أغير، وأفكر على الفور بأنها نطقت اسمك. فكرت أكثر من مرةٍ، ولم أستطع أن ألغي توتري وعدم ارتياحي، الذي ظهر جليًّا، وجاءتني ليلك بكوب ماء وقرصين من دواءٍ مُسكن، لأنها شاهدتني أضغط على رأسي من دون أن أشعر، وظنتني فريسةً لصداعٍ مفاجئ، وأصرَّت على أن أرقد قليلًا لأستريح، ساحبة وراءها الطفل الكثير الحركة.

تلك الأيام، كانت أكثر الأيام التي آلمني فيها حبك حقيقة، بعد أن انتهيت من محنة شمس العلا، ولم يعد ثمة زوار ميتون، يضطربون في أحلامي، ولا امرأة لاهثة، تتصبب نشاطًا في بيتي، تغسل طبقًا مُتسخًا، تُغير ملاءةً على سرير، أو تكنس أرضية ملأها التراب، وقد خرج كولمبس من السجن أخيرًا، بجهودٍ بذلها الوزير طلحة، ولم أستطع إخباره شخصيًّا، لكن ليلك أخبرته، واجتهد.

لا أذكر متى دخلت بيت فاروق أول مرةٍ، بل لا أذكر متى دخلته أصلًا، وكما أخبرتك من قبل، لم يكن الجار اللصيق جديرًا بتواصلي في يومٍ من الأيام، ودائمًا ما أعتبر

ثرثرتـه الركيكـة، في ركنـه المسـمى ركـن محـاضرات الحيـاة، تفاهـة، لا يحضرهـا سـوى تافهـين، وحتـى بعـد أن تـزوج، واقتحـم بعفرائـه التـي جـاء بهـا مـن مدينـةٍ أخـرى، بيتـي، لم أزره، وتلـك الحلـوى التـي اشـتريتها بمناسـبة قـدوم جعفـر، سـلمتها لـه أمـام البـاب وانصرفـت.

اشـتريتُ صندوقـين مـن شراب البيانـكا الغـازي، المُصنـع محليًّـا، والـذي كان فاكهـة الشـعبيين المحببـة في تلـك الفـترة، حملتهـما إلى بيتـه وفوجئـتُ بـأن بيـت جـاري، عـلى الرغـم مـن ضيقـه، ومشـابهته لجميـع بيـوت حـي المسـاكن، إلا أنـه في غايـة النظافـة. ثمـة أوانٍ مـن الفخـار المنقـوش، تحمـل أزهـارًا يانعـة، مقاعـد جيـدة مـن الجلـد في الصالـة، وفـوط نظيفـة عـلى طـاولات صغـيرة منتـشرة في المـكان. إنهـا بصمـة عفـراء التـي لاحظـت بأنهـا ابتـدأت تلهـث مـن جديـدٍ، وقـال كولمبـس ولم يكـن يضحـك، لأن الشـهريْن اللذيْـن قضاهـما في الحبـس الاحتياطـي، أطارتـا إدمـان المخـدر مـن دمـه، وبالتـالي أطارتـا المُجـون الـذي كان يتسـم بـه، ويظهـر في ضحكاتـه، قـال: إنهـا في الشـهر الثالـث، حملـتْ مبـاشرةً، بعـد شـهرين مـن ولادتهـا.

الآن أنـت في ذهنـي كاملـة توجديـن، أحدثـك متـى مـا أردت، أغنـي لـك الحـب حزينًـا، وفرحًـا، أسـلمك أشـواقي، وأنتظـر أن أسـتلم أشـواقك، ولا أنسى أن أخـبرك، بأنني فوجئتُ

في أحد الأيام بزيارةٍ لم أكن أتوقعها من شمس العلا الذي أكمل شهر عسله في أثينا، وعاد إلى المدينة مرةً أخرى. لم يكن على دراجته القديمة، ماركة فيسبا، وكان يقود سيارةً صغيرةً، وقديمة بعض الشيء، من ماركة بيجو الفرنسية. أوقفها ملاصقةً للباب، بحيث رأيتُ مقدمتها، قبل أن أراه وأنا أفتح. احتضنني بقوة، لم يسبق أن احتضنني بمثلها، ولاحظت لأول مرةٍ، بأنني أُجابه ثورًا، لا يدل عليه هزاله الشديد. دفعني إلى داخل البيت، أو هكذا خُيل لي، ومن المؤكد أنه انتبه إلى رعشتي وعرقي السخي، ومن المؤكد أنه يدري بأنني في المرحلة الجديدة، مرحلة أنني تحت رحمة جنونه العصابي. عشرات الأدلة استخرجتُها من كتاب الرعب ذلك، وما زلتُ أستخرجُ وأمزجها بذكرياتي المتعلقة به، وأجدها مطابقةً، وكنتُ قد تذكرتُ هياجه في أحد الأيام، وتشنج يديْه، حين سمع مناديًا في الطريق، وكنا نمشي معًا، يصيحُ: يا فاطمة! استدار، ومشى عدة خطواتٍ نحو المُنادي، ثم عاد، وكنتُ أرى بوضوحٍ دموعًا كثيفةً تتراكم في محجريْ عينيْه. سألته عن السبب، فردَّ: كان يُنادي باسم أمي في الشارع!

سألته ونحن داخل البيت:

– كيف كان شهر عسلك في أثينا؟

– قمة الجمال، العقبى لك حين تقترن بأسماء، سأدلك على كل منتجعات أثينا، فقد أصبحتُ خبيرًا بها. سيعجبك الأكروبولس، والمنظر الرائع للمدينة من قمة تل فلوبابو.

لم تكن ساعة غيرة، لأغير من نطقه لاسمك يا أسماء. كانت ساعة خوفٍ مضاعفٍ، وقد حرصتُ على أن أبدو بعيدًا عنه بمسافةٍ تكفي لتلافيه إذا ما جدَّ طارئ، وكان باب الصالة مفتوحًا، تركته هكذا عمدًا، وبحركةٍ تبدو كأنني نسيتُ إغلاقه. وتلك المعالم التي بات يُعددها بعد ذلك، لم تكن لترويني، وليس من العدل أن أفكر فيها، وعندي ما هو أكثر جدوى وأفكر فيه بانتظام.

– وكيف حال عروسك شيماء؟

كنت أسأله. وما أزال بلا اتزانٍ:

– تيسير يا أخي..

صحَّح الاسم، ولم يُضف شيئًا.

خلاصة تلك الزيارة التي استمرَّت أكثر من نصف ساعة، تبادلنا فيها ذكرياتٍ مضطربةً، سألنا وأجبنا عن أسئلةٍ لا ترقى لمستوى الأسئلة والأجوبة، وساندني فيها فاروق لحُسن الحظ، بعد أن أتى فجأةً، إن شمس العلا لم يأتِ بضغينةٍ، كبيرةً كانت أو صغيرةً، ولا حتى ليُذكرني

بالسيف الخفي الذي علَّقه على رقبتي. كان مجرد زائر عصابي، مجنون تذكرني فجأةً بعد أن عاد من شهر العسل، وجاء ليزرع أمسيتي خوفًا ويمضي. لقد ذكر بأنه سيهجر التعليم الحكومي مثلي إلى الأبد، وقد يُسافر قريبًا إلى بلدٍ آخر ليعمل في أي شيء غير التعليم، وتمنيتُ في داخلي بشدةٍ أن لا تكون ثروة تجار الماشية التعساء قد انتهتْ في التبذير، حتى لا نسمع عن محنةٍ جديدةٍ، ورددتُ لنفسي في السر أيضًا، بأنني لن أسكت إذا ما حدث شيء جديدٌ، سأسعى لأوقظ ضميري بنفسي، حتى لو كان في غيبوبةٍ.

حين انصرف كانت ثمة كآبةٌ من نوعٍ آخر، غير تلك الرائعة التي اعتدتُ عليها، تتلاقح في داخلي بشدةٍ، كآبة من الدنيا كلها، من فشلي وعدم مقدرتي العثور على طيفك، أو ما يدل على وجود طيفك. لعلي أحسنتُ الظن في حاستي، وكانت تافهةً، لعلك في مكانٍ آخر غير البستان الذي بتُّ أعرف تراب أرضه، وشاهدتُ معظم خاماته، ولم أشاهدك. ومن غير المعقول أن تقترب ذكرى لقائي بك من دون أن يكون ثمة لقاء آخر، من دون حُب متطرفٍ، يُعادل ضياعي.

في الصباح سأعيد رصد الأحياء الراقية من جديدٍ، لا.. لا.. مستحيل أنت في البستان، وكانت امرأة من سكانه تُناديك لتذهبا معًا في ذلك الخميس المختلف، وقد كانت

مفتاحًا سلسًا وأضعته.. أنت في البستان يا أسماء؛ ولكن في أي روضةٍ من رياضه؟.. أنا الآن أبكي.

تلك الليلة واعذريني على كل شيء يا أسماء.. اعذريني، لم أعد قادرًا على الوعي ولا على فقدانه، بكيتُ بلا رغبةٍ في دحر البكاء، وفي النهاية انهزمتُ بجدارةٍ، وتوقف البكاء. ولبستني الحالة التي كنتُ أعرفُ جيدًا، أنها ستلبسني ذات يومٍ، ولعلي كنتُ أنتظرها:

أنا المرحوم.

الميت المعنوي حاليًا، والفيزيائي قريبًا جدًّا، أقرب مما تتخيلين.

أسرعتُ إلى دفتري حيث أكتب ٣٦٦، وقَّعت باسم المرحوم على آخر فقرةٍ كتبتُها. وقضيتُ ليلي سياحةً مُرَّةً في وسائل الخلاص.

ـ١٩ـ

صُدمتُ بشدةٍ، حين أتى "والي"، شقيق ليلك، موظف شؤون اللاجئين، الذي سيتزوج في الأيام القادمة، من إحدى حسناوات حي البستان.

كان والي قصيرًا بعض الشيء، ممتلئًا بصورةٍ مخلةٍ، وعلى صدره شبه العاري، والمُزين بسلسل من الذهب، آثار حرق قديم، ربما بتماس كهربائي، أو سيجارة متقدة، وكان يُدخن بلا توقفٍ، والسجائر التي يحرقها، من نوعٍ غريب اسمه "بادول"، لم أره أو أسمع به من قبل. وقد أغاظني بتحركاته المشتعلة في البيت، بنفخه للدخان الكثيف على وجهي، كلما رآني، باستباحته لشَعر خادمةٍ مُبعثر، وشدِّه، بتغلغله في ما سمَّاه الرتابة، وكلاسيكية البيوت الراقية، ليُحاربها، ويُحول بيت الوزير الرصين إلى بيت صخب، تعلو في أركانه الموسيقى.

مـن أول يـوم رأيتـه فيـه، نويـتُ بشـدةٍ أن أتحاشـاه، أن أظـل بعيـدًا بكآبتـي الجديـدة التـي سـمَّتني المرحـوم، وكنـت قـد ارتديتهـا صراحـةً، لا أنزعهـا إلا مُجـبرًا، وفي السـاعات القليلـة التـي أقضيهـا برفقـة هـمام، ولا أدري لمـاذا يُـصرون عـلى أن أسـتمر في تدريسـه، وقـد أنجـز امتحانـات صفـه بجـدارةٍ، وبـدأتْ عطلتـه السـنوية، أسـوةً بغـيره. لعلـه حـرصٌ مـن تلـك الأسرة أن يظـل الولـد مقيـداً إلى حصـص الدراسـة باسـتمرارٍ، أو لعلهـا تعليـماتٌ مـن سـيادة الوزيـر، أن أكـون موظفًـا عنـده طـوال العـام.

"والي" لم يحـترم عزلتـي، ولا أقـام وزنًـا لكآبتـي، ويـدي شـبه الميتـة التـي أمدهـا لتحيتـه، وعـدم اختلاطـي بـه، في جلسـات الشـواء التـي يُقيمهـا في الحديقـة، ويجلـس فيهـا الوزيـر وعائلتـه، وبعـض الأقـارب الزائـرون أحيانًـا، ذهـب عـدة مـراتٍ لرؤيـة أهـل الخطيبـة، ومحاولـة رؤيتهـا شـخصيًّا، وكانـت الطقـوس الوطنيـة، تقـضي بدسِّـها عـن الـزوج المُرتقب، حتـى يـوم الزفـاف، إضافـةً إلى أنهـا تُعـدَّل في تلـك الفـترة التـي تُسـمى "الحبـس"، تُعـدل جسـديًّا بالتغذيـة، ونفسـيًّا بالاسـتماع لتجـارب مَـن سـبقنها مِـن الفتيـات، وجماليًّـا بإخضاعهـا لـكل أنـواع مثـيرات الشـبق المعروفـة في البـلاد، كان يعـود متذمـرًا في كل مـرةٍ، يُهـدد بإلغـاء المـشروع كلـه، إذا مـا اسـتمرَّ الحبـس، ثـم مـا يلبـث أن يعـود إلى طبعـه المُهـرج.

كان هـمام سـعيدًا بوجـود خالـه، وليلـك سـعيدة جـدًّا بتصرفـات أخيهـا غـير المطابقـة لتصرفـات رجـلٍ عـلى وشـك الـزواج. وطلحـة الوزيـر، إمـا خـارج البيـت في نشـاط تجـارة العُملـة الـذي اسـتعاده، أو بالأحـرى، انغمـس فيـه أكـثر، لأنـه لم يفقـده في أي يـوم منـذ عرفـه، وإمـا في غرفـة نومـه التـي لم أسـتطع أن أتكهـن أبـدًا بمـا يُوجـد داخلهـا.

مـن ناحيتـي، أقلعـتُ تمامًـا عـن التسـكع في حـي البسـتان، لم أعـد أنجـذبُ لشـوارعه الواسـعة، أو حدائقـه الخـضراء، أو تُغريـني خاماتـه بالتدقيـق المتوعـك فيهـا، لاسـتخلاص عطـري الغائـب، ولم أندهـش أبـدًا مـن ذلـك السـلوك. تلـك كانـت حالـة العشـق الأخـيرة التـي قـرأتُ عنهـا كثـيرًا، أن يصـل العاشـق إلى مرحلـة المـوت المعنـوي، أن ينتهـي ككائـنٍ حـي، ويعيـش مـا يتبقـى مـن عمـره ميتًـا. تلـك السـاعة لـن تحييـه المحبوبـة، حتـى لـو بادلتـه الوصـال، قـد يسـعد بوصالهـا، قـد يضحـك أو يبـكي، أو يحتضـن، أو يُجـن أو يُمسـك رأسَـه الفَـرِحَ، ويحطمـه عـلى أي حائـطٍ، لكنـه لـن يعيـشَ الحيـاة العاديـة التـي يعيشـها النـاسُ كلهـم.

كانـوا يتحركـون في البيـت بتعجـلٍ، وخارجـه، بتعجـلٍ أشـد، وأعـرف أن موعـد عـرس الأخ سـيُقام في الأسـبوع القـادم، في صالـة صفـاء الراقيـة، نفـس الصالـة التـي أقيـم بداخلهـا عـرس شـمس العـلا، وحضرتـه حتـى آخـر قطـرةٍ في ليلـه،

بدافع الرعب كما أخبرتك. وكانت من الصالات الجديدة، افتتحتها صفاء آدم، أول سيدة أعمال في المدينة، وأصبحتْ مُتكأً لزفاف الفخامة.

كانوا يتحدثون عن الترتيبات الأخيرة، وسمعتُ ليليك مصادفةً، وأنا مارٌّ، تسأل امرأةً من أقاربهم كانت حاضرةً:

– هل تعتقدين بأن أسماء ترضى بالحياة بعيدًا، في كينيا؟

لم ينقبض قلبي، لأنني كنتُ قد مت معنويًّا، كما تعرفين، والسؤال الذي سألته كان بدافع الفضول، ليس إلا:

– هل اسم خطيبة والي أسماء؟

– نعم.

ردَّت ليلك، وأشرقتْ بابتسامةٍ، لم تُضف جديدًا إلى موت رجلٍ ميت.

قبل أن تقتلني الكآبة، أو قبل أن أصل إلى حالة العشق هذه، كنت سأعرقُ بغزارةٍ، سأسقط صريعًا، سأعودُ من صرعي لأدقق في المسألة بشراسةٍ، حتى لو اضطررت لسؤال الخادمات، اللائي يعرفن البيوت بدقةٍ، ويستطعن أن يصفن حتى عدد مرات الشخير التي يشخرها صاحبُ البيت حين ينام، وكم مرة تسقط الزوجة محمومة في أحضان الزوج. كنتُ أستطيع أن أتحقق بسهولةٍ، إن كنت

أنـت أسـماء، التـي سـتُزف لـلأخ والي، أم أنهـا أسـماء أخـرى مـن خامـات حـي البسـتان، ومنعنـي مـوتي مـن التلصـص عـلى حافظتـه، التـي أعـرف تمامًـا أنهـا تحـوي صـورةً لخطيبتـه، على الرغـم مـن أنهـا كانـت أمامـي، مهملـةً بـلا رقيـبٍ في مـراتٍ كثـيرةٍ. وحـين التقيـت الوزيـر طلحـة، في إحـدى المـرات وجهًـا لوجـهٍ، وكان عائـدًا مـن سـفرٍ، أخبرتـه بصـوت الجثـة المعنويـة، جثتـي، أننـي أعتـذر عـن عـدم العمـل في بيتـه، وأتمنـى أن يعفينـي، ويبحـث عـن بديـلٍ.

الوزير لم يُمرر ذلك الاعتذار، وأراد أن يستوضح أكثر:

– مـا السـبب الـذي سـتتركنا مـن أجلـه؟ أظننـا لم نقـصر في شيء.

أجبته، وبنفس صوتي الذي ينبعُ من القبر:

– لا لم تُقـصروا سـعادتك، وأنـا أشـكرك كثـيرًا عـلى البذلـة الجميلـة التـي أهديتهـا لي لأحـضر عـرس والي، وسـلمتها لي حرمكـم.

– لم تقل ما السبب إذن؟

كان مـصرًّا عـلى الاسـتمرار في الاسـتيضاح، ولم يكـن للجثـة مُـبررٌ، رددتُ:

– لا أعرف كيف أخبر سعادتك، لكنك ستعرف ذات يوم.

أضفتُ بأنني لن أحضر في الغد، ولكني سأحضر في الأسبوع القادم، لأبارك لكم عرس والي، وأحضر حفل الزفاف.

وأيضًا لم يبد الوزير متحمسًا لأن تُغادر جثتي بيته، طلب مني أن أتوقف عن تدريس هِمام، إن كنتُ قد تعبتُ، ولكن يمكنني أن أحضر في أي وقتٍ أشاء، وأن أشاركهم تجهيزاتهم للعرس، وهذا شيء لم أكن أنوي أن أفعله.

على صعيد الكآبة والموت، والجثة التي ترتديني وأشم رائحة تحلل أعضاء الشعور فيها، جنبًا إلى جنبٍ مع روح العشق التي تُقاوم لتظل حيةً، كان الأمر مختلفًا، توقفتُ عن الأكل والشرب، إلا بالقدر الذي يُبقيني ضائعًا، حتى تحين ذكرى تعلقي بك، ولم يبق من موعدها الكثير، وفي ليل الأرق الذي كان مُضيئًا بك وحدك في السابق، كانت ثمة أفكارٌ دخيلة، تتقاذفني وأستجيب لتقاذفها من دون رغبةٍ أكيدةٍ في قهرها. جمعتُ من تلك الأفكار ما يكفي لموت قبيلة عشاقٍ كاملةٍ، وكنتُ وحدي تلك القبيلة. فكرتُ في السم، وفي الحبل المُدلى من سقف الغرفة، وفي النار التي تأكل الأخضر واليابس، وأسلاك الكهرباء العارية، وحتى في الصديق العصابي شمس العلا باعتباره أداة موت فيزيائي رحيم كنتُ أحتاجه بشدةٍ.

وفي تسـوُّق مرعـبٍ للغايـة، قضيـتُ فيـه يومًـا كامـلًا، أقلـب في سـلع المـوت بـلا أي إحسـاسٍ بأننـي أقلـب رعبًـا، كـما كان سـيحدثُ في السـابق، اشـتريتُ حبـلًا مجـدولًا بعـدة طبقـاتٍ مـن محـل متخصـص في نسـج الأسِرَّة، وسـتين حبـة مـن عقـار "الديازبـام"، الـذي أعـرف تركيبـه الكيميـائي جيـدًا، وعرفـتُ مـن قـراءاتٍ مرعبـةٍ متلاحقـةٍ، أنـه أنهـى حيـاة عشـاق كثيريـن، ونجـمات سـينما، ومغنـين، اسـتاءوا مـن الحياة وأرادوا وداعهـا. وبحثـتُ عـن شـمس العـلا في كل مـكانٍ كان يرتـاده معـي فيـما مـضى، ولم أجـده. كان قـد انقطـع عـن زيـارتي تمامًـا، ولا أعـرفُ أيـن يسـكن حتـى أباغتـه، والمدرسـة مُغلقـة في الإجـازة الصيفيـة، كـما أخبرتـك.. كنـتُ سـأخبره بلسـان جثتـي هـذه المـرة، بأننـي سـأفضحه علنًـا، وأسـهم في لـف حبـل المشـنقة حـول رقبتـه، وأنتظـره بعـد ذلـك في بيتـي، لأسـلمه الشـموع التـي يحشـوها بغـازه المميـت.

وفي مكتبـة العطـا، التـي شـملها تسـوق المـوت، توقفـتُ طويـلًا عنـد الكتـب التـي كانـت تتحـدثُ عـن فنـاء الجسـد، وآليـة بقـاء الـروح محلقـة، لم أشـتر كتابًـا، واشـتريتُ الأمـل، في أن تظـل روحـي محلقـة في حـي البسـتان، حيـث عشـقت، وترهلـت عشـقًا، وانتـصرت في النهايـة لإرادة الضيـاع الكامـل، ذلـك المـوت المعنـوي الأخـاذ.

أخبرني كولمبس وكان يتربص بساعة خروجي أو دخولي البيت، بعد أن بتُّ أهمل تطفله كما قلتُ لك، ولا أسمح له أن يُزعج جثتي، إن عفراء تحس بأن الذي في بطنها، فتاة، هذه المرة، ستسميها أمل، وسخرتْ جثتي من أمله، نحن مَن يخترع الأمل، نحن مَن يُطعمه ويسقيه، ويبتهج برؤيته بغلًا سمينًا في حياتنا، وقد كان أملي بغلًا، رعى بنفس تلك الشروط، فقط أحسستُ بأن الوقت لتسميته لا أمل، قد حان وذبحته.

قلتُ له: فلتكن فتاة، ولتكن أملًا، هذا لا يهمني في شيء، وحذرته من إخباري بأي خبرٍ آخر يخصه أو يخص غيره، لأنني ما عدتُ أحمل أذنيْن تسمعان. كان كولمبس واعيًا، ولا يضحك، ولم يقترب من حي الصهاريج مرةً أخرى بعد خروجه من الحبس، لذلك كنتُ أبدو في نظره غريبًا، وتركني من دون أن يضيف.

كانت أمامي عدة أيام لا تزال لأقضيها في الموت المعنوي وحدي، وابتدأتُ في إنفاقها بإسرافٍ، زرتُ مقبرة المدينة الواقعة في طرفٍ بعيدٍ، حيث يرقد أبي وترقد أمي، ذهبتُ إلى سينما الشعب، ولم أذهب إليها منذ سنواتٍ طويلةٍ، لأحضر شريطًا سينمائيًّا، اسمه "كفن الميت"، فرَّ معظم مشاهديه من اللقطات الأولى، وبقيت حتى النهاية. تلكأتُ كثيرًا أمام مشرحة المستشفى، أختلسُ

النظـر إلى الداخـل، وأحـشرُ أنفـي في جوِّهـا المشـبع برائحـة المـوت، حتـى أعتـاده.

باختصـارٍ شـديدٍ يـا أسـماء، أصبحـتُ بهـذا المـوت المعنـوي واحـدًا مـن أخلـص أصدقـاء المـوت الفيزيـائي في الدنيـا.

وإمعانًـا منـي في جعـل تصرفـات الجثـة سريـة للغايـة، وأكـثر سريـة مـما كان عشـقك الكامـل، غـيرت مزاليـج بيتـي، واخترعـتُ صممًا متعمـدًا، حتـى لا أسـتجيب لنقـرات فـاروق أو امرأتـه اللاهثـة، حـين ينقـران.

لم أذهـب لعـزاء أسرة قريبـي عبـد القـادر، بوفـاة أختـه المراهقـة التـي عـثرتْ أخـيرًا عـلى ممـرٍّ ممهَّـدٍ بـين المـوت والحيـاة، وعبرتـه، محترقـةً بالنـار هذه المـرة، ولا ذهبـت لأبارك لعبـد القـادر، الـذي أزعجتـه في شـهر عسـله، مولـوده الأول وكان ولـدًا سـماه، معمـر، عـلى اسـم المجنـون العصـابي، الـذي يحكـم ليبيـا، وصـار اسـمه للأسـف الشـديد، مـن موضـات تلـك الفـترة، مـن دون تدقيـقٍ في مسـتقبل طفـلٍ رُبـط بحاكـم لا تعـرف درجـة سـماحته مـن بؤسـه.

أنـا لي موضتـي الخاصـة جـدًّا، وهـي أن أقـص جنـاح الحيـاة، بقـدر مـا أسـتطيع، وأذهـب عاشـقًا لـن تصـل رسـالته إلى مـن عشـق في يـومٍ مـن الأيـام.

٣٦٦

كتبتُ تحت الفقرة الأخيرة عبارةً استلفتها من شلال المجنون، راقص الباليه، وكان يُرددها دائمًا:

– أجمل رقصةٍ في الدنيا على الإطلاق، تلك التي تؤديها الدجاجة حين تُذبح.

وقبل يومٍ من موعد عرس والي على أسماء التي لم تود حاستي المتمكنة أن تعمل عليه، لتكتشفَ إن كانت أنت أم أسماء أخرى، وتؤازرها جثتي المعنوية بشدةٍ في ذلك الرفض، والذي انتبهتُ إلى أنه يُصادف ذكرى تعلقي بك، ولم أستغرب أيضًا، ذهبتُ إلى الأثر الطلياني، حيث التقيتك لأول وآخر مرة، كنتُ أود أن أُجري آخر اختبار حقيقي لخلاياي، قبل أن أنحرها تمامًا. لم يكن ثمة حفلٌ مُقامٌ، ولكن مجرد مبنى راكد، تحولت مقاعده وطاولاته إلى ما يُشبه الكافيتريا التي تظهر في المكان، حين لا تكون ثمة أعراسٌ مقامةٌ. جلستُ على طاولتي منعزلًا، وطلبتُ كوبًا من عصير الليمون الحامض، بلا سكر، وجاءني به أحد الخدم المرتدين للزي الموحد. كان حليق الرأس والشارب، وقد برز بطنه إلى الأمام قليلًا، وضع الكوب على الطاولة، ولم يذهب. ساعتها نهشته بعيني، واكتشفتُ بلا دهشةٍ، أنه الأزهري، مساعد ألماني- "أبو الصاحب". ولم أتحرك من جلستي أو أبدي تفاعلًا من أي نوعٍ. طالت وقفةُ الأزهري أمامي وبدا مهتمًّا بردة فعلي، كما يبدو، يريد أن يراها،

ولم أمنحها له. أخيرًا سألني، وكان صوته مضطربًا، لا يُشبه أصوات الطباخين المكسرة الناعمة، ولا أصوات ذوي القناعة المتطرفة، الذين يتحدون السلطات:

– هل عرفتني؟

قلتُ: لا.. أبدًا.. لم نلتق من قبل.

عندئذ انصرف، يحمل فرحته الخاصة، بأنه قد أجاد التخفي، ولا يدري أنها فرحةٌ مزورةٌ.

بعد يومٍ أو يومين على الأرجح، سيكتشف حكيم الدرل وجيشه الأمني، أن ثمة متطرفًا تكفيريًّا هاربًا يتخفى في وظيفة نادل، ويعلقونه في مشنقة بلا قلبٍ، في السراديب المظلمة. ومن باب الخدمة شبه المفتوح، الذي لم يكن بعيدًا عني، لمحتُ وجهًا حليق الشارب واللحية أيضًا، يُطل للحظةٍ ويختفي، ولم أستطع أن أتبين، إن كان لألماني- "أبو الصاحب"، أم لخادمٍ عادي من خدم المكان.

-٢٠-

اليـوم، هـو الذكـرى الأولى والأخـيرة، لتعلقـي بـك، وأيضًـا يوافـق حفـل زفـاف والي المسـتهتر، أخـو ليلـك، عـلى أسـماء التـي لـن أعـرف أبـدًا، إن كانـت هـي نفسـها أنـت، أم خامـة أخـرى، بنفـس الاسـم، تُقيـم في البسـتان.

منـذ الصبـاح الباكـر، وبـلا نـومٍ في الليـل كعـادتي المُكتسـبة في السـنة الأخـيرة، كـما تعرفـين، وأنـا أعمـل بنشـاطٍ، أفرغـتُ خزانتـي الخشـبية مـن محتوياتهـا القليلـة، مـن قمصـاني وسراويـلي التـي كان بعضهـا ذائبًـا مـن شـدة الاسـتعمال، وبعضهـا شـبه جديـد، اقتنيتـه أيـام أن أصبحـتُ عاشـقًا، ذا أمـلٍ مريـضٍ، مطـرز في كل شـبر مـن أشـبار حيـاتي، وضعتهـا في حقيبـةٍ باليـةٍ جـدًّا، كانـت فيـما مـضى تخـص بخـاري، بعـد أن نظفتهـا مـن وسـخ السـنين، وعنكبـوت العزلـة الـذي عشـش بداخلهـا.

جمعتُ صوري كلها، وذكرياتي، وصورة أمي المعلقة تتأملني كلما دخلتُ البيت، أو خرجتُ منه، وصور بخاري نفسه، ردمتها في حوش البيت، أوقدتُ نارًا وأحرقتها، ثم نظفتُ الحوش من وسخ الرماد. خرجت إلى الطريق، ذهبتُ إلى مسجد الحي الذي كنتُ أقصده لصلاة الجمعة كما أخبرتك، تحاومتُ زمنًا من حوله، وفارقته. شاهدتُ مريا البيضاء، ذائبة، مكسرة في الشوارع، ولم تلفت انتباهي، والمارة يتزاحمون حول رجلٍ مُسنٍّ، مقوس الظهر، يبيع خشبًا محروقًا، بوصفه ترياقًا للمحبة، ولم أتوقف، اشتريتُ خبزًا، وقليلًا من العسل، ولم آكل.

في العصر، كان كولمبس ينقر على بابي بإصرارٍ، وأنا أصم، ممدد على سريري الخشبي ولا أحس به خشنًا كما كان يحدث، وحين اقترب المساء، وبدأت رائحة الموت، تستقطبُ جثتي بضراوةٍ، كان القرار قد اتخذ. وبيدٍ ثابتةٍ إلى أقصى حدٍّ، أفرغت الستين قرصًا من المادة المنومة في حلقي، وأتبعتها بقليلٍ من الماء، فتحتُ الدفتر، أضفتُ بأصابع الجثة الهامدة توقيعي:

المرحوم.

ياسمين حسن
رواية
ماريا
تويا

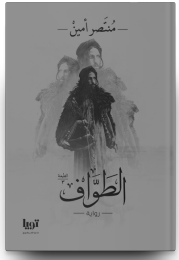

مُنتَصر أمينْ
الطوّاف
رواية
تويا

محمد عبد الصمد
تويا

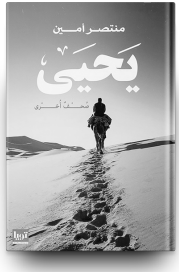

منتصر أمين
يحيى
صُحفٌ أُخرى
تويا

أحمد عويضة
وتناه لتراه
مجموعة قصصية
تويا

عرايا الروح
رواية
حلا المطري
تويا

ابقَ حيًا
رواية
إبراهيم أحمد عيسى
تويا

معرض الكتاب
إغتيال بدوافع أدبية
رواية
عبدالرحمن جاويش
تويا

ملكوت
رواية
شريف عبد الهادي
تويا

شريف أسعد
#اعترافات_جامدة
الطبعة 11
تويا

الطبعة 8
رواية
حواديت السعادة
شريف أسعد
تويا

Subject
الورقة
BOOK!
البوم اجتماعي ساخر
النسخة 15000

بالطوو فانله وتاب
أحمد عاطف
اتجاه ساخر

رواية
الطريق إلى
السيدة العجوز
محمد آدم
تويا

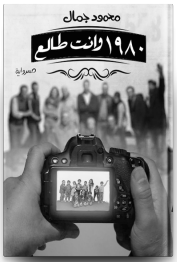

رواية
الرّاحلون
أحمد إبراهيم موسى
تويا

محمود جمال
١٩٨٠ وانت طالع
مسرواية

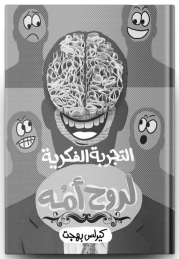

التجربة الفكرية
لروح أمه
كيرلس بهجت

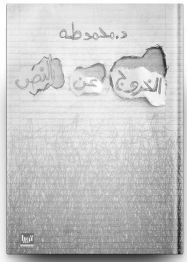

د. محمود طه
الخروج عن النص
تويا

مجموعة قصصية
مُراد مَاهر
أولياءُ كاذبون

منتصر امين
رواية
شتاء أخير

أحمد عويضة
زهرة الشيخ
عشق

رواية
امرأة بطَعم التُوت
حلا المطري

بنت نبي
محمود حافظ

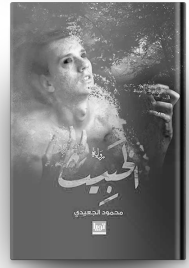

رواية
الحبيب
محمود الجعيدي

رامي أحمد
«بث مباشر»
Belly
بيلي
broadcast live

وقت جيد للتحليق
مجموعة قصصية
بيتر ماهر

أحمد عاطف
الحياة على سطح البطيخ

فيها حاجة
حرشة
سارة الذهبي

بيضة مان
فلسفة التحول
كيرلس بهجت

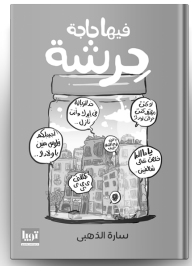

النبض صفر
رواية
عبدالرحمن جاويش

ايهاب مصطفى
اسمها زينب
قصص

... رواية ...
تغريدة عشق
هالة البشبيشي

مجيد طوبيا
الهؤلاء
رواية

حبيبة
قصة حب صوفية مستوحاه من حياة الشيخ الأكبر
محمد عبد الصمد

علاقات خطرة
د. محمد طه

يالو
حقل الأحلام
مصطفى يوسف